اوراق مجهولة من
ملفات المخابرات العالمية

طلعت الحرصفى

Bibliotheca Alexandrina
0016540

مكتبة مدبولي
القاهرة

اوراق مجهولة
من
ملفات المخابرات العالمية

طلعت المرصفى

مكتبة مدبولي
القاهرة

جَميع حُقوق الطَبع محَفوظَة

الطبعَة الأولى
١٩٩٥م

اهـــــداء

إلى ابنـــاء جيل التسعينـات الذين لم تسنح لهم معرفة الكثيرة عن قضايا ، وحالات ادار اصحابها معاكهم الشرسة فى حقب بعيدة طوتها الملفات السرية اهدت اوراق الملفات الاحدى عشر .

وإلى الاصدقاء الذين قدموا إلى مساعداتهم الكبيرة فى المكتبة البريطانية العامة فى ضاحية كولنديل (شمال غرب لندن) ودار الوثائق القومية البريطانية فى ضاحى كيو والكاتب الصحفى تشامبان بنشر وروبرت جاكسون والزملاء العاملين فى ارشيف دار الهلال والاهرام بالقاهرة .

وإلى ابنتى «سارة» اقدم الشكر والعرفان والتقدير .

طلعت المرصفى

انفيلد ـ انجلترا / يونيو ١٩٩٢

مقدمـــــة

تظل عمليات جمع المعلومات السرية وتصنيفها، واستخلاص النتائج منها عبر التاريخ تعبيرا مهذبا وبكل المقاييس عن عالم الجاسوسية والجواسيس. وطبقا للقواعد المعمول بها، والتقاليد الراسخة فى أوساط العاملين داخل عوالم الصمت فإن الجواسيس مهما اختلفت احجامهم وأهمية العمليات التى يقومون بها هم فى النهاية موظفون لدى قوى متصارعة تعمل بمختلف الوسائل على احراز النصر فى معاركها مهما كان الثمن الذى يدفعه العملاء باهظا.

وخلافا لكافة المعايير والقواعد المنطقية فى المعارك المسلحة التى تخوضها جيوش الدول المتحاربة عندما يصبح انتصار احدها على الآخر ايقاع لغة مدوية لا تخطؤها اسماع الملايين فى انحاء العالم، يظل النصر أو الهزيمة فى معارك حروب الصمت التى يخوضها العملاء والجواسيس فى الحصول على المعلومات السرية أو عمليات التخريب مطويا فى ملفات محظورة لا يكشف النقاب عن محتوياتها أو تفاصيلها داخل اروقة وسجلات اجهزة المخابرات العالمية والى الابد. رغم انه على ضوء النتائج التى تسفر عنها عمليات الاخفاق أو النصر يتخذ الساسة وصناع القرار

اخطر قراراتهم التى تحدد الكثير من مصائر شعوبهم والقضايا الاساسية المطروحة فى ساحاتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية.

على ان المؤرخين وأياً كانت قواعد الموضوعية التى يلتزمون بها فى تسجيلاتهم لأحداث التاريخ فى مجتمع ما، وزمن ما عادة ما يتجاهلون هذه العوامل وعن عمد ولسبب بسيط يتمثل فى ادراكهم - بلا شك - طبيعة السرية والخصوصية التى تتسم بها المعلومات الواردة فى ملفات وسجلات اجهزة المخابرات مهما كانت اهميتها فى نسيج الاحداث التاريخية التى يتناولونها ، فضلا عن تجنبهم الوقوع تحت طائلة قوانين افشاء الاسرار الرسمية ، أو سلطات الرقيب العسكرى، أو الحظر المفروض على نشر المعلومات حول قضايا تتعلق بأمن الدول ومصالحها العليا.

وجميع هذه المحاذير تبقى دستورا واضحا، وسيفا معلقا عن رقاب المؤرخين العسكريين أو الكتاب المتخصصين تحول بينهم وبين تناول الكثير من القضايا والوقائع المليئة بالمذهل والمثير سواء كانت احداث أو شخصيات الذين اسهموا فى صناعتها من كبار المسؤولين أو العملاء، أو الهواة والمحترفين من الجواسيس، ويظل الكثير من الاحداث التى عاشوها واسهموا فى صياغة ملامحها ووقائعها ان لم تكن جميعها اشبه «بالتابو» المحظور النشر أو تبادل الحديث عنه، فضلا عن الاقتراب منه بأى صورة من الصور ولو كان ذلك من باب العلم ليس الا، أو القاء الضوء على احداث يهم الرأى العام معرفتها والالمام بتفاصيلها، خاصة فى المجتمعات التى تزدهر فيها حرية التعبير، وتخف معها قيود الحظر على نشر الكتب، والمطبوعات.

وهذه السلسلة من الحلقات تضم نماذج بعض الحالات التى طويت وقائعها فى ملفات عدة اجهزة للمخابرات العالمية، وظلت اوراقها وما تحويها من تفاصيل مجهولة، أو ترد الاشارة اليها فى بعض الاحيان وفى سطور مقتضبة فى كتب المؤرخين العسكريين، والكتاب المتخصصين فى التاريخ لاجهزة المخابرات ودون جهد للكشف عن الغموض المحاطة به أو تفصيل يلقى الضوء على هويات الذين اسهموا فى صناعتها، وفضلوا ـ أو فرض عليهم بمعنى أصح ـ البقاء فى الظل و.. الى الأبد.

وقد استغرقت عمليات الالمام بأدق تفاصيلها وأسرارها جهداً مضنياً، استمر لأكثر من ثلاثة اعوام من التنقيب فى مطبوعات علنية، وملفات ووثائق سرية، وعدة مجلدات ضمتها دور المكتبات الخاصة ومراكز تجميع الوثائق البريطانية وحتى يتم استخراج فصول المسلسل الاحدى عشر بكل امانة وموضوعية.

اوراق مجهولة من ملفات المخابرات العالمية

الورقــة الأولى

* شبكة بريطانية داخل وكالة أنباء عربية فى القاهرة

تطرح علاقات الصداقة والتعاون التى تربط الدول الكبرى مع غيرها من الدول النامية معايير نظرية خاصة ، لا تتجاوزها اجهزة المخابرات وأنشطة المسؤولين عن محطاتها وفروعها وعملائهم فى عواصمها، انطلاقا من مفاهيم الاحترام المتبادل والحرص على وحدة المصالح العليا لهذه البلدان.

غير ان القواعد العملية التى تشكل حركة اجهزة المخابرات سواء كانت تابعة لدول كبرى أو صغرى لا تلتزم عادة بأى معايير نظرية مهما امتلأت نصوص المعاهدات والمواثيق المبرمة بينها بمضامين الصداقة والحرص عليها، أو احترام معايير ومجالات النشاط الداخلى والخارجى لهذه البلدان - وايضا - انطلاقا من طبيعة عمل هذه الاجهزة التى يضع المسؤولون عنها والعناصر العاملة بها المصالح العليا لدولهم فوق كل اعتبارات الصداقة والتعاون أو المفاهيم المثالية (اليوتوبية) التى تتحدث عنها المواثيق والاعراف الدولية.

وتكشف ملفات تاريخ العلاقات المصرية البريطانية فى حقبة الخمسينات وما تلاها من احداث عنيفة جانبا من جوانب مفاهيم الصداقة

التقليدية والتعاون المشترك بين دولة كبرى (بريطانيا)، وأخرى نامية ارتبطت بفلكها رغم الصورة التى تم بها طرح المملكة المصرية (آنذاك) كدولة مستقلة اسميا وتتولى شؤونها الداخلية حكومات حزبية، ومؤسسات دستورية وبرلمان منتخب، وصحافة تتمتع بقدر محدود من الحرية، وقوات مسلحة ينحصر دورها فى استعراضات المهرجانات الشعبية، وأجهزة شرطة لا تتجاوز مهامها حفظ الامن الداخلى وحماية الشارع العام من النشالين ولصوص السطو على المنازل وممتلكات المواطنين المصريين. إلا ان الحقيقة كانت تتجاوز ذلك بكثير وتمنح لبريطانيا نصيب الاسد فى ادارة الشؤون المصرية داخليا وخارجيا ومنذ توقيع انتونى ايدن لاتفاقية معاهدة الصداقة والتعاون المشترك المصرية البريطانية فى عام ١٩٣٦ وحتى ما قبل توقيعها بسنوات بعيدة. سمح التأثير والنفوذ البريطانى الضارب فى التربة المصرية الاحتفاظ بوجود عسكرى لقوات احتلال نصت بنود المعاهدة على الا تقل فترة بقائها عن عشرين عاما، بالاضافة الى السيطرة الكاملة على قناة السويس وتشييد قاعدة عسكرية ضخمة منحت بريطانيا اهمية استراتيجية كبيرة تشكل لمصالحها الحماية التامة والهيمنة الكاملة على ارض مصر وشؤونها الداخلية والخارجية بالاضافة الى حماية مصالح الامبراطورية شرق السويس، وضمانات احكام قبضتها على الملاحة فى القناة ذلك الشريان الحيوى لحركة التجارة العالمية بين اوروبا الغربية وبلدان الشرق الاقصى.

وعقب انتصار الحلفاء والزعامة البريطانية فى الحرب العالمية الثانية

بدأ الوجود العسكرى والادارى البريطانى داخل مصر يواجه تصاعد موجات القومية المصرية والتيار المطالب بالاستقلال الكامل عن النفوذ البريطانى، وفى ظل موجات أخرى من الاستياء الشعبى العارم المطالب بتطهير البلاد من الفساد، وبقية المظاهر المثيرة للتذمر الذى كانت تمارسه الطبقة المرتبطة مصالحها بالاحتلال البريطانى العملى للبلاد.

وقد أضيفت الى هذه العوامل، موجات الشعور العام بالاستياء من هزيمة وحدات القوات المسلحة المصرية وأدائها الهزيل فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨، والمرارة المتخلفة من خيانة بريطانيا للأمانى القومية لشعب فلسطين وتسليم بلادهم فى نهاية فترة الانتداب الى العصابات الاسرائيلية والمساهمة الفعالة فى اقامة دولة اسرائيل فى قلب العالم العربى.

فى ذروة الغضب الشعبى العارم للمصريين آنذاك، حملت اصواتهم فى الانتخابات العامة التى نمت فى تلك الفترة مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد الى رئاسة الحكومة كأكثر الوجوه الوطنية، تعبيرا عن الامة ومصالحها واستيعابا لمشاعر الطبقات العريضة من انباء الشعب المصرى، فكان أول ما تعهد به أمام ممثلى الامة من اعضاء مجلس النواب والشيوخ (البرلمان) وفى اجتماع مشترك عقب توليه الوزارة اعلان الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ وعندما يحل موعد تجديدها فى غضون خمسة اعوام. والبدأ فى ممارسة الضغوط على الحكومة البريطانية لتخفيض اعداد قوات الاحتلال فى منطقة القناة الى الحجم الذى نصت عليه بنود الاتفاقية، فى الوقت الذى أبدت فيه حكومة العمال فى لندن استعدادها للاستجابة لهذه

المطالب الشعبية والرسمية المصرية، وبالاسلوب البريطانى المعهود واعلان الموافقة على انسحاب جزء كبير من قوات الاحتلال شريطة ان تتخذ الاجراءات التى تضمن أمن واستقرار الأوضاع فى المنطقة وتأمين مصالح الامبراطورية شرق السويس!

وما ان حل شهر اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٥١ حتى كان قرار الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ قد اتخذ من جانب واحد (المصرى) مصحوبا باعلان الملك فاروق ملكا على كل من «مصر والسودان» وفى محاولة لتأجيج مشاعر القومية المصرية، وترجمة عملية من حكومة «النحاس باشا» للمطالب التاريخية بوحدة وادى النيل وتفسير لنصوص الاتفاقيات المصرية البريطانية المشتركة والمبرمة فى السابق لادارة السودان. غير ان حكومة المحافظين البريطانية التى تولت السلطة آنذاك فى لندن اعربت من جانبها وعلى لسان وزير خارجيتها انتونى ايدن استعدادها لقبول هذه المطالب المصرية بالانفراد بادارة السودان وتوسيع حدودها لتشمل الاراضى السودانية شريطة ان تتم موافقة الشعب السودانى عليها فى استفتاء عام، بالاضافة الى اعادة لندن رفضها لمبدأ الغاء المعاهدات الدولية من طرف واحد حرصا على عدم تعريض الأمن والاستقرار فى المنطقة للاضطراب، وعودة الى انتهاج مبدأ المفاوضات مرة أخرى وبهدف ايجاد صيغ ملائمة لترسيم العلاقات المصرية البريطانية وعلى أسس عقلانية واضحة بعيدة عن الانسياق الى مشاعر المد الجماهيرى وايا كانت اسبابه والشعارات التى ترفعها الزعامات السياسية المصرية آنذاك.

في هذه الاثناء التي ادركت فيها الجماهير المصرية بوعيها الفطرى آفاق الاحباط الذى تندفع اليه زعاماتها السياسية الرسمية، عادت المشاعر الوطنية الى الالتهاب مرة أخرى، وسنحت فى نفس الوقت الفرصة الذهبية لعناصر المخابرات المركزية الامريكية «سى اى ايه» فى القاهرة للتدخل واستغلال روح التوتر القائمة فى مفاهيم العلاقات المصرية البريطانية، وتغذية الاطراف المصرية ومساندتها بهدف التخلص من اوضاع الاحتلال البريطانى على ضوء ومحاولات استيعاب حركات المد الجماهيرى وتحجيم مشاعر الاستياء الشعبى تجنبا لمخاطر تحول البلاد تجاه حليف جديد يطرح الاتحاد السوفييتى - آنذاك - خياره الوحيد خاصة بعد ان تدهورت الأوضاع الداخلية بصورة متلاحقة مع تشجيع حكومة «النحاس باشا» لعناصر المقاومة المصرية تشديد ضرباتها ضد معسكرات الاحتلال البريطانى فى منطقة قناة السويس وداخل مدنها، فى الوقت الذى بدأت فيه الادارة الامريكية فى واشنطن تعرب - علانية - عن مزيد مساندتها لمطالب الزعامات السياسية المصرية بالانفراد فى ادارة السودان كجزء من امتداد السيادة والسيطرة عليه تفسيرا لمفاهيم الاتفاقيات البريطانية المصرية المشتركة الخاصة بشأن السودان.

فى نفس الوقت بدأ رئيس محطة المخابرات المركزية الامريكية «سى اى ايه» فى القاهرة تدعيم علاقاته بالعناصر المصرية المضادة للحكم الملكى وأسرة محمد على ومن مساعداته لأبرز هذه الحركات النشطة على الساحة المصرية باسم جماعة الضباط الاحرار، والذى كان يرى فيها

البديل المعتدل للقوى والحركات الشيوعية واليسارية بوجه عام، وقوى التطرف الاسلامى التى كانت تقودها جماعة الاخوان المسلمين، واقتناعا من الادارة الامريكية وشبكات اجهزة مخابراتها فى مصر بأن حركة الضباط الاحرار المصرية وفى تلك الآونة هى المعادل الموضوعى، والبديل الافضل للنظام القائم وحكوماته التى استشرى فيها الفساد ولم تعد اى من زعاماتها وجوها مقبولة فى الساحة المصرية باستثناء حزب الوفد وزعامته التاريخية مصطفى النحاس باشا.

ومع حلول شهر يناير (كانون الثانى) عام ١٩٥٢ كانت الاضطرابات على الساحة السياسية المصرية قد اسهمت عواملها فى قطع كافة الاتصالات مع منطقة قناة السويس ومدنها الثلاثة التى تصاعدت داخلها حركات المقاومة الشعبية المسلحة ضد الوجود العسكرى البريطانى واضخم قواعده فى منطقة الشرق الاوسط، وانسحاب العمال المصريين من العمل فى القاعدة وقطع كافة الوان الامداد والتموين بالمياه، والخضروات ومواد الطعام عن جنود المعسكرات. وأدت احدى هجمات الفدائيين المصريين على اكبر معسكرات ومخازن الذخيرة فى التل الكبير واحراقه الى اشتعال حدة المواجهة بين قوات الاحتلال البريطانى وعناصر المقاومة المصرية واختيار مدينة الاسماعيلية معقل حركتهم لاحتلالها بالكامل واحكام الحصار عليها وقطع كافة الاتصالات بها، إلا ان روح المقاومة التى تمثلت فى وحدات الشرطة المصرية داخلها رفضت الاستسلام واعلنت قياداتها المضى فى المواجهة - غير المتكافئة وبأسلحتها التقليدية ضد الماكينة

العسكرية البريطانية وانيابها التى خربت بضراوة المنشات المدنية فى الاسماعيلية وفرضت مختلف الوان الارهاب على الشارع العام والمواطنين المدنيين.

غير ان معارك الساعات الخمسين التى اندلعت بين قوات الشرطة المصرية من داخل مبنى محافظة الاسماعيلية وحولها بين قوات المدرعات والمدفعية التى لم تهدأ طوال هذه الساعات عن قصف المدينة اسفرت فى النهاية عن محصلتها الطبيعية غير المتكافئة وسقوط خمسين شرطى مصرى قتلى فى الساحة الداخلية لمبنى المحافظة وعلى درجها الخارجى.. ومائة جريح حولها وفى مذبحة كتب فيها جنود الشرطة بدمائهم اشرف سطور فى تاريخ الكفاح المصرى ضد قوات الاحتلال البريطانى.

وما ان بلغت انباء المذبحة وبيانات الجنرال ارسكين الذى نصب نفسه حاكما عاما على منطقة السويس ومدنها الثلاثة الى القاهرة صباح ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ حتى خرجت الجموع المصرية الغاضبة تعلن استياءها واصرارها على المضى فى مقاومة قوات الاحتلال على كل شبر من أرض مصر.. غير ان احداث الساعات التى تلاحقت فى هذا الصباح الحزين شهدت اندلاع تيارات العنف فى انحاء العاصمة المصرية واشعال الحرائق فى كافة رموز التواجد الاجنبى ودون تفرقة وفى موجة اضطراب وثورة عارمة عصفت بعشرات المنشآت العامة، واضرام النيران فى المراكز والاسواق التجارية والفنادق ودور السينما والنوادى الخاصة. ومع حلول المساء كانت سحابات الدخان الاسود الكثيف تغطى سماء القاهرة، وركام

الحرائق قد خلف خطوطا عميقة امتزجت فيها كافة التناقضات التى استحال معها على الرأى العام المصرى ادراك الكثير من حقائق تلك الاضطرابات التى عصفت بعاصمتهم والتى دخلتها وحدات من القوات المسلحة فى محاولة متأخرة ويائسة لاعادة النظام الى شوارعها وحصر ركام الحرائق المتخلفة وحجم عمليات النهب التى تمت فى مخازنها التجارية ومنشآتها العامة.

وخلال الاشهر الستة التى تلت حريق القاهرة، عانت مصر وشعبها مرحلة مخاض قلقة، وصور اضطرابات متلاحقة على ساحتها السياسية، اقال السراى خلالها حكومة الوفد والاغلبية الشعبية وازاح زعامته النحاس باشا من السلطة، وعين بدائل اخرى من زعامات سياسية رؤساء لحكومات تعاقبت مسلوبة من كافة الصلاحيات سوى صلاحية اجراء مزيد من الفساد، واعمال النهب لما تبقى من عظام على الساحة المصرية، واعمال فى تدمير آخر ما تخلف من هياكلها السياسية.

الى ان كان صباح ٢٢ يوليو (تموز) عام ١٩٥٢ عندما تحركت وحدات من القوات المسلحة المصرية قوامها ثلاثة آلاف جندى بقيادة اللواء محمد نجيب. وحاصرت مقر القيادة العامة للقوات المسلحة وقصر عابدين، وبقية رموز السلطة داخل القاهرة واعلنت استيلاءها عليها، وارسال وحدات أخرى من ٢٠٠ جندى فى شاحنات عسكرية مزودين بأسلحة خفيفة حيث قاموا بالاستيلاء على محطة الارسال الاذاعى فى منطقة ابو زعبل وتكليف القائمقام انور السادات باذاعة البيان الاول من الاذاعة المصرية يعلن فيه عن استيلاء الضباط الاحرار على مقاليد الحكم فى مصر.

وخلال ثلاثة أيام دخل فى نهايتها اللواء محمد نجيب مدينة الاسكندرية، وتكليف على ماهر باشا بتسليم مطالب الجيش الى الملك فاروق ومطالبته بالتنازل عن العرش لولى عهده الامير احمد فؤاد ومغادرة قصر رأس التين والرحيل على ظهر الباخرة المحروسة مع عائلته وممتلكاته الشخصية الى منفاه الجديد فى نابولى، حاملا معه ما تبقى من مخزون الذهب الاحتياطى فى الخزانة المصرية آنذاك الذى ضمته ١٠٤ حقائب.

وكان واضحاً منذ البداية ان الانقلاب العسكرى الذى قاده الضباط الاحرار تنفيذ محكم للخطة التى اعدتها المخابرات المركزية الامريكية (كما اعترف بذلك رئيس محطة الوكالة فى القاهرة كيرمت روزفلت فيما بعد)، ومساندتها اللوجستية والمالية لعناصر الانقلاب بتحويل مبلغ ثلاثة ملايين دولار من الحسابات السرية فى احد بنوك سويسرا الى عناصر الانقلاب العملية التى وصفها احد كبار العاملين فى الوكالة الامريكية «بالرهان على الجياد الخاسرة» فيما بعد وعندما طرح الرجل الثانى فى الانقلاب المصرى (جمال عبد الناصر) نموذجا اخفقت القيادة الامريكية فى تقدير حجمه وطموحاته خلف القيادة التى أوكل اليها تنفيذ الانقلاب.

على الصعيد البريطانى لم يلق استيلاء الضباط الاحرار على السلطة فى مصر ترحيبا كبيرا من الزعماء السياسيين فى لندن، وبالطبع من قيادة قوات الاحتلال على ارض مصر. كما لم يكن واضحا ابعاد شخصية قائد الانقلاب اللواء محمد نجيب الذى واصل تكرار اهداف حركته فى ثلاثة شعارات مبهمة تطالب المصريين «بالاتحاد.. والنظام.. والعمل»، فى الوقت

الذى لم يكن فيه واضحا موقف المجموعة العسكرية الجديدة التى استولت على السلطة ومع تنازل ورحيل الملك فاروق الى منفاه للاطار السياسى الجديد الذى سيبدأون به حركتهم فى الساحة المصرية. فقد كان تنازل فاروق عن الحكم لولى عهده الأمير احمد فؤاد يعنى بقاء النظام الملكى وبقية رموزه الدستورية، وان برز مطلب آخر يسعى الضباط الاحرار الى تحقيقه وحسم مواقفهم من موضوع ضم السودان الى سيادة المملكة المصرية.

غير ان قائد الانقلاب العسكرى المصرى اللواء محمد نجيب (السودانى الام) ما لبث فى شهر فبراير عام ١٩٥٣ وعقب مضى اقل من ستة اشهر على حركته ان توصل الى ثمار المساومة مع انتونى ايدن بالاتفاق على انسحاب بريطانيا من السودان فى غضون ثلاثة اعوام ومنح السودانيين حق الاستقلال الذاتى وبناء مؤسساتهم الدستورية مع بقاء السلطة المصرية فى الخرطوم.

ولكن مثل هذا الاتفاق لم يجد صداه داخل أوساط مجموعة الضباط الاحرار المشاركين فى ادارة مصر خلف اللواء محمد نجيب، الذى شعر من جانبه بتعاظم التيار الذى يقوده جمال عبد الناصر داخل مجلس قيادة الثورة المصرية. وفى مناورة قام بها نجيب، استهدف منها فرض هيمنته على المجلس أعلن فى فبراير عام ١٩٥٤ استقالته من رئاسته وتركه السلطة بين ايدى التيار الصاعد بقيادة جمال عبد الناصر واعوانه من اعضاء المجلس. إلا أن مناورة اللواء محمد نجيب لم يتمكن بها من قطف الثمار التى استهدفها، فقد كانت هناك عوامل اخرى جديدة يجهل ابعادها تعمل

على الساحة السياسية المصرية بعيدا عن اروقة وقاعات المناقشات المحتدمة داخل مجلس قيادة الثورة المطل على شواطىء النيل فى قلب العاصمة المصرية.

جاءت المتغيرات الجديدة وعوامل التحدى لهذا التيار الصاعد الذى يقوده جمال عبد الناصر داخل مجلس قيادة الثورة، من اسرائيل التى كانت تدرك زعاماتها ان الاسلوب الوحيد لتقليم اظافر المتشددين خلف اللواء محمد نجيب واحباط حركة الضباط الاحرار برمتها فى الساحة السياسية المصرية عن طريق ابعاد المساندة الكبيرة التى تقوم بها وكالة المخابرات المركزية لهذه المجموعة وبأى ثمن، خططت اسرائيل له وبحسابات ـ خاطئة ـ بتكليف «الموساد» (المخابرات الاسرائيلية) شن حملة ضد المنشآت الامريكية والمصالح الموالية للحركة الصهيونية على ارض مصر ومن بينها المكتبة التابعة لمركز الاستعلامات الامريكى فى قلب القاهرة والاسكندرية.

وسارت خط الموساد بنجاح مع توالى التفجيرات فى هذه المنشآت الى ان حدث ما لم يتوقعه زعماء شبكة الموساد فى مصر عندما كلفوا أحد عملائهم ويدعى فيليب ناتانسون بتفجير احدى دور السينما فى القاهرة. غير ان ناتانسون السىء الحظ ما لبث ان اخفق فى تنفيذ مهمته عندما اشتعلت النيران فى الشحنة المتفجرة التى حملها فى ثيابه داخل دار السينما. وتمكنت احدى فرق الانقاذ من اسعافه، والقاء القبض عليه ووجد نفسه يجلس فى مواجهة احدى فرق المخابرات المصرية الحديثة التشكيل التى

كان جمال عبد الناصر قد اختار عناصرها وبدأ بها فى بناء جهازه الضخم فيما بعد.

وأمام المحققين وخلال فترة استجواب فيليب ناتانسون انهار المسكين كالفأر المذعور وأدلى باعترافات كاملة عن اعوانه فى الشبكة التى تديرها الموساد وتضم عددا كبيرا من اليهود المصريين كان أبرزهم المدعوان «ماكس بينت»، ويهودى مصرى آخر يدعى «كارموناه» امكن القاء القبض عليهما. ولكنهما وقبل استكمال استجوابهما تمكنا من الانتحار والقاء مزيد من ستار التعتيم على نشاط الشبكة. وبعد التحقيق مع ستة آخرين تم الحكم على أربعة منهم بالسجن سنوات طويلة، واصدار حكم آخر بإعدام صامويل عازار والدكتور موسى مرزوق اللذين نفذ فيهما الحكم سرا بأحد سجون مدينة الاسكندرية. وأدى افتضاح أمر الشبكة الاسرائيلية واحباط اهدافها داخل مصر الى اثارة عاصفة سياسية فى تل ابيب بسبب اخفاء اسرار عملها وهويات اعضائها والاهم انفراد مدير المخابرات العسكرية «بنيامين جبلى» باتخاذ قرار البدء فى عملياتها المبكرة وتحمل مسؤوليتها دون علم اى من الزعامات السياسية فى اسرائيل.

أما فى القاهرة فقد اسهمت حملات الدعاية التى صاحبت اكتشاف شبكة الموساد الاسرائيلية فى اضافة الشعبية الى الرجل الثانى فى مجلس قيادة الثورة.. جمال عبد الناصر، وتحويله من «بكباشى» يعمل فى ظلال واجهته الرئيسية الى زعامة شعبية وليدة، وجدت فرصتها بعد وقوع ذلك الحادث بأشهر قليلة عندما احتشد سكان مدينة الاسكندرية فى مساء ٢٦

اكتوبر للاستماع الى خطاب يلقيه جمال عبد الناصر فى الذكرى الاولى لرحيل الملك فاروق.. وعقب ودقائق من بدء الخطاب اندفع سباك يدعى محمود عبد اللطيف ليطلق عليه الرصاص بأيد مرتعشة أخفقت هدفها.. والقى القبض عليه فى مشهد مثير امتزجت فيه شخصيتا القاتل الهاوى.. والعسكرى الطموح وجماهير المشاهدين الذين عقدت السنتهم الدهشة والصدمة معا.. والتى ازاحت الستار فيما بعد.. وعلى الفور عن اكبر حملات الاعتقال لعناصر قيادة واعضاء جماعة الاخوان المسلمين فى مصر.. حيث وجهت الى ٧٠٠ مدنى منهم تهمة الخيانة العظمى كما اعتقل ٢٥٠ آخرين من داخل صفوف القوات المسلحة وضباطها فيما شهدت مناطق الحدود المصرية الليبية حركة فرار جماعى للعشرات من المطلوبين قبل بدء مسلسل المحاكمات الشهيرة آنذاك لأكثر من ثلاثة آلاف معتقل احتشدت بهم السجون المصرية قبل حلول نهاية العام الثانى على سيطرة حركة الضباط الاحرار على السلطة فى مصر.

وفى تلك الآونة التى كانت قد بدأت تتجمع خيوط السلطة بين يدى جمال عبد الناصر، وتكثيف حملاته ضد زعماء الحركات والقوى السياسية المناوئة داخليا، واصل التلويح برغبته ورغبة زملائه اعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية فى الحفاظ على علاقات الصداقة والتعاون مع بريطانيا وارسال اشارات النوايا الحسنة الى رئيس الحكومة البريطانية، انتونى ايدن والتأكيد له فى نفس الوقت على ضرورة انسحاب قوات الاحتلال من منطقة قناة السويس.

وقد أسفرت المفاوضات بين الجانبين المصرى والبريطانى بقيادة وكيل وزارة الخارجية البريطانية ـ آنذاك ـ انتونى ناتج الى اعداد مشروع اتفاقية الجلاء التى نصت على انسحاب القوات البريطانية فى غضون عشرين شهرا مع الابقاء على عدد محدود من العاملين فى اجهزة الخدمة المدنية للمشاركة فى ادارة قناة السويس لفترة سبعة أعوام اخرى. وتوج المشروع بتوقيع جمال عبد الناصر وانتونى ايدن على الاتفاقية بالاحرف الاولى فى الزيارة التى قام بها رئيس الوزراء البريطانى لمصر لهذا الغرض.

ورغم ما كان يبدو على سطح العلاقات المصرية ـ البريطانية ـ آنذاك ـ من ود مفتعل إلا ان مظاهر الصداقة بين لندن والقاهرة لم تكن لها المعدة التى يسهل عليها ابتلاع المرارة البريطانية فى حلوق السياسيين وصناع القرار فى دوائر الولتمينتر أو اغفال تلك الطموحات البارزة التى بدأ جمال عبد الناصر يعلن عنها وبوضوح وعبر الاذاعة واجهزة الاعلام المصرية ومحطة اذاعة صوت العرب التى وظفها عبد الناصر فى خدمة اهدافه الممتدة الى آفاق ابعد من الحدود الداخلية فى مصر. وسقطت أولى الدول الحليفة التقليدية لبريطانيا فى المنطقة «العراق والاردن» تحت وطأة الدعايات التحريضية التى كانت تبثها اذاعة «صوت العرب» والتى اعلنت الحرب الاعلامية الشرسة على ابرز مشاريع التحالف الغربى المشكل على نمط «التحالف الاطسى»، «حلف بغداد» ومنذ ان وقع على اتفاقية انتونى ايدن، ورئيس الوزراء التركى، ورئيس الحكومة العراقية آنذاك نورى السعيد باشا فى شهر فبراير عام ١٩٥٤ وألحق بتوقيعاتهم توقيع اخر لرئيس

حكومتى الباكستان وايران بعد اشهر قليلة.

وعندما بدأت حكومة الاردن تستعد لاجراء محادثات مع بريطانيا تمهيدا للانضمام الى اتفاقية الدفاع المشترك. و «حلف بغداد» شددت اجهزة الاعلام المصرية حملاتها، واثارة عوامل التحريض للجماهير الاردنية التى التقطت رسالة القاهرة وحولتها الى تظاهرات عارمة فى العاصمة عمان وبقية المدن الداخلية. وبدا للمسؤولين الاردنيين استحالة التصدى الفعال لا ذرع الحملات الدعائية المصرية فقرروا الغاء فكرة التفاوض مع بريطانيا بخصوص الانضمام الى «حلف بغداد» وتأجيل الانضمام الى عضويته الى حين.

وأضافت رقعة الشطرنج المفتوحة فى منطقة الشرق الاوسط عاملا جديدا من العوامل الى القوة المتصاعدة للزعامة المصرية، التى كانت قد بدأت تثير دهشة واستغراب المراقبين السياسيين الغربيين وتدفعهم الى اعادة حساباتهم وتقييمهم لزعامة عبد الناصر داخل مصر ومشاريعه لتحديث القوات المسلحة فى بلاده، وبرامجه الطموحة المتلاحقة التى بدت فى نظر الكثير من زعماء الحكومات الغربية احد ابرز عوامل اختلال موازين القوى الجديدة فى المنطقة.

فى هذه الآونة التى كانت فيها الحكومات الغربية غير متحمسة لمطالب القيادة المصرية من شحنات السلاح، وأمام العراقيل العديدة التى وضعت فى طريق القاهرة لتحقيق طموحات زعاماتها الجديدة بدأت المفاوضات السرية المصرية مع حكومات الكتلة الشرقية فى شهر سبتمبر

عام ١٩٥٥ بهدف الحصول على اكبر شحنات السلاح بصورة لم تشهدها المنطقة من قبل، إذ نجحت مصر فى توقيع اول اتفاقيات صفقات التسليح مع تشيكوسلوفاكيا ولتضم ٣٠٠ دبابة، و٢٠٠ طائرة مقاتلة من طراز ميج - ١٥، و٥٠ قاذفة جوية من طراز اليوشن، ومائة عربة مدرعة مزودة بمدافع ذاتية الحركة، و٤ كاسحات الغام، ومدمرتين.

وقد كان من المستحيل أمام هذه الدفعات الاولى من صفقات التسليح الموقعة بين الحكومة المصرية والتشيكية الابقاء على امرها سرا لفترة طويلة حتى كشف المراقبون العسكريون الاسرائيليون سرها مع بدء وصول الدفعات الاولى وتبادلوا تقاريرهم مع ا لدوائر العسكرية وأجهزة المخابرات الغربية وعدم اخفاء قلقهم من نمو القدرات العسكرية المصرية التى كانت تنذر - من وجهة نظرهم - بتحولها الى قوة رهيبة مع استكمال تدفق بقية شحنات السلاح على ترساناته فى مصر.

وكان رد الفعل المباشر لانكشاف امر صفقة السلاح التشيكية الى مصر قد بدأ يثير قلق المسؤولين فى اجهزة المخابرات البريطانية ودوائر الوايتهول فى لندن، وبدأوا يعيدون النظر فى عمليات المتابعة المحدودة التى كانت تتم داخل مصر ويكتفون من أنشطة عملائهم فى موسكو وبراغ بنفس القدر الذى يكتفون به داخل القاهرة. وكشفت تقاريرهم الاولى عن الحجم المالى الذى وقعت به صفقة السلاح الاولى والذى تولى محادثاتها مع المصريين وزير الخارجية السوفييتى - آنذاك - ديمترى شبيلوف، وبلغت قيمتها ٤٠٠ مليون دولار.

فى الوقت الذى بدأت فيه السفارة السوفيتية فى القاهرة التوسع فى

انشاء دوائر عديدة داخلها تواجه بها نمو النشاط والتعاون مع الحكومة المصرية وتكرس به نفوذا جديدا متصاعدا تتم مظاهره أمام أعين وتحت سمع اجهزة وعملاء المخابرات البريطانية فى القاهرة ولأول مرة.

وقد كانت انشطة المتابعة البريطانية تتم عادة فى الحالات التقليدية السابقة من خلال جهاز مخابرات منطقة الشرق الاوسط، وفرعى مكاتب المخابرات البريطانية «إم آى فايف» MIS والمخابرات الجوية البريطانية «آر ايه إف» RAF فى منطقة فايد. غير ان انسحاب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس الى القواعد العسكرية فى قبرص لم يبق وراءه سوى مكتب فرعى يضم مديرا لمحطة المخابرات البريطانية «إم آى ٦» وعدد محدود من معاونيه، محاصرين عمليا فى معسكر صغير خارج مدينة الاسماعيلية يعمل داخله مدير المحطة «جيرالد سافيج» وثلاثة من المعاونين تنحصر مهماتهم فى متابعة الشؤون السياسية المصرية واعداد التقارير عنها واضافتها الى ملفات قديمة عن النشاط السياسى فى مصر اثناء الحرب العالمية الثانية والمصنفة فى نوعين من الملفات أولهما واضخمهم «ملف الاصدقاء» الذى يحوى أسماء وعناوين جميع العناصر المصرية التى سبق لها التعاون مع المخابرات البريطانية، وملف آخر باسم «المتعاطفون مع النازية» وضمت اوراقه اسماء وعناوين اخرى لعدة عناصر مصرية كان من بينهم محمد أنور السادات الذى لم يلفت انتباههم انه قد اصبح أحد الزعامات السياسية الجديدة القابضة على المسرح السياسى فى مصر آنذاك.

فى القاهرة كانت محطة المخابرات البريطانية «إم اى ٦» التى اشرف على تأسيسها العقيد (الكولونيل) جون تيوجو أحد العسكريين البريطانيين

الذى تلقى تعليمه فى المدارس الخاصة فى مدينة بورموث والحائز على عدة ميداليات تقدير عسكرية فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، والمزود بخبرة العمل فى الساحة الهندية، والقنصلية البريطانية فى شيراز، وبغداد وكردستان اثناء ثورة رشيد عالى الكيلانى، وفى فلسطين اثناء الانتفاضة العربية عام ١٩٣٦.

كانت محطة المخابرات البريطانية «إم اى ٦» فى القاهرة قد تركت مسؤولية ادارتها الى «رودنى دينيز» أحد العاملين السابقين فى الدائرة الخامسة لفرع خدمات الاتصال والتخابر الداخلية والسابق عمله فى العاصمة التركية بديلا لكيم فيلبى عام ١٩٥٠ والمتزوج من شقيقة الروائى البريطانى وضابط المخابرات السابق جراهام جرين. وعلى الرغم من عجز محطة المخابرات البريطانية فى القاهرة القيام بأى نشاط كبير تتصدى به لنمو العلاقات الجديدة بين حكومة عبد الناصر وحكومات الكتلة الشرقية، الا ان المسؤولين فى دوائر البرودواى (مركز قيادات المخابرات البريطانية فى لندن) كانوا يستكملون متابعاتهم لحركة نمو العلاقات المصرية السوفيتية من خلال اجهزتهم للاتصالات الحكومية فى شيلتنهام (جى سى اتش كيو) ومتابعة تدفق تقارير الاتصالات بين العاصمة التشيكية براغ والعاصمة المصرية القاهرة ومراسلات بعثاتهما الدبلوماسية فى العواصم الغربية.

على ان النجاح الكبير الذى احرزته المخابرات البريطانية «إم اى ٦» فى متابعتها لاسرار العلاقات المصرية التشيكية، وخفايا صفقات السلاح والتعاون مع الكتلة الشرقية برمتها تحقق عندما تمكن البريطانيون من

تجنيد عميل مصرى يعمل فى المكتب التجارى للبعثة الدبلوماسية المصرية فى براغ ويدعى «محمد حمدى» بدأ فى تزويد البريطانيين بالتقارير التفصيلية عن شحنات السلاح التشيكى المرسلة الى مصر، بالاضافة الى نجاح وكالة الانباء العربية فى القاهرة فى تكوين شبكة كبيرة من العملاء المستترين تحت صفة «الصحفيين» والمراسلين الذين تصادف عملهم السابق فى صفوف القوات المسلحة والبحرية المصرية. وعن طريق هؤلاء الاصدقاء (كما صنفتهم المخابرات البريطانية) وتقارير مركز الاتصالات الحكومة «جى سى اتش كيو» فى شيلتنهام، وتقارير التصنت على مراسلات واحاديث البعثات الدبلوماسية المصرية، والتشيكية وحقائبهما الدبلوماسية فى العواصم الغربية، والعميل محمد حمدى داخل مكتب البعثة التجارية المصرية فى براغ تمت احاطة المسؤولين فى وزارة الخارجية البريطانية بأدق تفاصيل الاوضاع العسكرية فى مصر طوال عام ١٩٥٥ وحتى منتصف عام ١٩٥٦ عندما وقع تحول جذرى فى الساحة السياسية المصرية باعلان عبد الناصر تأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية.

ولم تكن بريطانيا آنذاك وحدها التى ترقب منحنى التحولات فى الساحة المصرية، بل كانت ايضا اسرائيل التى دب فى اوساطها الرعب من تنامى القوة العسكرية المصرية وأخذ التهديدات الصادرة عن حكومتها مأخذ الجد، كذلك كانت فرنسا التى نشطت شبكات اجهزة مخابراتها الخارجية والتى لم تغفر لعبد الناصر تسليحه لقوات جبهة التحرير الجزائرية بالاضافة الى عديد من اجهزة المخابرات العربية المحلية.

فقد تصادف فى شهر يناير ١٩٥٦ ان اكتشفت محاولة الاغتيال لرئيس الحكومة العراقية والتى دبرتها المخابرات المصرية وأوكلت مهمة تنفيذها للملحق العسكرى المصرى فى بغداد آنذاك ومجموعة العملاء الذين شكلهم للقيام بالمهمة. ثم سجل النشاط المصرى بعد ذلك مع القرار المفاجئ اطاحة قائد الفيلق العربى فى الاردن «الجنرال جلوب» تحت ضغط وتوجيه القيادة المصرية فى القاهرة، الامر الذى كشفه عبد الناصر نفسه فى لقاء له انذاك مع وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد.

على ان النجاح الكبير الذى احرزته المخابرات البريطانية «إم اى ٦» فى تلك الآونة داخل الساحة المصرية سرعان ما تحول دراميا الى اخفاق ذريع لواحدة من اكبر عملياتها عندما شنت المخابرات المصرية الوليدة انذاك حملة مضادة مفاجئة فى ٢٧ اغسطس عام ١٩٥٦ على مكاتب وكالة الانباء العربية فى القاهرة والقت القبض على مدير الوكالة «جيمس سوينبرن» المدرس السابق والذى أقام فى مصر خمسة وعشرين عاما، مع خمسة آخرين من العاملين فى الوكالة هم تشارلس تبوك الموظف المحلى لشركة ماركونى، والذى تصادف وجوده فى شقة سوينبرن فى الزمالك لحظة هجوم رجال المخابرات المصرية عليها وكذلك المالطى الجنسية جيمس زارب، والذى كان يملك احد مصانع القيشانى فى القاهرة. وكان الثلاثة فى الواقع ابرز عناصر شبكة المخابرات البريطانية انذاك فى العاصمة المصرية.

وكشفت المخابرات المصرية بعد هذا الهجوم على شقة جيمس سوينبرن الذى لم يكن سوى مديراً لمحطة المخابرات البريطانية الفعلى فى القاهرة،

عن العثور على كميات ضخمة من الوثائق السرية لصفقة السلاح التشيكية مع مصر بالاضافة الى نسخ عديدة من التقارير التى كتبها العملاء عن نشاط الوحدات العسكرية للقوات المسلحة المصرية بالتفصيل واسماء القادة والضباط والجنود وعناوينهم وخلفياتهم الثقافية والدينية، وقوائم اخرى ضافية عن انواع اسلحة المدرعات السوفيتية وأدق اسرارها، واحدث محطات الرادار المصرية التى انشئت خارج القاهرة، وتسلم شحنات المعدات المضادة للدبابات التى تسلمتها وحدات الصاعقة المصرية وانتهاء بمراكز الضعف فى منشآت الدفاع داخل ميناء الاسكندرية، وحركة شحن صفقات المدرعات على القطع البحرية، والسفينة المصرية عكا.

كما كشفت عمليات تفتيش شقة جيمس سوينبرن فى حى الزمالك بوسط القاهرة أمر العميل المصرى الذى جندته المخابرات البريطانية بهدف الحصول على الاسرار البحرية، وكان يدعى «سيد أمين محمد» المدير السابق لاحدى المدارس الابتدائية فى مدينة الاسكندرية، والذى استطاع الحصول على معلوماته، وتقاريره من خلال ابنه الذى كان يعمل ضابطاً على ظهر السفينة المصرية «عكا» ويدعى «احمد أمين محمد». وذكر الضابط العميل فى أحد هذه التقارير ان الاجراءات قد اتخذت لشحن السفينة المصرية «السودان» بالمتفجرات لنسفها فى اللحظة المناسبة فى مدخل قناة السويس كأحد العوامل التى ستعوق حرية الملاحة فيها اذا ما اقدمت الحكومات الغربية على اتخاذ اجراء عسكرى للحفاظ على حرية الملاحة بالقوة.

كان ايضا بين العملاء للمخابرات البريطانية المقبوض عليهم، «يوسف

مجلى حنا، الذى زود البريطانيين بتقارير المعلومات عن برامج الصواريخ التى يعمل بها العلماء الالمان الشرقيون، والعمليات المشتركة التى تقوم بها الوحدات المصرية لبناء كلية جوية ومركز صيانة للطائرات ومجمع عسكرى لحساب الحكومة السورية فى احدى ضواحى دمشق.

فى الوقت الذى كشفت فيه صور التقارير السرية الأخرى التى تم العثور عليها فى شقة رئيس محطة المخابرات البريطانية فى حى الزمالك جيمس سوينبرن، انشطة العملاء المصريين فى وكالة الانباء العربية والتقارير التى كتبها العامل الميكانيكى «صلاح حسن بدير» فى احد مصانع السلاح المصرية التى كان قد تم انشاؤها حديثا انذاك عن حجم ونوعية الانتاج، كما كتب عميل آخر تم زرعه بين اوساط الشرطة السرية ويدعى «ناصف مرقص ميخائيل» تقارير تفصيلية عن النشاط الشيوعى داخل مصر وأبرز عناصره فى مختلف اصعدة العمل المصرية.

ومن داخل وكالة الانباء العربية فى القاهرة تم القاء القبض كذلك على «المهندس محمد عبيد»، والصحفيين «يوسف بدير»، و «صمويل عطية» (سودانى مقيم فى مصر) و «احمد السيد رواش» الذى كان يعمل فى نفس الوقت موظفا اداريا فى مبنى البرلمان المصرى.

وعقب مرور يومين على حملة الهجوم وإلقاء القبض على عملاء شبكات المخابرات البريطانية فى القاهرة تم طرد دبلوماسيين فى السفارة البريطانية هما جى. جيه. جوك رئيس قسم التأشيرات فى القنصلية، وجون فلكس السكرتير الاول فى المكتب التجارى وتوجيه تهمة الجاسوسية اليهما. كما رفضت السلطات المصرية السماح لممثل القنصلية البريطانية بزيارة

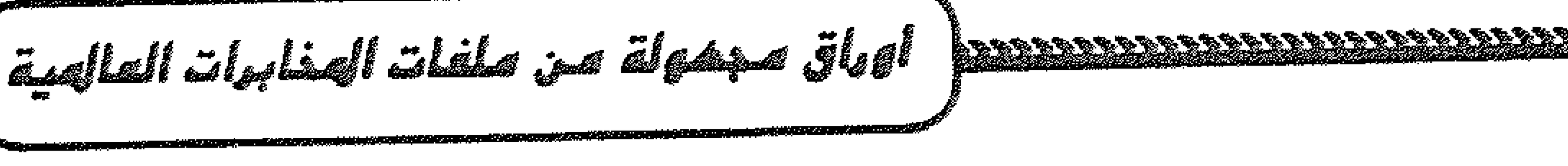
المعتقلين. وواصلت المخابرات المصرية مطاردة اعضاء الشبكات البريطانية السرية والقاء القبض على اكثر من ثلاثين عميلاً تمكن اربعة بريطانيين منهم من الهرب الى الخارج، كذلك القى القبض على «حسين على الكاشف» الحارس فى السفارة اليوغوسلافية.

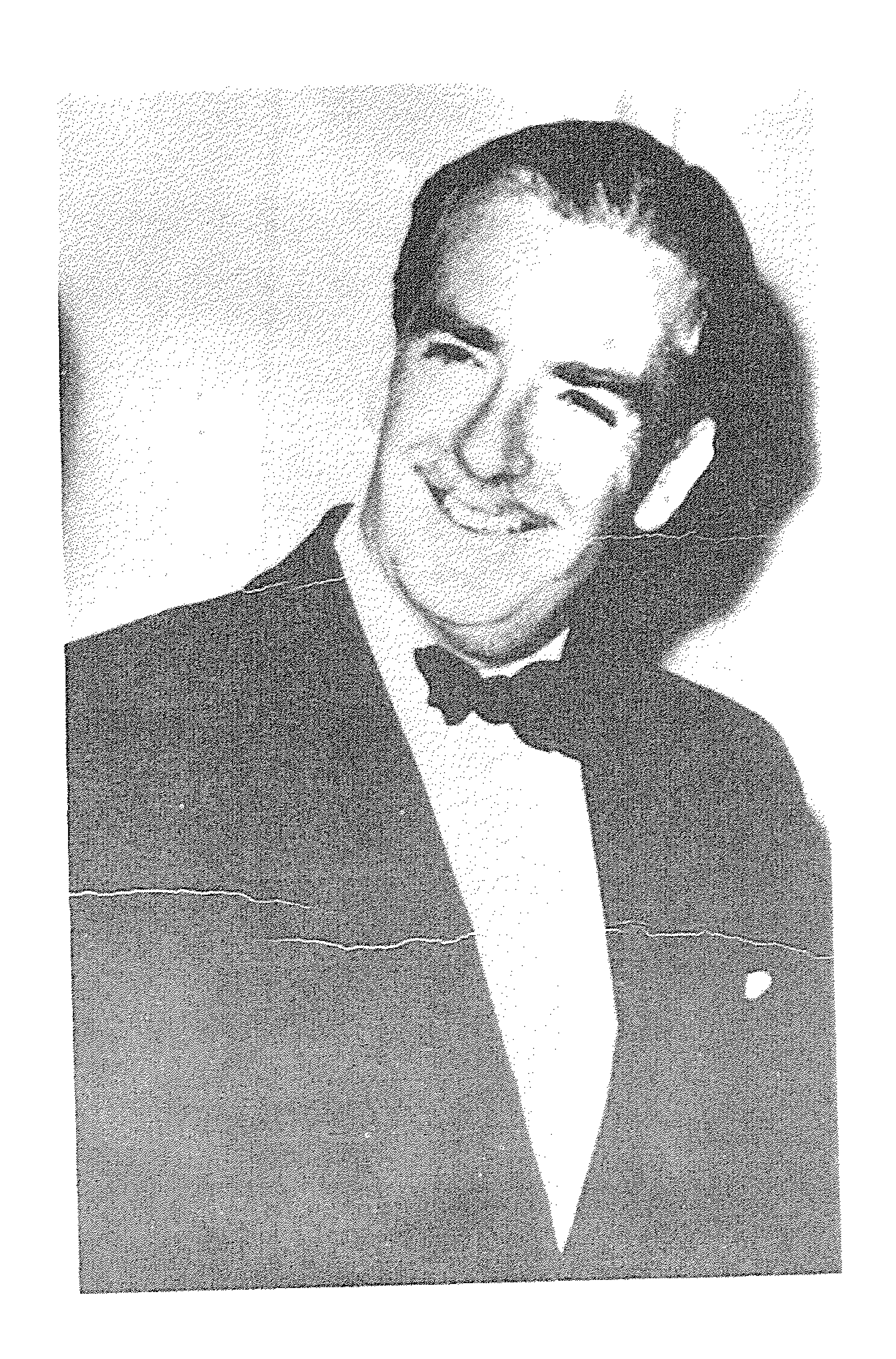
وفى محاكمات سرية جرت فى القاهرة صدرت عدة احكام بالاشغال الشاقة المؤبدة على عدد كبير منهم، كما تم اعدام اثنين هما صلاح حسن بدير ويوسف مجلى.

وتم اسدال ستار من التعتيم على واحدة من اكبر شبكات التجسس البريطانية التى ادارت نشاطها فى مصر منذ نهاية عام ١٩٥١ وحتى إلقاء القبض على عناصرها فى نهاية عام ١٩٥٦، واحتفظ بأسرارها فى ملفات المخابرات المصرية والبريطانية دون اذاعة اى منها حتى الآن.

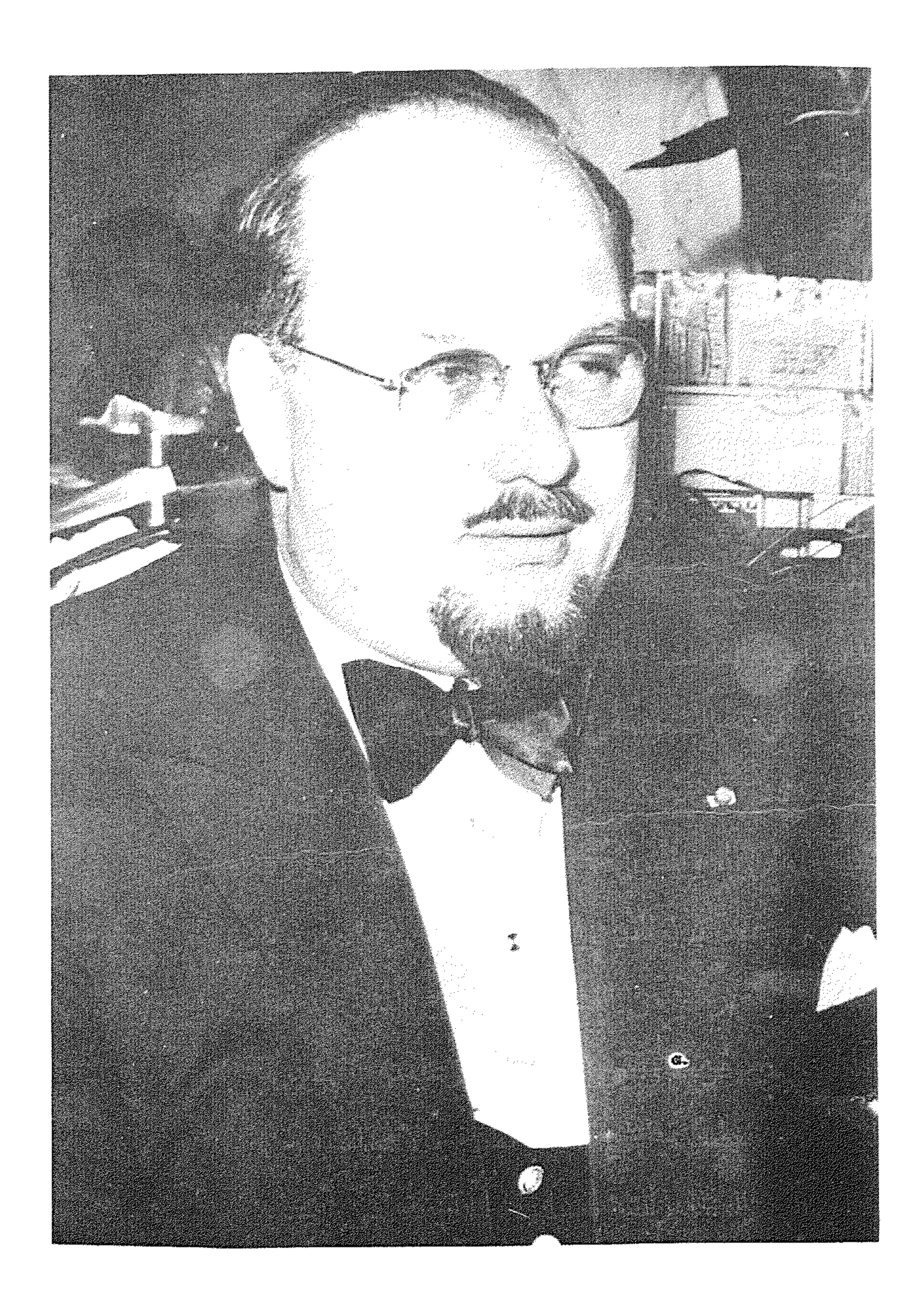


مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر عام ١٩٣٦





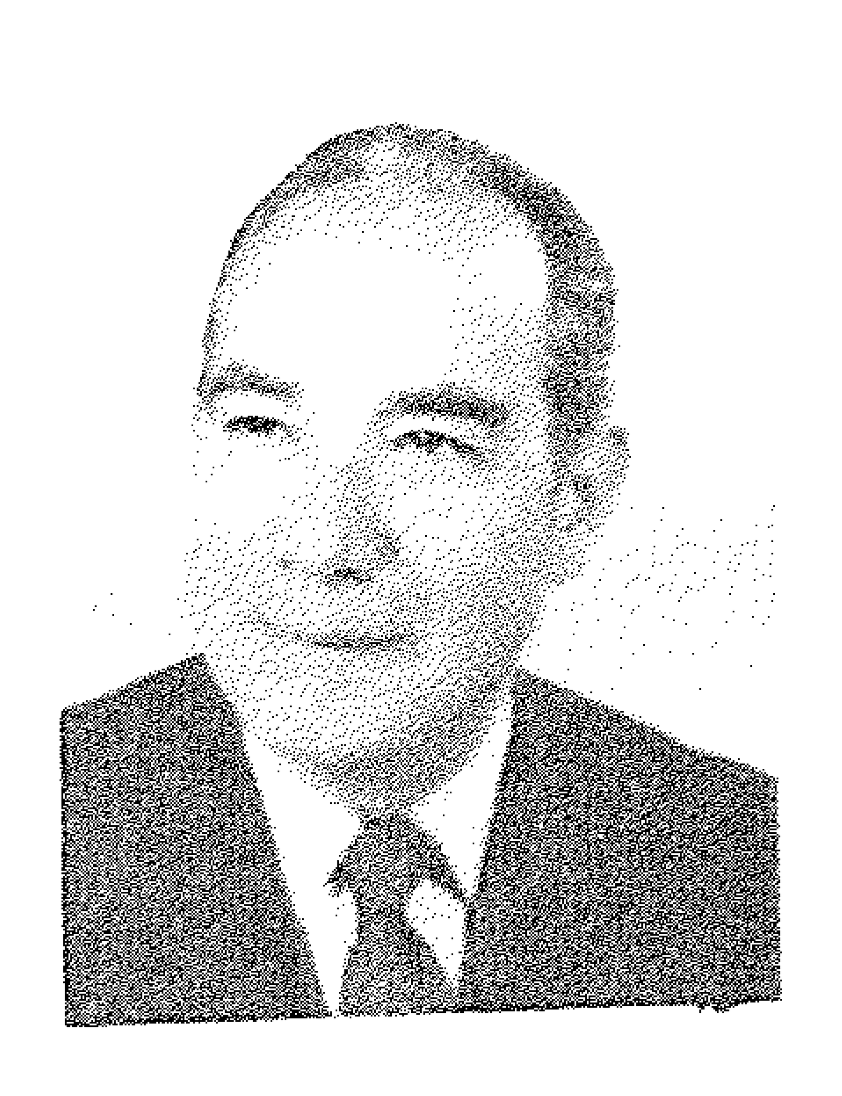
أنتونى ايدن وزير خارجية بريطانيا الموقع على اتفاقية الدفاع المشترك عن مصر عام ١٩٣٦



الملك فاروق.. ملك فى ظل الحماية البريطانية



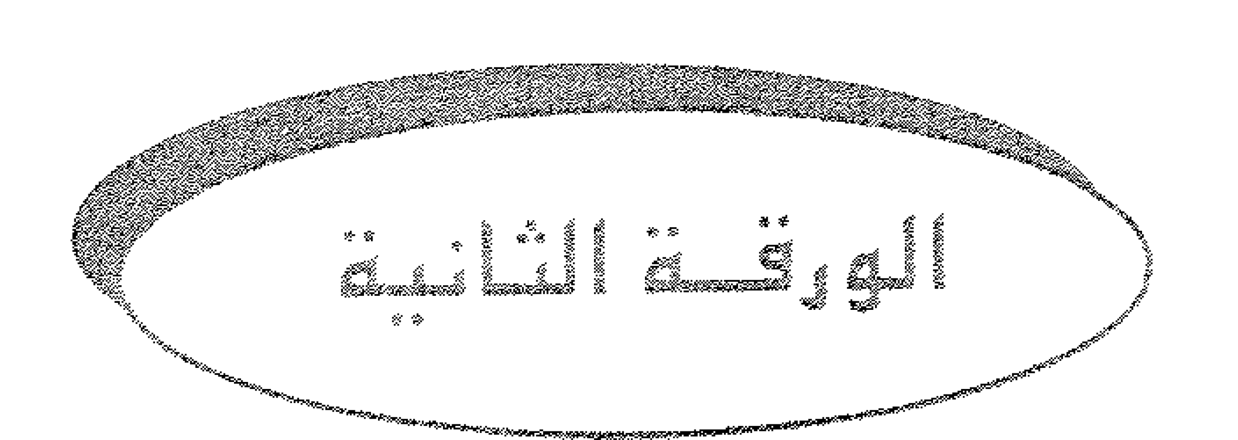
اللواء محمد نجيب قائد حركة الانقلاب العسكرى صباح ٢٢ يوليو ١٩٥٢



لواء شرطة متقاعد محمد شكرى حافظ (الآن) ضابط المخابرات المصرية الذى أوقع بأخطر شبكة مخابرات بريطانية فم عام ١٩٥٥ وعملت تحت إسم وكالة الأنبا العربية .



انتونى ناتنج وكيل وزارة الخارجية البريطانية (السابق) .. اعد مشروع اتفاقية الجلاء عن مصر عام ١٩٥٤


الورقة الثانية

«افريقيا» ساحة مفتوحة ترتع فيها أجهزة المخابرات الإسرائيلية
سكوتلنديارد تحبط عملية اختطاف وسط لندن

فى احدث التقارير السرية التى اعدتها اجهزة التحليل داخل وكالة المخابرات المركزية الامريكية حول انشطة المخابرات الاسرائيلية (الموساد) فى الساحة الافريقية، اشار المحللون الامريكيون بوضوح الي ابرز ملامح النشاط المحموم الذى تمارسه اجهزة الموساد الاسرائيلية داخل عدد كبير من البلدان الافريقية مستغلة المصاعب السياسية والاقتصادية التى تواجهها هذه البلدان وافتقار الكثير من حكوماتها لعوامل الدعم الفنى فى مجالات اخري متعددة، والأهم تعميق جذور النفوذ الاسرائيلى فى انحاء القارة السوداء، واحكام الحصار حول حركات التحرر وسلب زعاماتها من عوامل الامل فى احراز اى انتصارات ولو محدودة فى الصراعات العرقية الدائرة علي ارضها منذ ما يقرب من نصف قرن.

ويضيف التقرير الامريكى ان انشطة المخابرات الاسرائيلية داخل

القارة السوداء عادة ما يصطبغ بمسحة تقديم المساعدات الفنية فى المجالات الزراعية، وتدريب اجهزة الشرطة، ووحدات القوات المسلحة، ومبيعات السلاح، ودعم برامج ومشاريع التنمية.

وفى المقابل تتبلور انشطة الدول العربية تجاه القارة السوداء فى ممارسة انشطتها الدبلوماسية عبر منظمة الوحدة الافريقية والضغط علي حكوماتها بتقليل اعتمادها علي المساعدات الفنية الاسرائيلية، وتحجيم علاقاتها الدبلوماسية مع حكومة تل ابيب، ومحاولة كشف اهداف السياسة الاسرائيلية العنصرية.

ورغم نجاح الدول العربية فى اقناع الكثير من دول القارة الافريقية فى اواخر الستينات بقطع علاقاتها مع اسرائيل وتخفيض حجم النفوذ الذى تمارسه حكومة تل ابيب واجهزتها مع الحكومات الافريقية، فإن الاسرائيليين واصلوا ممارسة انشطتهم المحمومة داخل القارة السوداء وتمتين علاقات التعاون والعمل المشترك مع اكثر من حكومة افريقية يبرز منها صور التعاون الوثيق مع الحكومة الكينية ورئيسها دانيال اراب موي فى مجال تبادل المعلومات وانشطة المخابرات، فى وسط افريقيا كما يصعب تجاهل صور التعاون بين حكومة زائير وتل ابيب وفى نفس المجال، وفى ليبيريا وحكومات غرب افريقيا وبين الاسرائيليين فى مجالات تقديم الخبراء والدعم الفنى لتدريب قوات الشرطة ووحدات القوات المسلحة، والدور الرئيسى الذى يقوم به الخبراء الاسرائيليون فى اعادة صياغة اجهزة المخابرات العسكرية فى حكومة غانا. اما مع حكومة جنوب

افريقيا فصور التعاون الوثيق مع الاسرائيليين تتخذ اشكالاً متعددة، خاصة في مجالات اجهزة المخابرات الجنوب افريقية وبقية وكالات الامن القومي وحرس الحدود وقوات الجندرمة.

وتكشف هذه الوثيقة السرية التى اعدها المحللون في وكالة المخابرات المركزية الامريكية عاملين رئيسيين لطبيعة ممارسة اجهزة المخابرات الاسرائيلية (الموساد) علي المسرح الافريقي واستغلال الكفاءة في تشكيل شبكات جمع المعلومات، والتلويح بتوظيف بعضها في خدمة وحماية انظمة الحكم الافريقية خاصة نظام الحكم العنصري في جنوب افريقيا.

وكانت الموساد الاسرائيلية قد وقعت مع اجهزة المخابرات في جنوب افريقيا ووكالة الامن القومي اتفاقية سرية في عام ١٩٧٦ تستهدف تبادل المعلومات وتكثيف انشطة مكافحة حركات التحرر ومطاردة زعاماتها وابطال مفعول الدعم المادى والمعنوى الذى تتلقاه من الخارج فضلاً عند دعم القواعد الشعبية من ملايين الملونين الذى يشكلون الاغلبية الساحقة داخل جنوب افريقيا.

وقد كان من ابرز ثمار هذه الاتفاقية السرية بين الموساد والاجهزة النظيرة في جوهانسبرج، ما اسفرت عنه عملية الغزو الاسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢، واجتياح الجنود الاسرائيليين لأحد مقار قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، واستيلاءهم علي كم هائل من الوثائق والمستندات التى تكشف عمق العلاقة بيذ المجموعات الفلسطينية

المناضلة وبين زعامات حركة المجلس الوطنى الافريقى The (ANC) African National congress. العدو الرئيسى للحكومة العنصرية فى جوهانسبرج.

وعلي الفور وعقب استيلاء الغزاة الاسرائيليين علي هذه الوثائق والمستندات ونقلها الي تل ابيب، قاموا بارسال نسخ منها الي مكتب الامن القومى فى جنوب افريقيا South African Bureau of State Security (SABSS) باعتبارها الطعم الثمين الذى كان ينتظره المسؤولون فى الجهاز الافريقى منذ سنوات طويلة، وكرد من «الموساد» للجميل الذى بادرت به حكومة جنوب افريقيا لتقديمه الي القوات الاسرائيلية خلال معاركها الحربية مع الدول العربية عام ١٩٦٧، والجهود التى بذلها ٨٥٠٠ يهودى هاجروا من جنوب افريقيا الي اسرائيل وقدموا مساعداتهم الفنية والمالية لدعم اجهزة الجيش الاسرائيلى.

غير انه عقب حرب اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٧٣ والنصر الذى احرزته القوات العربية علي اسرائيل، وما صحب ذلك من استخدام النفط كعامل مساعد لتكريس النصر، وارتفاع اسعاره فى الاسواق الغربية، واصلت الدول العربية تكثيف حملاتها علي الصعيد الدبلوماسى فى الساحة الافريقية، الامر الذى اسفر عن قطع حكومات خمسة وعشرين دولة افريقية لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل وتجميد انشطة اجهزتها ومساعداتها الفنية والعسكرية فى مقابل الحصول علي شحنات هائلة من النفط الرخيص والملايين من اموال المساعدات العربية، فيما ظلت بعض

هذا الدول الافريقية التى قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل ـ وخاصة نيجيريا التى تمثل اهمية مضاعفة للاسرائيليين ـ تتلقي المساعدات الفنية والعسكرية الاسرائيلية سراً، وقد بلغ حجم هذه المساعدات فى بعض الفترات التى اعقبت زهو الانتصار العربى فى حرب اكتوبر، وايضا بالنسبة لدولة نيجيريا انتشر ما يقرب من ألفى خبير وفنى اسرائيلى فى مختلف الهيئات والمؤسسات وبرامج ومشاريع التنمية النيجيرية، وواصلوا اسهامهم فى بناء المدارس والفنادق والمراكز والقواعد العسكرية وبرامج التدريب.

ومع حلول عام ١٩٨٤ قدمت الاوضاع السياسية فى نيجيريا فرصة ذهبية لأجهزة الموساد الاسرائيلية. فمع حلول مطلع العام قام اللواء محمد بخارى بانقلابه العسكرى الشهير، واستولي علي السلطة فى لاجوس ونجح فى اطاحة حكومة «شاجارى»، واعلان تدخل القوات المسلحة النيجيرية فى ما اسماه بانقاذ البلاد من الانهيار الاقتصادى والفوضي السياسية. وصحب هذا الاعلان من قيادة الانقلاب سلسلة متلاحقة من توجيه الاتهامات الي رموز العهد السابق، وتصادف ان كان احد هذه الرموز صهر الرئيس النيجيرى المخلوع، «عمر ديكو» وزير المواصلات السابق الذى اتهم علي نطاق واسع فى نيجيريا باستغلاله للنفوذ، وتزويره للحملات الانتخابية لصالح استمرار العهد القديم فضلاً عن نهبه لثروات قدرت بمئات الملايين من الجنيهات.

وايا كانت مزاعم الاتهامات التى وجهت الي عمر ديكو فى تلك الفترة فإنها كانت تستهدف فى النهاية المطالبة برأسه بعد تقديمه الي المحاكمة

امام حكام العهد الانقلابى الجديد ومحاسبته علي الجرائم الاقتصادية التى ارتكبها فى حق الشعب النيجيرى.

غير ان عمر ديكو الذى كان فى لاجوس - آنذاك - لم يتردد طويلا فى القيام بمحاولة الهرب من البلاد بعد ايام قليلة من وقوع الانقلاب قام خلالها برحلة طويلة عبر العواصم الاوروبية الغربية وانتهت به فى آخر المطاف فى لندن.

ومضت عدة اشهر علي الاختفاء المفاجئ لعمر ديكو من نيجيريا، تظاهر فيها قادة الانقلاب فى لاجوس بمواجهة العديد من مصاعب التركة المثقلة التى خلفتها حكومة شاجارى، وفى منتصف نهار احد ايام شهر يوليو (تموز) وبينما كان «عمر ديكو» متجها من مسكنه فى «بورشيستر تيراس» (وسط لندن) لتناول الغداء مع احد الاصدقاء، تعرض لهجوم مباغت من اثنين من المسلحين الملونين وقاموا بدفعه داخل احدي سيارات «الفان» وانطلقوا بها كالصاروخ مختفين عن المنطقة برمتها.

غير ان هذه المشهد السريع الذى لم يلفت انتباه المارة فى شارع بورشيستر تيراس فى ذلك اليوم شهدت وقائعه المفاجئة شخصية واحدة، تصادف ايضاً انها كانت البريطانية «اليزابيث هيز» التى كانت تعمل سكرتيرة خاصة لعمر ديكو نفسه!!، وتأكدت من الصرخات الملتاعة التى اطلقها وهو يحاول التخلص البائس من ايدى مهاجميه، ان العملية ببساطة جريمة اختطاف لشخصية نيجيرية مسؤولة سابقاً فاسرعت الي ابلاغ

الشرطة ودق اجراس الانذار حول ما وقع فى احد شوارع العاصمة البريطانية.

علي الفور انتقل الكوماندور «ويليام هلكسنى» قائد فرقة مكافحة الارهاب فى شرطة سكوتلنديارد الي موقع الحادث، ووجه تعليماته الي رجاله بمطاردة المختطفين ورهينتهم، واحكام الرقابة علي المنافذ فى الموانئ والمطارات البريطانية وخاصة مطار «ستانستيد» الذى يبعد عن لندن مسافة ثلاثين ميلاً ويستخدم عادة فى عمليات الشحن الجوى لعدد كبير من شركات خطوط الطيران البريطانية والاجنبية.

مرة اخري تصادف ان كانت تربض إحدي طائرات الخطوط النيجيرية من طراز بوينج ٧٢٧ فى احد ممرات مطار ستانستيد علي وشك الاقلاع عندما اندفعت مجموعة من سيارات الشرطة البريطانية الي ارض المطار وحاصرت الطائرة النيجيرية تمهيداً لفحصها بناء علي شكوك قوية اعرب عنها «تشارلز مورو» احد امهر ضباط شرطة الجمارك العاملين فى هذا المطار تجاه بعض الطرود التى اتسمت بضخامة الحجم والمصنفة فى الحقيبة الدبلوماسية النيجيرية المرسلة الي وزارة الخارجية فى لاجوس.

فى هذه اللحظات واجه ضباط الشرطة والجمارك مأزق افتقادهم لأى صلاحيات تسمح لهم بمعاينة الطرود او فتح محتويات الحقائب الدبلوماسية ومقتضي قواعد ونصوص القانون الدولى الذى يلتزمون بتنفيذه بصرامة.

ولكن ضابط الجمارك المحنك والمليء بالشكوك تجاه بعض الصناديق الخشبية الكبيرة الحجم لاحظ عدم وضع البطاقات الدالة علي الحصانة

الدبلوماسية للعبوة النيجيرية علي هذه الصناديق فضلاً عن انها كانت تبدو وقد اعدت علي عجل، الامر الذى برز فى الثغرات المفتوحة بجوانبها والاهم من ذلك بعض الاصوات الغريبة الصادرة منها والتى تعلو علي صوت محركات الطائرة النيجيرية قبل اقلاعها.

وانتهي ضباط الشرطة الي سحب الصناديق المشكوك فيها الي احد العنابر فى مطار «ستانستيد» ووضعها بعيداً عن المنشآت وحركة الافراد تجنباً لاحتمالات شحنها بالاسلحة والمتفجرات الي حين استدعاء احد الدبلوماسيين العاملين فى السفارة النيجيرية فى لندن لفتحها بنفسه امام عيون الشرطة البريطانية المدربة.

ولم يمتد الوقت طويلاً حتي حضر احد الدبلوماسيين النيجيريين وبدأت عملية اقناعه بفتح صناديق الطرود المعدة لارسالها فى الحقيبة الدبلوماسية الي «لاجوس». وكانت المفاجأة التى عقدت لسان الدبلوماسى النيجيرى واصابت الشرطة البريطانية بالدهشة والسعادة معاً عندما تم فتح الصندوق الاول والعثور علي «عمر ديكو» داخله، فاقداً للوعى بفعل مخدر قوى، مكوماً فى احد اركان الصندوق فى مواجهة رجل مسلح آخر، وبحوزته احدي الحقن المعبأة بالمخدر والمعدة لاعطائها لعمر ديكو مرة اخري خلال رحلة الساعات الطولة التى يستغرقها قطع المسافة من «لندن» الي العاصمة النيجيرية «لاجوس»، بالاضافة الي تثبيت انبوب من البلاستيك فى حلق «ديكو» لمساعدته علي مواصلة التنفس، وانبوب آخر فى ذراعه ينتهى بزجاجة من البلاستيك معلقة داخل جدران الصندوق، مقيد المعصمين، والقدمين.. غارقا فى بركة من مخلفات معدته.

واستمر ايقاع المفاجآت مع فتح الصندوق الثانى ضمن محتويات طرود الحقيبة الدبلوماسية النيجيرية الغريبة، ليطل منه اثنان من الاشخاص فى حالة وعى كامل كما الحالة التى كان عليها رفيق عمر ديكو فى الصندوق الاول. اقتيد الثلاثة الي احدي الغرف الجانبية لاستجوابهم وتفسير تلك الرحلة المثيرة التى يمكن ان يختارها بعض المسافرين علي خطوط الطيران من لندن الي احدي العواصم الافريقية.

اعترف المسافرون الثلاثة داخل صناديق الحقيبة الدبلوماسية بجنسيتهم الاسرائيلية، كما اعترف الاول بحمله لقباً علمياً قدم به نفسه فى التحقيق باسم الدكتور ليف أرى شابيرو Dr. Lev Arie shapiro، ضابط الاحتياط فى جيش الدفاع الاسرائيلى، والمقيم فى مستعمرة «بيت تكفاه». اما الآخران فقد قدما نفسيهما باسمى «الكسندر باراك وفليكس ابيثول "Alexander Barak & Felix Abithol".

بالطبع انتهت عمليات الاستجواب والتحقيق بالقاء القبض علي الاسرائيليين الثلاثة وتوجيه تهمة الاختطاف اليهم، وارتكاب مجموعة من الجرائم علي الاراضى البريطانية من بينها حيازة المخدرات وحقنهم بها لاحد الاشخاص وكادت تتسبب فى وفاته، بالاضافة الي القاء القبض علي الدبلوماسى النيجيرى بعد رفع الحصانة عنه والذى كان فى الواقع «الرائد محمد يوسف» مسؤول محطة المخابرات النيجيرية فى لندن، والذى كان كذلك قد استنفد الاشهر الستة السابقة علي محاولة تنفيذ خطة الاختطاف الفاشلة بالتدريب عليها فى شوارع لندن متظاهراً بتصوير احد الافلام..

الهواية التى تستر خلفها، والمشروع الذى كلف به من قيادة المخابرات النيجيرية فى لاجوس.

وعندما تسلم الرائد «محمد يوسف» الضوء الاخضر بتنفيذ خطة اختطاف عمر ديكو، قام بالاتصال باصدقائه القدامي فى المخابرات الاسرائيلية «الموساد» الذين قدموا اليه صديقا قديما هو الكسندر باراك الضابط فى نفس الجهاز. حيث اعد الصديقان النيجيرى والاسرائيلى الصناديق الخشبية داخل قسم الخدمات الاجتماعية فى السفارة النيجيرية بمنطقة بيزووتر (وسط لندن) وكلفهما اعدادها ٥٥٠ جنيهاً استرلينياً. وعقب الانتهاء من اعدادها طار الكسندر باراك الي اسرائيل لتلقى تعليمات التنفيذ والمساعدة من رؤسائه الذين وعدوه بارسال اثنين من الخبراء العاملين فى الموساد الي لندن ليساعدوا فى علمية اختطاف «ديكو» من وسط العاصمة البريطانية واصطحاب الصيد الثمين فى رحلته الي ان يتم تسليمه الي من يعنيهم الامر فى المخابرات النيجيرية فى لاجوس.

أمام محكمة الجنايات المركزية فى لندن (الأولدبيللى) قد المتهمون الأربعة فى شهر فبراير (شباط) عام ١٩٨٥ حيث اعتراف الاسرائيليون الثلاثة بالاتهامات التى وجهت اليهم، وفسر رئيسهم ضابط الموساد الكسندر باراك اقدامهم علي ارتكاب عملية الاختطاف (الفاشلة) بانها كانت تتم لحساب مجموعة من رجال الاعمال النيجيريين الذين كان يهمهم احضار عمر ديكو الي لاجوس لمواجهة الاتهامات الموجهة اليه بالفساد الرشوة وسرقة ملايين الجنيهات اثناء توليه وزارة المواصلات فى السابق.

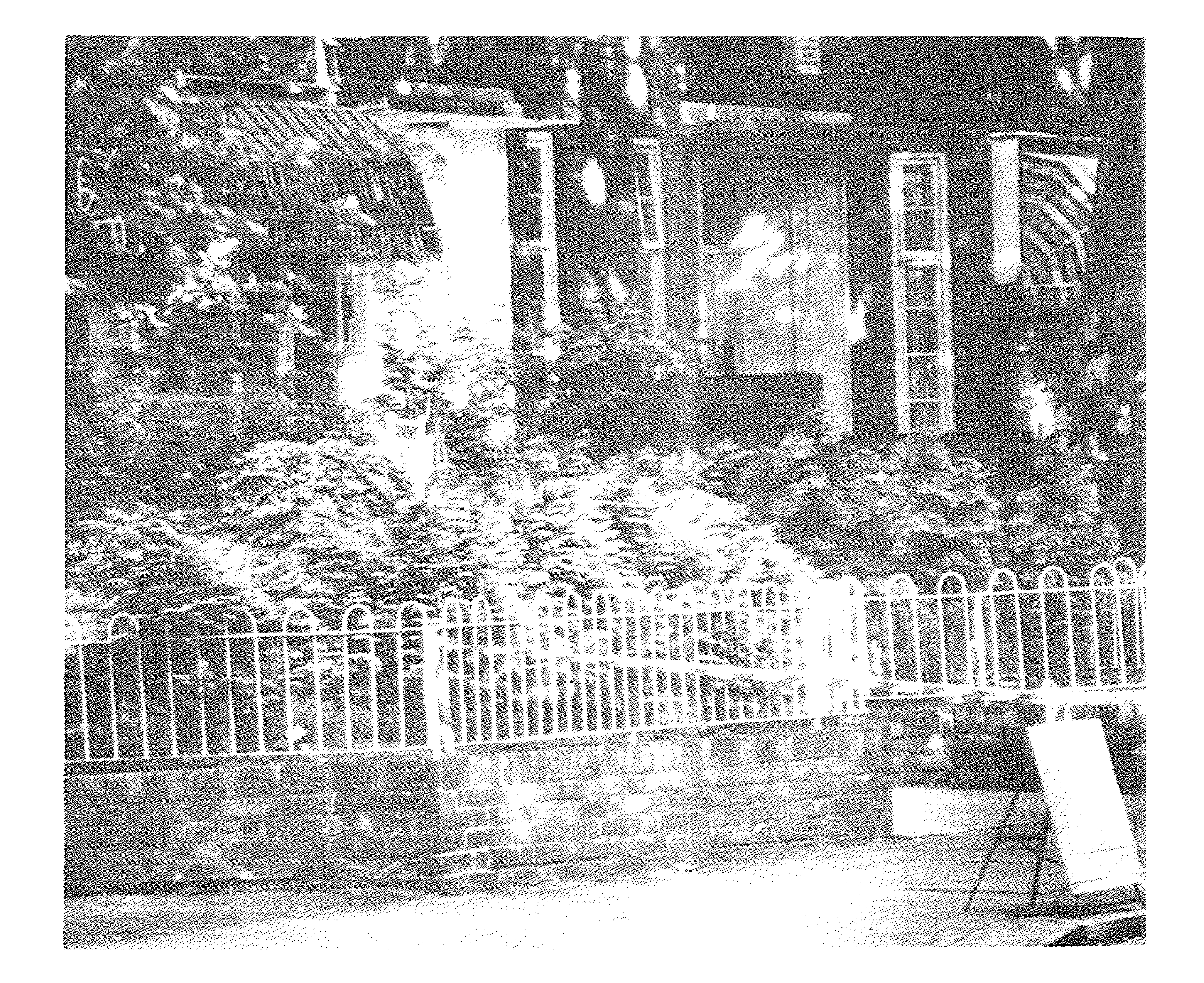
لكن ممثل الاتهام فى محكمة الجنايات المركزية اللندنية جورج كورمان كشف عن تورط المخابرات الاسرائيلية (الموساد) فى العملية برمتها منذ التخطيط لها فى لاجوس الي مراحل التنفيذ فى لندن، انتهاءاً بالاخفاق علي ارض مطار «ستانستيد». كما كشف عن الدور الذى قام به ضابط المخابرات الاسرائيلى «الكسندر باراك» فى تجنيد طبيب التخدير فى قسم الانعاش بمستشفي «هاشارون» Hasharon فى تل ابيب . الدكتور «ليف آري شابيرو» مقابل عرض مبلغ ألف دولار يمنحه اياها عند تنفيذ العملية، ولكن المثير هو رفض شابيرو الحصول علي اى مكافأة واستعداده للقيام بتنفيذ المطلوب منه بوازع وطنى.. و.. لخدمة المصالح الاسرائيلية! وان قبل اثناء وجوده فى لندن تسلم مبلغ ألفين دولار بحجة شراء معدات طبية لم تتجاوز فى الواقع شراءه لحقنة وعلبة ابر، وعبوة المخدر!

الدكتور شابيرو.. الوطنى المتحمس للدفاع عن المصالح الاسرائيلية كان كامل الاقتناع بانه بقوم بالعمل لحساب «الموساد» كما اعترف بذلك امام المحكمة المركزية للجنايات فى لندن (الأولدبيللى) فضلاً عن انه كان صاحب الاقتراح بتجنيد صديقه القديم فيليكس ابيتول ـ وعلي حد وصفه له بالصديق الموثوق به ـ الذى لم يكن سوي ضابط آخر فى المخابرات الاسرائيلية.

ولاسباب امنية لم يشأ المدعى العام البريطانى والمحامى اللامع فى هذه المحاكمة العاصفة فى محكمة الجنايات المركزية فى لندن «روى املوث» التوغل كثيراً فى كشف ممارسات اجهزة «الموساد» وعملائهم علي الاراضى البريطانية تاركاً مهمة اصدار الحكم الي القاضى «ماك كوان»

الذى اشار باصبعه الي تورط الموساد فى عملية اختطاف وزير المواصلات النيجيرى السابق عمر ديكو قبل اصداره الحكم بسجن الكسندر باراك ضابط المخابرات الاسرائيلى اربعة عشر عاماً، واحكاما اخري بسجن عميليه الدكتور ليف أرى شابيرو، وفيليكس ابيتول عشرة اعوام لكل منهما اما الدبلوماسى السابق ورئيس محطة المخابرات النيجيرية فى لندن الرائد محمد يوسف فقد حكم عليه بالسجن اثنى عشر عاماً بعد تجريده من الحصانة الدبلوماسية .

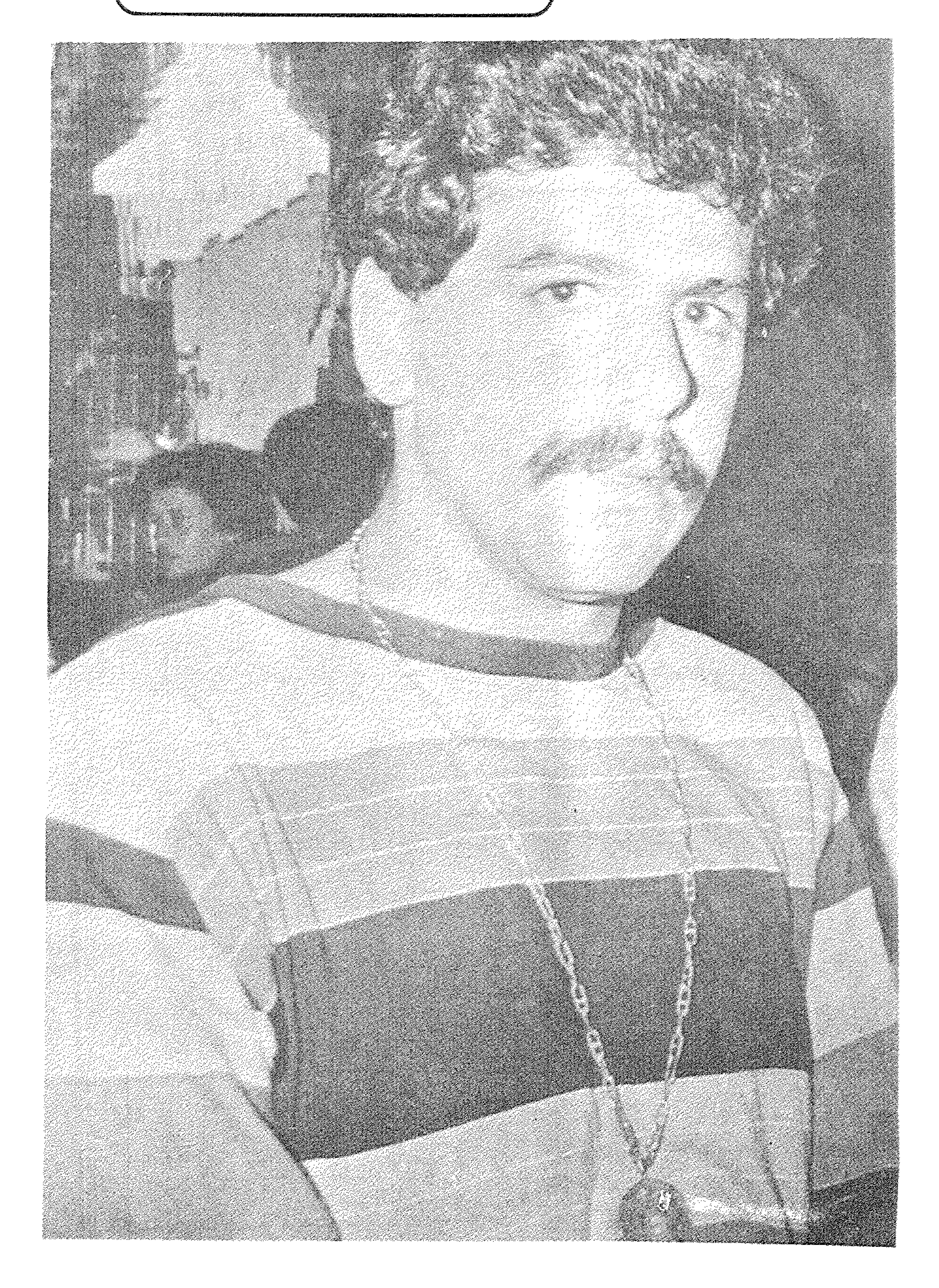
وبقى بعد اغلاق ملف الاختطاف الفاشل لعمر ديكو فى لندن الهدف الرئيسى لقيام المخابرات الاسرائيلية بلعب الدور لحساب النظام الجديد فى لاجوس الذى ايعلن عن رغبة الاسرائيليين الدائمة فى توطيد علاقاتها مع دولة افريقية فى حجم نيجيريا وتنمية علاقات التعاون التجارى والفنى والعسكرى واستعادة احد المواقع السابقة للنفوذ علي ارض القارة السوداء.



امام منزله فى بورشيستر تيراس وسط لندن تم اختطاف عمر ديكو الوزير النيجيرى السابق



الوزير المختطف عمر ديكو



الكسندر باراك احد عملاء المخابرات الاسرائيليين الثلاثة الذين نفذوا مؤامرة اختطاف

عمر ديكو



الصندوق الذى عثر على ديكو داخله بعد قتله على ايدى الشرطة اللندنية

الورقـة الثالثة

رئيس حكومة استراليا.. جاسوس صينى

قبل منتصف نهار السابع عشر من شهر ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٦٧، وفى منطقة شيفيوت بيتش المطلة علي شواطئ المحيط والتى تبعد بمسافة ستين ميلا الي الجنوب من مدينة ميلبورن فى استراليا والمحظور التردد عليها منذ ان انتصبت فيها معسكرات تدريب ضباط الحرس الوطنى الاسترالى، وخطورة الاستحمام فى شواطئها بسبب التيارات المائية العنيفة بها.. وصلت سيارتان تقل احداهما رئيس الوزراء «آنذاك» هارولد هولت (٥٩ عاما)، والاخري يقودها رجل اعمال تربطه صداقة متميزة بالرئيس.

ورغم معرفة الرجلين بخطورة الاستحمام فى المنطقة، والحظر المفروض علي شواطئ شيفيوت بسبب وجود معسكرات تدريب ضباط الحرس الوطنى فى تلك البقعة النائية من مقاطعة فيكتوريا، فإن رئيس الحكومة هارولد هولت لم يتردد عقب هبوطه من السيارة فى تغيير ملابسه الخفيفة وارتداء ملابس الاستحمام استعداداً لممارسة هوايته المفضلة التزلج علي سطح الامواج العالية.. فيما تعالت صيحات مرافقيه من الاصدقاء والصديقات لتحذره والاكتفاء بمتعة التريض علي الشاطئ دون الاقتراب من مياهه.. غير ان الصديق الوحيد رجل الاعمال الاسترالى الشاب «ألن

ستيوارت، تحمس لرغبة صديقه هارولد هولت ونهر مجموعة المرافقين والمرافقات بملاحظة عابرة وهو يسرع باللحاق بصديقه لاقتحام الامواج المرتفعة و.. : «اذا كان هارولد لا يهاب الصعاب فلا بأس من مشاركته متعة التحليق فوق قمم جبال الامواج!»! وانطلق فى محاولته اللحاق بهارولد هولت الذى كان ينطلق كالسهم الحاد يشق عباب الامواج فى منطقة شيفيوت بيتش اشبه بالسكين الحاد فى زبد المياه الزرقاء.

غير ان الصديق ألن ستيوارت ما لبث ان توقف عن السباحة عندما بدأت تيارات الامواج العالية تسحبه بعنف الي عرض مياه المحيط وعاد مسرعاً الي الشاطئ يرقب رئيس الوزراء الذى لا يهاب الصعاب وهو يضرب بذراعيه الامواج بعنف وينطلق كالسهم فى اتجاه تسمانيا..

وفى اللحظة التى وصل فيها الصديق الي رمال الشاطئ الناعمة كانت احدي المرافقات فى هذه الرحلة الغريبة تعبر عن قلقها ودهشتها من ذلك الجنون الذى يدفع «بالرئيس» للسباحة فى تلك المنطقة الخطرة.. وابتعاده الذى اصبح معه نقطة ترتفع وتنخفض بعنف بين زبد الامواج.

فجأة ارتفعت جبال الامواج كما لو كانت ستجتاح شواطئ شيفيوت بيتش وتغرق مقاطعة فيكتوريا بأكملها.. صرخت الصديقة «مارجورى جليسبى» علي بقية الرفاق تناشدهم ان يقنعوا الرئيس بالعودة والاكتفاء من الرحلة بمغامرة النزول الي اخطر مناطق الاستحمام المحظورة فى انحاء استراليا كلها.. لكن الامواج لم تتوقف عن الاندفاع نحو الشاطئ. وذراعى الرئيس هارولد هولت قد اختفت تماما عن انظارهم لآخر مرة..

بعد عدة ساعات كان عشرات الغواصين قد وصلوا الي المنطقة لاجراء عمليات البحث عن الرئيس المفتقد علي سطح الامواج العالية، فيما كانت عدة طائرات هليكوبتر تحلق علي ارتفاعات قصيرة تجوب المنطقة بأكملها بحثاً عن آثاره .

ومع حلول المساء توقفت عمليات البحث وعاد الغواصون وطائرات الهليكوبتر ليعلنوا اخفاقهم فى العثور عليه.. واصبح النبأ الوحيد الذى تتردد اذاعته من محطات الاذاعة والتلفزيون.. وفى طبعات الصحف المسائية فى انحاء مقاطعات استراليا.. ووكالات الانباء العالمية هو اين اختفت جثة رئيس الحكومة هارولد هولت؟!

فى اليوم التالى طار الي العاصمة الاسترالية العديد من رؤساء الحكومات الغربية لمشاركة الحكومة والشعب فى احزانهم.. كان فى مقدمة المعزين رئيس الولايات المتحدة الامريكية آنذاك «ليندون جونسون»، ورئيس الحكومة البريطانية «هارولد ويلسون»، والزعيم المعرض «ادوارد هيث».. والأمير «تشارلز» ولى عهد بريطانيا والعشرات من رؤساء فرنسا وايطاليا ونيوزيلندا.. واليابان.. وغيرهم من الساسة العالميين الذين عرفوا الرئيس الراحل هارولد هولت عن قرب وقدروا كفاءته وزعامته القصيرة للشعب الاسترالى فى تلك الفترة العصيبة التى كانت تموج بالاحداث، من الحرب الشرسة فى فيتنام الي المظاهرات الشبابية العارمة فى انحاء العواصم الغربية تدين سياسة العدوان الامريكى ومشاركة القوات المسلحة الاسترالية بوحدات كبيرة الي جانب القوات الامريكية فى ادغال البلدة

المنكوبة.

والأهم حملات النقد العنيفة التى انطلقت فى اجهزة الاعلام الاسترالية ضد سياسة الرئيس - الراحل - هارولد هولت وشخصيته وممارساته فى ادارة الشؤون العامة فى استراليا التى كانت اشبه بمن يدير مزرعته الخاصة واستخدامه لطائرات السلاح الجوى الاسترالى فى تنقلاته الخاصة فضلا عن انحسار الشعبية عن حزبه وهزيمته فى عدة دوائر انتخابية فى ظل زعامته للحزب والحكومة وداخل مجلس العموم الاسترالى نفسه.

كانت الشائعات التى امتلأت بها الساحة السياسية الاسترالية آنذاك قد بلغت ذروتها مؤكدة ان ايام حكم حزب الاحرار الاسترالى بزعامة هارولد هولت قد اصبحت محدودة، وان حكومته اصبحت عاجزة عن مقاومة العد التنازلى لبقائها فى السلطة. وفى الوقت الذى كثفت فيه المعارضة البرلمانية حملاتها ضد هولت وحكومته، كان هو نفسه يبدو غير عابئ بالمتاعب التى يواجهها، واعتبارها لوناً من ألوان الممارسة علي الساحة السياسية فى بلاده ووصفها بضرائب الديمقراطية التى يتوجب علي السياسيين من امثاله الذين احترفوا السباحة فى امواجها طوال ثلاثين عاما تحمل ضرباتها طالما انها موجهة من الخصوم والمنافسين.

وكما تقع الاحداث العنيفة والمحزنة فى مختلف المجتمعات الغربية مصحوبة بزخم اعلامى يواكب حجمها، ويتبدد سريعا بانتهائها، طغي حادث اختفاء الرئيس هارولد هولت فى اعماق مياه المحيط فى شواطئ مقاطعة فيكتوريا لعدة اسابيع علي حملات النقد السابقة لسياسته وحكومته،

ثم ما لبث ذلك كله ان تبدد من الساحة السياسية والعامة فى استراليا مع بدء دوران عجلة الحياة الاعتيادية من جديد، واصبحت ذكري اختفائه اعمدة رثاء فى الصفحات الداخلية للصحف المحلية ومرارة حزن علي شفاه دائرة محدودة من اصدقائه القدامي.

وبعد ان انقضت خمسة عشر عاما علي رحيل هارولد هولت، فجر انتونى جراى، احد ابرز الصحافيين الاستراليين قنبلة موقوتة بين اوساط الرأى العام الاسترالى والعالمى فى مناطق جنوب شرق آسيا.

ومع صدور كتابه الجديد الذى يحمل عنوان «رئيس الوزراء.. كان جاسوساً»، وبقدر ما كان العنوان يحمل اتهاما مباشراً لهارولد هولت.. اعادت التفاصيل التى أوردها «جراى» فى كتابه والأكثر اثارة الي اذهان الرأى العام الاسترالى فتح ملفات الرئيس الراحل مرة اخري ومحاولة العثور علي جذور الاتهامات الموجهة الي ذكراه وتاريخ الفترة الطويلة التى تربع فيها علي قمة العمل السياسى طوال ثلاثين عاما بشخصية مزدوجة.. طرحها علناً كسياسى لامع، وزعيم لحزب الاحرار، وسراً كعميل للمخابرات الصينية، الأمر الذى كشفه «انتونى جراى» فى كتابه عند استعراضه لظروف اختفائه الغامض فى عرض مياه المحيط، والكيفية التى تم بها التقاطه لتحمله احدي الغواصات الصينية الي عاصمة جمهورية الصين الشيوعية بعد ذلك وفى ظل اكبر حملة بحث شاركت فيها عدة اجهزة مخابرات غربية فضلا عن فرق البحث والغواصين الاستراليين آنذاك.

كانت تفاصيل القصة التى فجرها الصحافى الاسترالى اللامع «انتونى جراى» اكثر من مثيرة، ولا تفتقد للحبكة التى اكد بها عمالة رئيس الوزراء الراحل «هارولد هولت» للمخابرات الصينية سنوات طويلة دون ان يجرؤ احد علي كشفه او الشك فى سلوكه والاعتقاد يوماً بأنه نمط من السياسيين الغربيين الذين يمكن ان يتورطوا فى مثل هذه العمليات التى تدار علي الساحات الغربية بواسطة امهر عناصر حروب الصمت بين الاجهزة الشيوعية او جرأة أى من عناصرها علي تجنيد شخصية لها حجم الزعامة الحزبية فى بلاده مثل هارولد هولت.

كما لم يحدث من قبل ان كشفت ملفات المخابرات العالمية تجنيد عملاء بمثل هذا الحجم سواء فى الدول الغربية او الدائرة فى الفلك الشيوعى آنذاك.

والواقع ان رئيس الحكومة الاسترالية السابق هارولد هولت كان يطرح بشخصيته فى اوساط الزعامات السياسية الغربية نموذجا من الزعامات القريبة الشبه بالزعامات السياسية الامريكية، اكثر من اقترابها من الزعماء البريطانيين، فقد كان يتسم بجاذبية خاصة، وكاريزما تقترب به من الكاريزما التى يتسم بها نجوم السينما العالميون بكل مواصفاتهم فى الملامح والسلوك.

فى الوقت الذى لم تكن فيه هذه السمات البارزة فى شخصيته بالأمر الجديد عليه. فقد ولد (عام ١٩٠٨) لأبوين احترفا التمثيل المسرحى والعمل فى كواليسه لسنوات طويلة، حيث عمل ابوه وكيلا مشهورا لكبار الفنانين الاستراليين قبل ان يحترف الصعود علي خشبة المسارح فى سيدنى

وميلبورن وأدليد. كما كانت امه واحدة من الشهيرات فى عالم المسرح الاسترالى، اكتسبت شعبية واسعة بين رواده بأدائها لأدوار الفتاة اللعوب والمثيرة لعواطف المشاهدين فى اعمال روائية عالمية ومحلية قبل ان ينزح الأبوان بطفلهما الي انجلترا فى مطلع القرن الحالى مصاحبين لفرقة «جون ويليامسون» المسرحية الاسترالية لتقديم مجموعة من العروض فى العاصمة لندن وعدة مدن داخلية اخري فى جولة قطعا بها جنوب وشمال الجزيرة البريطانية لعدة أشهر.

واضطر الأبوان وازاء انشغالهما فى العمل المسرحى الي الحاق الصبى الصغير فى احدي المدارس الداخلية فى انجلترا (مدرسة ويسلى كوليج)، ونسيان امره تماما، والاكتفاء بسداد مصروفات دراسته وانفصالهما عنه كلية الي ان وقع الطلاق بين الأبوين عندما بلغ طفلهما سن العاشرة من عمره.

وعندما انتهت فترة بقاء الأبوين مع الفرقة المسرحية الاسترالية فى بريطانيا، فضلت الأم المطلقة البقاء فى انجلترا متنقلة بين عدة فرق مسرحية جوالة.. انطفأت فيها شعلة شهرتها السابقة وذاب اسمها بين عشرات الممثلات الشهيرات فى الاوساط المسرحية الانجليزية، وعاد الصبى هارولد مع ابيه الي استراليا، حيث الحقه بالدراسة الداخلية فى «كوين كوليج».

وفى فصول الدراسة لمع المراهق الشاب «هارولد» بين اقرانه، ليطرح شخصية لماعة عالية الذكاء، متسماً بجاذبية خاصة بين زميلاته اللاتى احطنه بالاعجاب والاهتمام، كما اسبغ عليها الكثير من خلفيات خبرته

وميراثه للحس المسرحي والتمثيلي اللتين احتل بهما مكانة مميزة اثناء دراسته كزعيم شاب يشارك في مختلف الانشطة الثقافية والاجتماعية والفنية ونجم صاعد بتفوقه الدراسي، وبروزه بين اقرانه كممثل لامع ومناقش لا يعوزه الذكاء فضلا عن ملامحه وجاذبيته الخاصة.

وفي احدي الندوات العامة التي اقامتها «كوين كوليج» في شهر يوليو (تموز) عام ١٩٢٩ شارك الشاب هارولد هولت باسم «جمعية الخطابة» بمحاضرة عن «العلاقات الاسترالية ـ الصينية» اثار ما ورد فيها من تحليل جيد وملاحظات بارزة اهتمام الطلبة من زملائه واساتذته خاصة تحليلاته الذكية لعوامل الفوضي التي كانت تجتاح الصين آنذاك والشخصية الاسطورية للزعيم الصيني المتربع علي قمة الاحداث بها «شيانج كاي شيك» وزعماء الثوار المتمردين في الاقاليم الصينية. وسرعان ما تحولت محاضرة الشاب هارولد هولت (٢٠ عاما آنذاك) الي مفردات لغة يتداولها الشباب الاسترالي في حملاتهم ومظاهراتهم المطالبة «برفع الأيدى عن الصين» وتأييد سياسات شيانج كاي شيك في مواجهته للثوار المتمردين الذين اجتاحوا المجتمع الصيني بالشعارات والايديولوجية الشيوعية.

وفي محاولة منه استثمار ذلك الاهتمام الواسع الذى أثارته محاضرته عن العلاقات الاسترالية ـ الصينية بين اوساط الشباب الجامعي في بلاده، لم يتردد في حمل محاضرته الي القنصل الصيني في ميلبورن وطلب مقابلته لتناول الشاي معه وعرضها عليه والشعور بالزهو معه بالكتابة والحديث عن بلاده.

والذى حدث بالفعل ان القنصل الصيني رحب بزيارة الشاب الجامعي

هارولد هولت ودعاه للقائه والاعراب عن اعجابه الشديد بما اورده من ملاحظات والثناء علي الموقف المؤيد الذى اتخذه من سياسة الرئيس شيانج كاى شيك وفهمه العميق لابعاد الصراع الدائر علي الساحة الصينية بين القوي الوطنية العريضة وشرائح المتمردين الشيوعيين. وقبل ان تنتهى تلك المقابلة السرية بين هارولد هولت والقنصل الصينى عرض عليه الأخير رغبة احدي دور النشر الصينية طبع محاضرته ونشرها فى بكين. ولم يتردد الشاب الطموح فى الموافقة، والسعادة بحصوله علي مبلغ خمسين جنيها استرلينيا فى مقابل نشر محاضرته حول «العلاقات الاسترالية ـ الصينية».

كما لم ينس القنصل الصينى الذكى ان يحثه علي الاستمرار فى كتابة مثل هذه المحاضرات واستعداده لنشرها فى الساحة الصينية. وسرعان ما تحول اللقاء بينهما الي صفقات متوالية يقدم فيها «هارولد» كتاباته وترتفع قيمتها المالية فى المقابل الي عدة مئات من الجنيهات يتسلمها فى نهاية كل مقابلة تتم بينهما محاطة بمزيد من اهتمام القنصل وسخائه وسعادة هولت بجريان النقود بين يديه، واتاحة الفرص الواسعة امامه للاستمتاع بحياته وصحبة الفتيات الي دور المسارح، والمطاعم الفاخرة فى العاصمة الاسترالية سيدنى، وميلبورن.

ومع حلول عام ١٩٣١ وبعد الصداقة الوطيدة التى جمعت هارولد هولت مع القنصل الصينى فى ميلبورن، طلب الاخير منه الانضمام الي عضوية احدي شبكات المخابرات السرية العاملة فى الساحة الاسترالية

بهدف الدفاع عن المصالح الصينية واكتساب مؤيدين جدد لقضاياها بين اوساط الرأى العام الاسترالى المتحمس لزعامة شيانج كاى شيك فى مكافحة الشيوعية والشيوعيين الصينيين وعملائهم فى الخارج.

وفى العام التالى كان هارولد هولت قد انتهي من دراسته وافتتح مكتباً للمحاماة فى مدينة ميلبورن، التى عاد ليستقر فيها ابوه بعد جولاته الطويلة فى مدن المقاطعات الاسترالية وعلي امل استعادته لعلاقته مع ابنه منذ انقطاعها لسنوات والجفوة التى عمقت جذورها فى نفسه تجاه ابيه. وعندما دعاه الأب الي حفل اقامه فى منزله، قدم اليه ممثلة شابة تدعي «لولا» علي جانب كبير من الجمال، حاول هارولد التقرب اليها واستغلال جاذبيته وتأثيرها المعهود بين اوساط النساء، غير ان «لولا لحسناء» سرعان ما صدته وكشفت له عن علاقتها الغرامية بأبيه واعتزامهما الزواج فى المستقبل القريب مما دعي هارولد الي الانسحاب من الحفل متجنباً رؤية ابيه واغلاق ابواب الأمل فى اعادة جذور علاقاته الواهية بأسرته. وراح يشيع بين اصدقائه ومعارفه امر وفاة ابيه منذ سنوات منصرفا لتحقيق طموحاته فى دنيا المحاماة وتوطيد علاقاته بأوساط السياسيين والمشاهير فى الساحة الفنية الاسترالية وممارسة الكتابة للصحف المحلية فى سيدنى وميلبورن وأدليد.

وفى نهاية شهر ديسمبر عام ١٩٣١، التقي هارولد مصادفة بزميل الدراسة القديم روبرت مانزيس الذى كان نجمه قد تألق فى اوساط الاجنحة اليمينية السياسية آنذاك ودعاه للانضمام الي حركة الاحرار الاشتراكيين،

وتكثيف نشاطه بين صفوفها ومحاولة الفوز بأحد مقاعدها فى البرلمان. ولم يتردد هارولد فى الاستجابة الي نصائح صديقه القديم مانزيس ويواصل العمل طوال الاعوام الاربعة التالية موظفا رصيد علاقاته الواسعة بالسياسيين ورجال الاعمال والصحافيين لتحقيق اهدافه السياسية واحتلال احد المقاعد النيابية فى البرلمان، وكاد ينجح فى اول انتخابات عامة للفوز بالمقعد الذى يطمح اليه الا ان محاولته الاولي لم يتحقق لها النجاح المرجو، الا ان اعادة الانتخابات فى احدي دوائر مدينة ميلبورن فى عام ١٩٣٤ منحته فرصة الفوز عن «الحزب الاسترالى المتحد» الذى اصبح فى ما بعد حزب الاحرار الاشتراكيين ووجد نفسه يحمل مسؤولية التمثيل النيابى داخل اعلي المؤسسات الدستورية فى بلاده قبل ان يستكمل السابعة والعشرين.

وداخل البرلمان اصبحت الواجهة الاشتراكية وشعاراتها مفردات اللغة التى يعبر بها عن افكاره امام اعضائه وبين شرائح الرأى العام الاسترالى، رغم انها لم تكن تلك النغمة الصحيحة فى الساحة الاسترالية آنذاك، الأمر الذى بدأ يطلق حملات النقد المضادة لمواقفه وطروحاته التى يتصدي بها فى القضايا العامة، واثارة حفيظة اجنحة اليمين القوية داخل البرلمان وخارجه، واستياء اكثر الاصدقاء من السياسيين الذين عاونوه علي تحقيق مسعاه بدخول البرلمان وعلي رأسهم روبرت مانزيس نفسه.

وكادت حملات النقد العلنية التى نشطت ضده تفقده سمعته وزعامته الوليدة فى الساحة السياسية الاسترالية لولا استماعه واخذه مرة اخري بنصائح صديقه روبرت مانزيس الذى حثه علي تغيير منظور رؤيته

والتخفيف من غلواء الصبغة الاشتراكية التى يطرح بها مواقفه داخل وخارج البرلمان. وبدا ان هارولد هولت قد استوعب الدرس جيدا مع طروحات مواقفه الجديدة التى راح يشن منها الحملات ضد الفاشية الايطالية والنازية الالمانية الصاعدة فى الساحة الاوروبية، وترديد اصداء حملات اليمين السياسى الاوروبى بحدة تفوق حدة زعماء اجنحته فى لندن وباريس.

فى هذه المرحلة التى بدأ فيها نجم السياسى الشاب هارولد هولت فى التألق مرة اخري فى الاوساط السياسية الاسترالية، ظل محافظا علي علاقاته السرية بشبكة المخابرات الصينية وتزويد المسؤولين عنه بفيض من التقارير والوثائق عن أدق تفاصيل النوايا الاسترالية فى الساحة الدولية بوجه عام، والعلاقات مع الصين وحكومة شيانج كاى شيك بوجه خاص، انطلاقا من قناعاته بوحدة مصالح الطرفين وعدائهما الطبيعى للشيوعية والفاشية والنازية وعملائهم النشطين علي الساحة الاسترالية والاوروبية، وكان هارولد هولت بنشاطه السرى هذا يعمق مواقفه فى احد خنادق العملاء النقيضة للخنادق التى تم فيها زرع جواسيس وعملاء بريطانيين وامريكيين فى لندن وواشنطن من امثال «كيم فيلبى» و«جاى بيرجيس» و«دونالد ماكلين» فى اروقة المخابرات والخارجية البريطانية و«إلجار هيس» فى واشنطن.

كان هارولد هولت سياسيا استراليا نشطا، وعميلا سريا فى نفس الوقت لا يري فى جمع المعلومات وتقديمها الي شبكات المخابرات الصينية فى بلاده نوعا من الخيانة للمصالح الاسترالية بقدر ما هى تدعيم لمواقف

الجبهة المشتركة ضد مخاطر الشيوعية والنازية والفاشية المتصاعدة فى الساحتين الآسيوية والاوروبية وموجات الاضطراب التى بدأت تجتاح هاتين الساحتين بزخم كبير وتحتاج الي بذل مزيد من الجهود للتصدى لها وهزيمتها ان امكن.

وفى سبيل هذا المسعي لم يكن هارولد هولت يدخر وسعاً فى توظيف موقعه داخل البرلمان الاسترالى فى طرح التساؤلات علي وزراء الحكومة الاسترالية حول النوايا البريطانية والمساعدات العسكرية المقترح تقديمها الي القوات المسلحة لبلاده والاشارات المبطنة الي حاجة حكومة شيانج كاى شيك من الطائرات والاسلحة والعتاد لتدعيم قواتها المسلحة، ومساعدتها علي التصدى لموجات الاضطرابات المتصاعدة فى الساحة الصينية من قوي الشيوعيين والمتمردين التى تشكل اكبر المخاطر علي العالم الحر وبنفس القدر الذى تنذر به النازية الالمانية والفاشية الايطالية. وكانت مثل هذه الاسئلة من هارولد هولت داخل البرلمان الاسترالى، وطرحها علي الوزراء والحصول علي اجابات عليها سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة جزءاً من نشاط العمالة السرية ومضمون التقارير التى واصل مد القناصل والسفراء الصينيين بها لسنوات طويلة.

وعقب مضى عدة اسابيع قليلة علي اندلاع الحرب العالمية الثانية احتل هولت منصباً كبيراً فى حكومة بلاده ازدادت فيه قيمته فى أعين رؤسائه الصينيين بعد ان اسند اليه منصب وزير الدولة لشؤون «الامداد ومشاريع التنمية» وفى الوقت الذى لم يكن قد تجاوز فيه هولت عامه الواحد والثلاثين، وسمعته بين اصدقائه ومعارفه كفتي عابث يميل الي صحبة

النساء وارتباط اسمه بأكثر من واحدة من الشهيرات فى عالم المسرح والنوادى الليلية، واطلاق الصحافة الشعبية عليه اسم «السياسى ذو القبعة العالية» والذى كان يحرص علي ارتدائها فى علب الليل والاماكن المشبوهة التى يطرقها العابثون والباحثون عن المتعة.

غير ان نجاحه وتألقه فى الساحة السياسية الاسترالية جعلاه كأعزب محط اهتمام كثيرات من نساء مدينة سيدنى، والتطلع الي صحبته واقتران اسمائهن وصورهن به فى الصحف والمجلات التى كانت تفرد لأخباره مساحات كبيرة باعتباره اكثر السياسيين الاستراليين الشبان - آنذاك - جاذبية خاصة بعد اختياره فى عام ١٩٤٠ لتولى منصب وزير الطيران المدنى والمسؤوليات الكبيرة التى ألقيت علي عاتقه وجعلته من ابرز المسؤولين الحكوميين فى بلاده التى كانت قد تحولت الي اكبر مراكز حشد الحلفاء الغربيين لقواتهم ومعداتهم، والتوسع فى صناعة الطائرات المقاتلة لمواجهة العملاق الالمانى النازى الزاحف بسرعة الصاروخ لالتهام اوروبا قطعة قطعة ودولة بعد الاخري.

غير ان المفاجأة التى طرأت عواملها علي الساحة السياسية الاسترالية عجلت باجراء احدي عمليات الانتخابات العامة بهدف اعادة هيكلة الحكومة التى ستقود البلاد فى هذه الفترة العصيبة. واسفرت نتائج الانتخابات عن فوز محدود لحزب العمال الاسترالى وبأغلبية ضئيلة لا تتجاوز النسبة المقررة لتشكيل الحزب حكومته، الأمر الذى اضطر روبرت مانزيس (زعيم حزب العمال) الي تشكيل حكومة ائتلافية كان اول ضحاياها هارولد هولت (وزير الطيران المدنى فى الحكومة السابقة) نفسه

وخروجه من التشكيل الجديد مكتفيا بأحد المقاعد فى الصفوف الخلفية داخل البرلمان الاسترالى يلعق مرارة البعد عن احدي الساحات التى تألق فيها نجمه لفترة قصيرة وخسارة تلك الشهرة التى تربع علي احدي قممها كسياسى بارز.

وبدت الأزمة الشخصية التى يعانيها هولت آنذاك اكبر من قدرته علي تحملها فاضطر الي اعلان التخلى عن العمل السياسى ورغبته فى الالتحاق بصفوف القوات المسلحة، كجندى عادى بين عشرات الآلاف الذين تمت عمليات تجنيدهم تمهيدا لارسالهم الي ميادين المعارك فى الساحة الاوروبية.

وكان الشخص الآخر الذى يعنيه الازمة التى يواجهها روبرت هولت وحجم معاناته بسببها، ضابط الاتصال فى شبكة التجسس الصينية داخل العاصمة الاسترالية سيدنى وعرفه هولت باسم السيد «وونج». وحاول العميل الصينى اقناع هولت بالتخلى عن قراره، والعدول عن الانسحاب من الساحة السياسية رغم اهمية المعلومات التى قد يتمكن من الحصول عليها من مواقعه داخل القوات المسلحة وان كان من المشكوك فيه ان تتاح له سهولة الاتصال برؤسائه فى الشبكة الصينية اذا ما تم ارساله الي مواقع القتال فى الساحة الاوروبية.

وفى احد اللقاءات السرية التى تمت بين هولت وضابط اتصال شبكة التجسس الصينية السيد «وونج» وازاء اصرار الاول علي عدم العدول عن قراره اعتزال العمل السياسى، نصحه «وونج» بتجميد نشاطه مؤقتا ومنح المسؤولين عن الشبكة فرصة التفكير فى اعادة النظر بوضعه فيها وابلاغه

فى ما بعد بالقرار الذى يتوجب عليه اطاعته.

في الواقع، لم يستمر طويلا ذلك الموقف الشخصى المضطرب الذى عاناه هارولد هولت فى تلك الفترة، ومحاولاته التغلب علي ازمة انحسار مواقعه السابقة فى الساحة السياسية الاسترالية وامكانية تكييف انشطته المزدوجة كعميل لأكبر شبكات التجسس الصينية داخلها، فقد فاجأه الحظ علي «صحن من فضة» عندما وقعت فى تلك الفترة حادثة تحطم طائرة عسكرية كانت تقل ثلاثة من وزراء الحكومة الائتلافية الاسترالية ومصرعهم، الأمر الذى اسرع معه رئيس الحكومة روبرت مانزيس الي الاتصال بصديقه القديم هارولد هولت والعرض عليه الانضمام الي عضوية الحكومة كوزير للعمل والخدمة المدنية. ولم يتردد هولت طويلا واعطي موافقته لمانزيس وفاجأ هولت رئيسه فى شبكة التجسس الصينية بتوليه منصبه الجديد.

ولما كانت القرارات المفاجئة، ووضع الأزمات الشخصية واساليب التغلب عليها امرا غير مقبول فى اروقة شبكات التجسس، بل تبدو كلها امورا محظورة ممارستها بعيدا عن توجيهات الرؤساء، فقد اسرع رئيس الشبكة الصينية فى سيدنى الي ابلاغ هارولد هولت فى احد لقاءاتهم السرية بالاعراب عن استيائه من خياره الجديد وقبول منصب وزير العمل والخدمات المدنية دون استشارته. وأصر السيد وونج علي قراره السابق تجميد نشاط هولت الي ان تتم مراجعة مواقفه برمتها وان طمأنه بأن ذلك لن يحول دون تسلمه لمرتبه الشهرى باستمرار. وكان علي هولت الاذعان لقرار رئيسه الصينى مؤقتا ومعاناة تجميد نشاطه السابق فى خدمة حكومة

شيانج كاى شيك بالاسلوب الذى اقتنع به وواصل ممارسته لسنوات طويلة.

واصل هولت توقف نشاطه فى خدمة المخابرات الصينية لأكثر من ثلاثة اعوام ونصف العام، الي ان تم ابلاغه بالعودة الي تزويد شبكة سيدنى مرة اخري بتقاريره ودراساته المستفيضة عن المستجدات التى طرأت علي الساحة السياسية الاسترالية مع حلول عام ١٩٤٨، وفى الآونة التى كانت قد بدأت تشهد فيها الساحة الصينية اضطرابات واسعة وتنذر بوصول الشيوعيين بقيادة زعيمهم ماو تسى تونج الي السلطة واطاحة حكومة شيانج كاى شيك واجهزتها السياسية والامنية وتقويض المجتمع الصينى القديم برمته.

وفى حمي النشاط الذى اتسمت به حركة هارولد هولت فى ساحتى العمالة المزدوجة فى الساحتين السياسية الاسترالية واروقة التجسس الصينى ابلغه رئيسه السيد «وونج» مرة اخري بتكثيف جهوده ومده بمزيد من المعلومات عن الاسرار المدنية والعسكرية المتوفرة لديه عن الاوضاع الاسترالية برمتها، وبنفس الحماس والخبرات المكتسبة القديمة فى شخصية هارولد هولت لم يتردد طويلا امام طلب العزيز السخى السيد «وونج» غير ان ما نسى الاخير الاشارة اليه، ولم يعلمه هولت الا بعد فوات الأوان هو ان معلوماته الجديدة وتقاريره المستفيضة وسخاء المعونات المالية التى ستتدفق عليه قد تغير مصدرها القديم وسوف تأتيه من العريس الصينى الاحمر «ماو تسى تونج» منذ ان تسلم السلطة فى بكين عام ١٩٤٩ وانشقت جماعات كبيرة من حراس ورؤساء اجهزة شيانج كاى شيك القدامي ولجأوا الي احضان الشيوعية وكان من بينهم زعيم شبكة التجسس الصينية فى سيدنى

السيد «وونج» نفسه.

وارتفعت اسهم هولت فى نظر سادة بكين الجدد الذين اغدقوا عليه مساعداتهم المالية ومنحهم السخية ـ كما كشف الصحافى اللامع انتونى جراى فى كتابه «رئيس حكومة استراليا.. جاسوس صينى» بعد اختفائه المريب بخمسة عشر عاما فى امواج شواطئ شيفيوت فى مقاطعة فيكتوريا، وأكد استمرار تسلم هارولد هولت مبلغ ٣٠ ألف جنيه استرلينى سنويا منذ انخراطه فى صفوف العمالة لحكومة بكين الجديدة فى عام ١٩٥٢ وحتي اختفائه.

وجاء اكتشاف هارولد هولت لحقيقة المصب الذى تؤول اليه تقارير معلوماته فى مطلع عام ١٩٥٦ عندما استدعاه رئيسه السيد «وونج» الي لقاء سرى فى احد المنازل المتطرفة فى ضواحى سيدنى وفى بداية اللقاء وكما يحدث عادة بين العملاء النشيطين ورؤسائهم التزم هارولد هولت الصمت والتظاهر بالاصغاء الجيد لرئيسه «وونج» وهو يعترف له بالانتماء الحقيقى لشبكة التجسس وانها احدي اكبر الشبكات العاملة فى جنوب شرق آسيا، ولم ينس «وونج» وهو يثنى علي هولت وجهوده واعجاب الرؤساء الجدد فى بكين بجهوده البناءة من اجل حماية المجتمع الصينى الجديد ان يذكر له حقيقته هو شخصيا.. وان اسم «وونج» لم يكن سوي اسم رمزى لاسمه الحقيقى يانج ليو ومنصبه فى البعثة الدبلوماسية الصينية فى سيدنى كنائب للقنصل العام.

وفيما كافح هارولد هولت فى اخفاء دهشته ووقع الاعتراف عليه اكد من جانبه لـ «وونج» او «يانج ليو» حماسه الكامل لاستمرار التعاون مع

حكومة الصين الشيوعية واشادته بالزعيم الجديد ماو تسى تونج، وتخليه تماما عن تأييد الوطنيين الصينيين وحكومتهم بزعامة شيانج كاى شيك.

ورغم ان الوقت كان متأخراً لتظاهر هولت بهذا التحول الجذرى فى مواقفه وعلي ضوء عمالته الطويلة مع اجهزة ورؤساء لم يدرك حقيقتهم فإن «وونج» كان اكثر تظاهرا بقبول مثل هذا الحماس من هولت، خاصة انه كان يقود حركة حزب الاحرار الاشتراكيين فى بلاده وهم اقرب بشعاراتهم وسياساتهم الظاهرية لحكومة الشيوعيين فى بكين عن غيرهم من القوي السياسية المحافظة فى الساحة الاسترالية.

ومرة اخري من سلسلة المفاجآت فى حياة هارولد هولت السياسية تأتيه الفرصة علي «صحن من ذهب» عندما اعلن رئيس الحكومة الاسترالية السير روبرت مانزيس فى عام ١٩٦٦ استقالته المفاجئة وقراره التقاعد عن العمل السياسى. وفى اعقاب هذا القرار المفاجئ لهارولد هولت وما صحبه من تسليمه سلطة رئاسة الحكومة الاسترالية شعر الرأى العام الاسترالى بالارتياح الشديد من التخلص من السير روبرت مانزيس الذى تربع علي قمة السلطة فى بلادهم ما يقرب من السبعة عشر عاماً، وتسليم السلطة الي هارولد هولت بشخصيته الجذابة وشعبيته التى اكتسبها فى اوساط شرائح عريضة من ابناء الشعب الاسترالى الذى كان يكره فى مانزيس لغة التعالى والعجرفة التى عاني منها الاستراليون قبل غيرهم من رؤساء الحكومات الغربية.

فيما انقلبت لغة الصحافة الشعبية الاسترالية الي التنافس علي نشر الاخبار والتحقيقات الموسعة عن الحياة الشخصية لرئيس الحكومة الجديد

وجاذبيته التى تفوق جاذبية ممثلى السينما فى هوليوود وذهب بعضها الي اطلاق اسم جيمس بوند علي هارولد هولت الذى كانت صوره الشخصية ومجموعات الحسان اللاتى يحطن به اينما ذهب تكريسا للمسميات الدعائية لنجمهم اللامع فى منتصف الستينات.

لكن شهر العسل الذى غرق فيه هارولد هولت فى بلاده ما لبث ان انحسر سريعا وبدأت تتصاعد حملات النقد لسياساته، ومسلكه الشخصى، واتهامه بالكذب علي اعضاء البرلمان عندما طرحوا عليه مجموعة من التساؤلات حول استخدامه لطائرات السلاح الجوى الاسترالى فى اغراض تنقلاته الشخصية بين المقاطعات الاسترالية وتكريسها لنقل حسناواته الي منتجعاته فى عطلات نهاية الاسبوع. وفى قمة هذه الحملات داخل البرلمان احتدم النقاش بين زعيم المعارضة العمالية الاسترالية ـ آنذاك ـ جوف ويتلام وهولت وتوجيه سيل من الاتهامات والشتائم التى لم يتحملها هولت وكاد يتطور النقاش بينهما الي تشابك بالايدى قبل رفع الجلسة العاصفة ومغادرة هولت قاعة البرلمان غاضباً.

فى اعقاب تلك الواقعة صرح جوف ويتلام للصحافيين الذين وجدوا فى الحادث اكبر شحنات الاثارة بأن هارولد هولت قد حفر قاع مرقده الأخير.

ولم تكن هذه المعارضة وحملاتها للضغط علي هارولد هولت هى اكثر العوامل التى عجلت بأزمته علي الصعيدين السياسى والشخصى فحسب بل اضيفت اليها اكبر عوامل القلق والرعب عندما سنحت الفرصة لاطلاعه فى شهر مايو (أيار) عام ١٩٦٧ علي مجموعة من الملفات السرية

للجواسيس السوفيات داخل استراليا والذين قامت بحصرهم اجهزة المخابرات الاسترالية حديثا.

وكان اكثر الملفات التى اصابته بالدوار والصدمة المروعة التى لم يسبق ان عاناها من قبل ملفاً يحمل اسم «هـ. ك. بوريس» وهو الاسم الرمزى الذى سجلت به المخابرات الاسترالية التفاصيل الدقيقة لمتابعتها لخلفيات ومسلك صاحب الملف.. والذى لم يكن سوي رئيس الحكومة هارولد هولت.

وعلي الفور عقب اطلاعه علي ملفه السرى وتيقنه من ان المخابرات الاسترالية قد نجحت فى رصد ادق تفاصيل علاقاته بأجهزة المخابرات الصينية واجتماعاته السرية برئيس محطتها فى سيدنى (السيد «وونج» او نائب القنصل العام «يانج لو») لم يعد لديه ادني شك بأن حلقة الختام قد حلت كما لم يعد لديه وقت طويل للتفكير فى الخيار الوحيد الهرب او الانتحار.

واختار هارولد هولت التعجيل بالاتصال برؤسائه فى المخابرات الصينية وعرض خياره الهرب من استراليا ان امكن وفى اسرع وقت.

ومع حلول نهار السابع عشر من ديسمبر عام ١٩٦٧ كان ذلك المشهد الاخير الذى وقع امام شواطئ شيفيوت بيتش، واختفاء هارولد هولت فى عرض المحيط مع صعود موجة عالية تفور بفقاعات هوائية غريبة وضياع أثره الي الأبد.

وعندما جاء التحليل الوحيد والأقرب الي الصحة لحل لغز اختفاء رئيس الحكومة الاسترالية فى اعماق المحيط، وبعد خمسة عشر عاما من عملية

الاختفاء، تنفست اجهزة الأمن الاسترالية الصعداء.. فقد بني الصحافى اللامع انتونى جراى تحليله الذى أورده فى كتابه الخطير «رئيس الحكومة الاسترالية.. جاسوس صينى» علي ضوء الاعتقاد بأن هولت بعد ان توغل فى مياه المحيط التقطه اثنان من الغواصين الصينيين اللذان اسرعا بتزويده بأنبوبة اكسجين وقناع للتنفس ما ان احكم وضعه علي وجهه واختفي عن السطح حتي تصاعدت تلك الفقاعات الهوائية الكبيرة التى لاحظها بوضوح صديقه رجل الاعمال آلن ستيوارت ومارجورى جيلسبى (احدي النساء اللاتى رافقنه الي رحلته الاخيرة) مع مزيد من جذبه الي الاعماق لينطلقوا ثلاثتهم باحدي المركبات البحرية التى يصعب رؤيتها من الشاطئ حتي وصلت به الغواصة الصينية التى كانت فى انتظاره لتختتم رحلته الاخيرة الي احدي القواعد البحرية الصينية ومنها تم نقله الي بكين واسدال الستار نهائيا علي حياة هارولد هولت رئيس الوزراء الوحيد الذى دونت اجهزة المخابرات العالمية اسطورة حياته وعمالته واختفائه فى طيات معارك حرب الصمت فى التاريخ المعاصر.

غير ان هذه الخاتمة رغم ما فيها من اثارة وغموض تركت مجموعة من التساؤلات ستظل مطروحة فى اروقة المخابرات العالمية قبل الرأى العام الغربى نفسه.. لعل ابرزها هو التساؤل حول متي وكيف حصل هارولد هولت علي معلوماته عن عملية هروبه فى الوقت الذى لم تسجل فيه المخابرات الاسترالية فى أى صفحة من صفحات ملفها عند اتصاله بعملاء المخابرات الصينية فى سيدنى منذ شهر مايو وحتي منتصف ديسمبر ١٩٦٧ موعد قيامه برحلة اختفائه الأخير؟

واقعة اخري اكثر اثارة حدثت فى عام ١٩٨٣ وأوردها انتونى جراى فى كتابه «رئيس الحكومة الاسترالية .. جاسوس صينى» وتشير تفاصيلها الي اتصال احد رجال الاعمال الاستراليين بانتونى جراى فى منتصف عام ١٩٨٣ طالبا المساعدة فى نشر كتاب (لم يكتب له النشر فى ما بعد) عن معلومات استطاع الحصول عليها من احد التقارير السرية للبحرية الاسترالية ويتضمن معلومات ادلي بها احد كبار المسؤولين فى وزارة النفط العراقية عام ١٩٧٣ ويذكر فيها ان محادثات سرية دارت آنذاك بين المسؤولين العراقيين والصينيين حول امكانية منحهم اللجوء السياسى لشخصية استرالية رسمية تقيم وقتها فى بكين منذ عدة سنوات والمعتقد ان هذه الشخصية ليست سوي هارولد هولت رئيس الحكومة الاسترالية المختفى منذ عام ١٩٦٧!

كما يشير انتونى جراى فى خاتمة الكتاب الي الزعم المنطقى الذى أدلي به رجل الاعمال الاسترالى اثناء قيامه بأبحاثه الخاصة لازالة الغموض عن حادثة اختفاء هارولد هولت وكيف انه (رجل الاعمال) قد تمكن من الاطلاع علي الملفات والوثائق السرية المحفوظة فى جامعة ميلبورن وعلي ذلك الملف الذى أثار الذعر فى نفس هارولد هولت ويحمل اسم «هـ. ك. بوريس» الاسم الرمزى فى دوائر المخابرات الاسترالية» لهارولد هولت. كذلك تمكن من الاطلاع علي صور للايصالات الموقع عليها من هولت لرئيس شبكة التجسس الصينية السيد «وونج» فى الاعوام الاخيرة قبل اختفائه وتكشف حجم الاموال التى كان يتقاضاها من المخابرات الصينية.

اما السؤال الاخير عن كيفية وصول مثل هذه الوثائق الصينية المصورة الي ارشيف جامعة ميلبورن واتاحة الفرصة للاطلاع عليها علناً، فهذا ايضاً سيظل علامة استفهام فى الملف المفتوح لـ «هارولد هولت» والأكثر اعتقاداً هو ان بكين قد قامت بتسريبها الي الساحة الاسترالية التى حاول دهاة اجهزة مخابراتها استغلالها بتأثير معاكس وبأسلوب عرضها العلنى للباحثين كى يزدادوا قناعة بأن الحقيقة التى تكشفها بكين عن عمالة رئيس الحكومة الاسترالية السابق لن تجد ـ وبهذا الاسلوب ـ من يصدقها.



هارولد هولت رئيس الحكومة الاسترالية المختفى فى زيارته لرئيس الحكومة البريطانية هارولد ويلسون فى شهر يوليو عام ١٩٦٦ أمام مقر رئاسة الحكومة البريطانية ١٠ داوننج ستريت فى وسط لندن



هارولد هولت فى احدي رحلات ممارسة هواية الغوص فى اعماق المحيط لصيد الاسماك

الورقــة الرابعة



ضفدع بريطانى أسفل مدمرة سوفياتية

عادة تطرح حكايات أشهر الجواسيس فى التاريخ الحديث نماذج من العملاد يؤدون مهماتهم بقناعة ذاتية ، وبدوافع تمتزج فيها روح المغامرة والالتزام الصارم مع انفسهم بأنهم إذا ما اخفقوا فى اداء ما يكلفون به من مهام فان الثمن الباهظ المترتب على الأخفاق قد يكون حياتهم فى اسوأ الاحوال أو الانزواء فى كهوف الصمت والظلام بقية أعمارهم فى افضلها . فجميع الحكومات غربية أو شرقية . . فى العالم الصناعى المتقدم أو فى بلدان العالم الثالث وأجهزة المخابرات التابعة لهذه البلدان جميعها عادة ما تنأى بنفسها عن الاعتراف العلنى بمهام عملائها سواء الناجحة من هذه المهام أو الفاشلة . . ويستحيل أن توجد تلك الحكومة أو جهاز المخابرات الذى يعترف بانتماء عملائها أو المرتزقة اليها .

ومن بين ألاف العمليات التى تمت على مسارح حروب الصمت طوال أكثر من نصف قرن ما زالت هناك أكوام هائلة من

الملفات المجهولة التى تطوى بين اوراقها قصص ونماذج أكثر اثارة وايضا غموضا لكثير من العمليات التى احفقت فى ادارتها اعتى أجهزة المخابرات العالمية ، والمعتقد أنه لن يزاح النقاب عنها سواء بمقتضى قوانين الكشف عن الاسرار والمواثيق التى مضى على وقوعها أو ابرامها ثلاثون عاما أو خمسون عاما وتكشف عنها بعض الحكومات الغربية فى مطلع كل عام جديد أو بمقتضى قوانين اللعبة التقليدية التى تمارسها الامم فى اروقة ظلام العواصم المعادية وبين اوساط صناع القرار فى حكوماتها .

غير أنه عندما تفتضح ملامح أى من هذه المغامرات السرية وتصبح أحاديث وتحقيقات تتناولها أجهزة الاعلام العالمية ، تخفق عادة أية محاولات يتم التغطية بها عليها وتظل تفاصيلها الغامضة تتدوال وتُلاك لفترة تطول أو تقصر . . ولكنها فى النهاية ما تلبث أن تختفى فى قيعان النسيان والذاكرة الجمعية للشعوب وأن ظلت ملفاتها تطوى اوراقاً مجهولة لن يزاح النقاب عنها وإلى الابد . . وأمثلة حادثة اغتيال الرئيس الامريكى الاسبق جون كنيدى ، وفضيحة ووترجيت . . وشبكات التجسس السوفياتية داخل أجهزة المخابرات البريطانية خلال سنوات الحرب الباردة ، والاف العمليات التى ادراها عملاء وكالة المخابرات المركزية الامريكية منذ مطلع الخمسينات والكثير غيرها من ممارسات معارك

وحروب عالم الصمت أكبر النماذج التى لن يزاح النقاب عنها مهما تناولها الرواة والكتاب أو حتى مخرجو الافلام السينمائية .

وواحدة من أكثر هذه القصص غموضا ، واصلت الحكومات البريطانية المتعاقبة ومنذ وقوعها قبل سبعة وثلاثين عاما تحكم من حولها ستائر التعتيم سواء بقوانين حظر افشاء الاسرار الرسمية أو خطورة العملية التى تمت ولم يعرف خفاياها وحقيقة ابعادها سوى عدد محدود من كبار لعاملين فى اروقة أجهزة المخابرات البريطانية - آنذاك . ولا يتجاوز عددهم نصف اصابع اليد الواحدة . فيما ظلت حكاية أحد أشهر الجواسيس البريطانيين فى عام ١٩٦٥ سراً مطوياً ، مدفونة تفاصيله فى اوراق ملفات الوايتهول حتى الآن .

قضية الكوماندور «ليونيل كنيث فيليب كراب» الحائز على ارفع الاوسمة الملكية تقديرا لأدوار البطولة التى اداها فى معارك الحرب العالمية الثانية لم يكتب عنها الكثير ولم يعرفها المواطنون فى بلاده إلا فى سطور مختصرة نشرتهابعض الصحف البريطانية فى الصفحات الداخلية تلميحا إلى جهوده كضفدع بشرى اختار خوض معاركه باسم بلاده فى اعماق البحار وتحت الماد كخبير فى تدمير الأهداف المعادية . أما هذه المعارك وذكر الاهداف فقد ظلت سرا لايجرؤ أحد على الاقتراب منه أو الخوض فى تفاصيله ، ولذا عندما اختفى «الكوماندور كراب» فى اعماق مياه خليج بورموث

عام ١٩٦٥ ، وصفت عملية اختفائه الغامضة وجهود البحث عنه بانها قد وقعت إثناء قيامه بتجاريه على معدات غوص جديدة . ولم يهتم أحد بالسؤال عن هذه المعدات وأى وظيفة يمكن أن تؤديها لغامر بطل فى حجم «الكوماندور كراب» الذى سبق له القيام بعشرات المهام فى ظروف أكثر صعوبة ومخاطر أكبر من الغوص فى اعماق خليج بحرى هادئ مثل بورموث وعلى الشواطئ البريطانية .

الذى لم تذكره الصحفالبريطانية أو تربط به بين حادث اختفاء «الكوماندور كراب» وحقيقة تصادف وجود احدث المدمرات السوفيايتة - آنذاك - فى مياه خليج بورموث «المدمرة اوردزنونيكيدز» التى استقلها الزعيمان نيكيا خروتشوف والمارشال بولجانين فى أول زيارة لهما لبريطانيا ، أو السؤال عن التجربة التى كان يقوم بها الكوماندور كراب فى مياه بورموث وبمعداته الحديثة صباح أحد أيام شهر أبريل الذى شهد زيارة الزعيمان لبريطانيا .

الحقيقة التى ترددت فى الاجتماعات الخاصة لكبار المسؤولين فى دوائر الوايتهول كانت تكشف بعض تفاصيل مهمة الكوماندور كراب الذى كان يقوم بالفعل بالتجسس على القاع الخارجى الغارق تحت الماء فى ميناء بورموث واسرار المعدات المزودة بها والتى انطوت مع اختفاد كراب نفسه .

إلا أن الذى كان يضيف إلى مثل هذه الاحاديث كماً آخر من الغموض هو حقيقة أن «كراب» كان كان قد قام قبل ذلك بمهمة تجسس مماثلة على شقيقة المدمرة «سفيردلوف» عندما قامت بزيارة ودية لميناء بورموث قبل عام من زيارة الزعيمين خروتشوف وبولجانين لبريطانيا . وقد «كرابش تفاصيل الاسرار التى اكتشفها فى المدمرة إلى المسؤولين فى البحرية الملكية واجهزة المخابرات البريطانية .

وانتقلت التساؤلات من اروقة الاجتماعات الخاصة لكبار المسؤولين فى الوايتهول إلى قاعة مجلس العموم فى التاسع من مايو وبعد انتهاء زيارة الزعيمين السوفياتيين لبريطانيا . وكان الرد الوحيد الذى اجاب به رئيس الحكومة البريانية ـ آنذاك ـ على تساؤلات اعضاء البرلمان فى جلسة سرية حول اسباب اختفاد الكوماندور كراب ، والموقف من الاجتماع السوفياتى الرسمى على وجود الضفاع البشرية البريطانية فى مياه ميناء بورموث اثناء وجود المدمرة «اوردزنونيكيدز» بأنه «ليس من المصلحة العليا البريطانية اعطاء أى تفسيرات حول الظروف التى تمت فيها عملية اختفاء الكوماندور كراب» .

ولم يتردد زعيم المعرضة العمالية ـ انذاك ـ هيو جيتسكل فى الرد على رئيس الحكومة انتونى إيدن والتأكيد بأن امتناعه عن تقديم بيان رسمى للزمة حول ظروف اختفاد الكوماندور كراب هو

إيضا من المصالح العليا للأمة البريطانية والتى يهم الشعب معرفتها ودون التعرض لأى اسرار تنتهة مجالات الامن البريطانى .

ولكن إيدن ، ومن بعده كافة رؤساء الحكومات البريطانية المتعاقبة التزموا الصمت ، وامتنعوا عن تقديم أى اجابات زو اذاعة بيانات رسمية تكشف حقيقة المهمة التى كان يقوم بها الكوماندور كراب والاسرار التى كانت بريطانيا تكافح فى معرفتها اسفل قيعان المدمرة لسوفياتية وبغض النظر عن الاعتقاد الذى ساد بأن «كراب» قد لقى حتفه غرقا اثناء اداء مهمته .

اليوم مضت سبعة وثلاثون عاما على وقوع الحادث ، ومن الطبيعى أن الحديث فى الماضى عن معدات فنية حديثة يستخدمها رجال الضفادع البشرية فى اداد مهمات الغوص فى اعماق البحار لابد أن تكون قد نشرت تفاصيلها منذ سنوات بعيدة فى صفحات مجلة «جنيز» التى تعنى بشؤون الاسلحة والمعدات الحربية وأجهزة الغواصين ، ولكن الحقيقة التى استمر احفاؤها من صفحات «جينز» ومن وثائق الخارجية البريطانية التى نشرت فى الاعوام التالية على انقضاد فترات الحظر وبمقتضى قوانين اذاعة الاسرار الرسمية بعد ثلاثين عاما لم تشر من بعيد أو قريب لحادثة اختفاد الكوماندور كراب والظروف التى صاحبتها ، بقدر كشفها عن خداع رئيس الحكومة البريطانية ـ آنذاك ـ انتونى إيان فى تناوله الرد على تساؤلاتهم عن الاجتماع السوفياتى ، وآختفاد الكوماندور

كراب واسرار عملية الغزو العسكرى للسويس .

غير أن عمليات التعتيم المتعمد لم تحل دون تناول بعض المحللين العسكريين والمهتمين بالتاريخ لأحداث الحرب الباردة ومن بينها معارك الصمت بين بريطانيا والاتحاد السوفياتى فى الستينات من طرح نظرياتهم ووجهات الروية المختلفة حول العملية التى اختفى فيها الكوماندور «ليونيل كينث فيليب كراب» فى اعماق خليج مدينة بورموث الساحلية عام ١٩٥٦ .

وفى كتاب حمل عنوان سالكوماندور كراب ما زال حيا، أكد مؤلفه برنارد هاتون ، أن كلاً من وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، والبحرية الملكية البريطانية كانت متعتطشة لكشف اسرار عملية المناورة التى قامت بها المدمرة السوفياتية ساوردزنونيكيدز، فى مياه خليج بورموث خلال فترة زيارة الزعيمين نيكيا خروتشوف ، والمريشال بولجانين لبريطانيا فى شهر أبريل عام ١٩٦٥ ، وأن هذه الرغبة دفعت كلا الجهازين الامريكى والبريطانى إلى تكليف الكوماندور كراب القيام بمهمة التجسس اسفلها ، وجمع المعلومات عن احداث المعدات التى زودت بها ، والمهمة السرية التى كلف بها طاقمها اثناء انتظارهم انتهاء زيارة الزعيمين السوفياتيين ، واستكمالا لمهمة سابقة كلف بها ـ ايضا ـ الكوماندور كراب قبل عام ١٩٥٥ لنفس الغرض مع شقيقتها

المدمرة «سفيريلوف» وفي مياه خليج بورموث .

كما استندت مؤلف بريطاني أخر هو «هارى هيوتون» في كتاب حمل عنوان «عملية بورتلاند» فى تفسير النظرية السابقة لسر تفاصيل رواية افتراضية عن مهمة كراب التجسسية اكد بها الجاسوس والضفدع البحرى المدرب بعد ان غاص اسفل المدمرة قام بزرع لغم بحرى خاص على مقربة من قاع المدمرة . وبهدف اكتشاف رذا ما كان الروس لديهم أجهزة حديثة داخل المدمرة يمكنها كشف اللغم المزورع ، فانهم فى هذه الحالة سوف يستخدمونها لتحديد موقعه وتدميره عن طريق نبضات الاشعاع الامر الذى لن يكلفهم كثيرا ، ولن يتسبب فى الحاق أى اضرار بالمدمرة ذاتها ، وكذلك يمكن للمراقبين البحريين البريطانيين فى المنطقة من مراقبة وتسجيل الكيفية التى تصدى به الروس لهذا اللغم المزرووع .

إلا أن هذه النظرية الافتراضية التى طرحها هيوتون فى كتابه «عملية بورتلاندش كانت بعيدة عن التصديق عمليا لسبب بسيط هو أنه من المستحيل القيام بمثل هذه العملية اسفل مدمرة حملت ابرز زعيمين سوفياتيين فى أول زيارة ودية لهما لبريطانيا فى تلك الآونة ، وما قد يترتب على افتضاحها من توتر فى العلاقات بين بريطانيا والاتحاد السوفياتى ، وزرع جذور لخلافات قد تمتد إلى آفاق ابعد كثيراً من اعماق مياه خليج بورموث . على أنه فى

اصدار ثالث ألفه الصحافى البريطانى والخبير فى الشؤون الامنية تشابمان بنشر بعنوان «سرى للغاية ومحظور» شرح وجهة نظر أخرى اعتمدت على رغبة مخابرات البحرية الملكية البريطانية الكشف عن امكانيات الممرة السوفياتية ومدى تزويدها بمعدات حيثة كاتمة للصوت ، تتمكن من اكتشاف وتحديد مواقع الالغام المزروعة فى الاعماق . وفى سبيل هذا الغرض لجزت امخابرات البريطانية إلى تكليف « الكوماندور كراب» القيام بعمايته التجسسية التى اصلقت عليها الاسم الرمزى «آجوتى» ويقوم خلالها «الكوماندور كراب» الذى كلف بأداء المهمة بتحديد اماكن الفجوات الخاصة فى قاع المدمرة السوفياتية والتى تعمل على خفض حدة الاصوات الصادرة عن متفجرات الاعماق المزروعة .

ولكن مثل هذه المهام الصعبة لم تكن تتطلب اداء ضفدع بحرى مهما كانت تجربته وخبرته فضلا عن أنها كانت تجرى تجاربها بالفعل فى احدى وحدات العمليات البحرية الخاصة من خل عدة غواصات اتخذت مواقعها فى اعماق المياه الاقليمية حول ميناد بورموث ولم تكن هناك حاجة على الاطلاق لتكليف «كراب» القيام بعملية تجسسية محكوم عليها بالاخفاق لمجرد اقترابه من قاع المدمرة السوفياتية الراسية فى احد خلجان بورموث آنذاك .

إما الاصدار الرابع الذى ذهب بعيدا فى تفسير الغموض المحيط باختفاء الكوماندور كراب وتفاصيل المهمة التى كلف بأدائها اسفل

قاع المدمرة السوفياتية فقد وردت فى كتاب صدر فى تلك الحقبة ، ووصفه جون فيشر بعنوان «برجس وماحكلين» ويتناول فيه نماذج الجواسيس والعملاء الذين زرعتهم المخابرات السوفياتية فى الساحة البريطانية والنماذج البريطانية المضادة واساليب الدهاء والخداع التى استخدمها الطرفان البريطانى والسوفياتى فى معاركها الصامتة آنذاك .

وذهب «فيشر» إلى تفسيره الخاص للمهمة التى كلف بها «كراب» اسفل المدمرة السوفياتية بأنها كانت تنحصر فى جمعه المعلومات عن الفتحات الخاصة فى قاع المدمرة والتى تطلق منها الالغام البحرية النووية وتصويرها بدقة وتسليم تقاريره وصوره فى ما بعدانتهاء المهمة إلى مخابرات البحرية الملكية البريطانية لتحليلها والكشف عن مدى التقدم الذى استند اليها جون فيشر فى تفسيراته وعرضه للرواية الافتراضية اهملت جانبا هاما فى اضفاء المصداقية على روايته وهو جانب التصوير فى الاعماق وامكانية اصطحاب كراب لاحدى الكاميرات الخاصة بمثل هذه العمليات والتى لم تكن قد تطورت بالصورة المعروفة الان . وأنه وعلى افتراض حمله لمثل هذه الكاميرا فانها وبالصورة ستكون ذات حجم كبير يعوق حاملها عن اداء مهمة دقيقة مثل تلك المهمة التى كلف القيام بها ، والتى افترض فيشر إنها قد اصيبت بالاخفاق بسبب ماس كهربائى نجم عن شحنتها وادى إلى غرق حاملها الكوماندور

كراب نفسه .

ومع هذه الروايات والنظريات التى طرحها الصحافيون والكتاب والمتخصصون فى الشؤون الامنية فى كتبهم المتلاحقة لازالة الغموض فى حاثة اختفاء «الكوماندور كراب» بقى السؤال الوحيد المطروح بعلامة استفهام ضخمة يقول : أنه وعلى فرض اخفاق الضفدع البحرى المدرب ، والمزود بتجاريه البطولية فى معارك الحرب العالمية الثانية «فأين هى جثته إذا كان قد قتل أو صعق ؟ زليس من الاكثر تصديقا ومنطقية فى تفسير اختفائه هو أنه قد القى لقبض عليه واختطف رلى داخل المدمرة السوفياتية نفسها التى كلف بالتجسس عليها ؟ وإذا كان ذلك قد حدث فهل يكون من المعقول قيام الروس بالكشف عن وجوده لديهم ؟ ؟

المثير فى تلك الشخصية الاسطورية الكوماندور «نيل كنيث فيليب كراب» وفى تلك الاونة التى كلف القيام بمهمته التجسسية اسفل قاع المدمرة السوفياتية عام ١٩٥٦ هو أنه كان فى السادسة والاربعين من عمره ، يدخن ويحتسى الخمر بشراهة وإلى حدود الادمان، فضلا عن أنه كان قد تم تسريحه من العمل فى البحرية الملكية البريطانية رسميا، وانه اختار لحياته المدنية العمل فى تجارة الاثاث ولمقتنيات الفنية ، ولم يعد يعرف عنه الكثير سوى تردده الدائم على الحانات الرخيصة فى المدن والموانئ الساحلية جنوب

انجلترا .

كما لم تكن له أية علاقات نسائية أو صديقات دائمات يمكن الاعتداد بشهادتهن لفك الرموز والالغاز التى برزت بعد الاعلان عن اختفائه . فضلا عن أن القلة المحدودة من الافراد الذين ارتبطوا بعلاقة الزمالة معه فى الماضى ، توفى معظمهم ، ومن بقى منهم لم يعد لديه من تفاصيل يدلى بها بزى معلومات عنه سوى أنه اختفى فى ظروف غامضة لايعرف أحد عنها شيئا .

وحتى إذا وجد من بقى على قيد الحياة فلن يستطيع إذا اسعفته الذاكرة أن ينتهك قوانين الاسرار الرسمية ويدلى بمعلومات لها قيمتها .

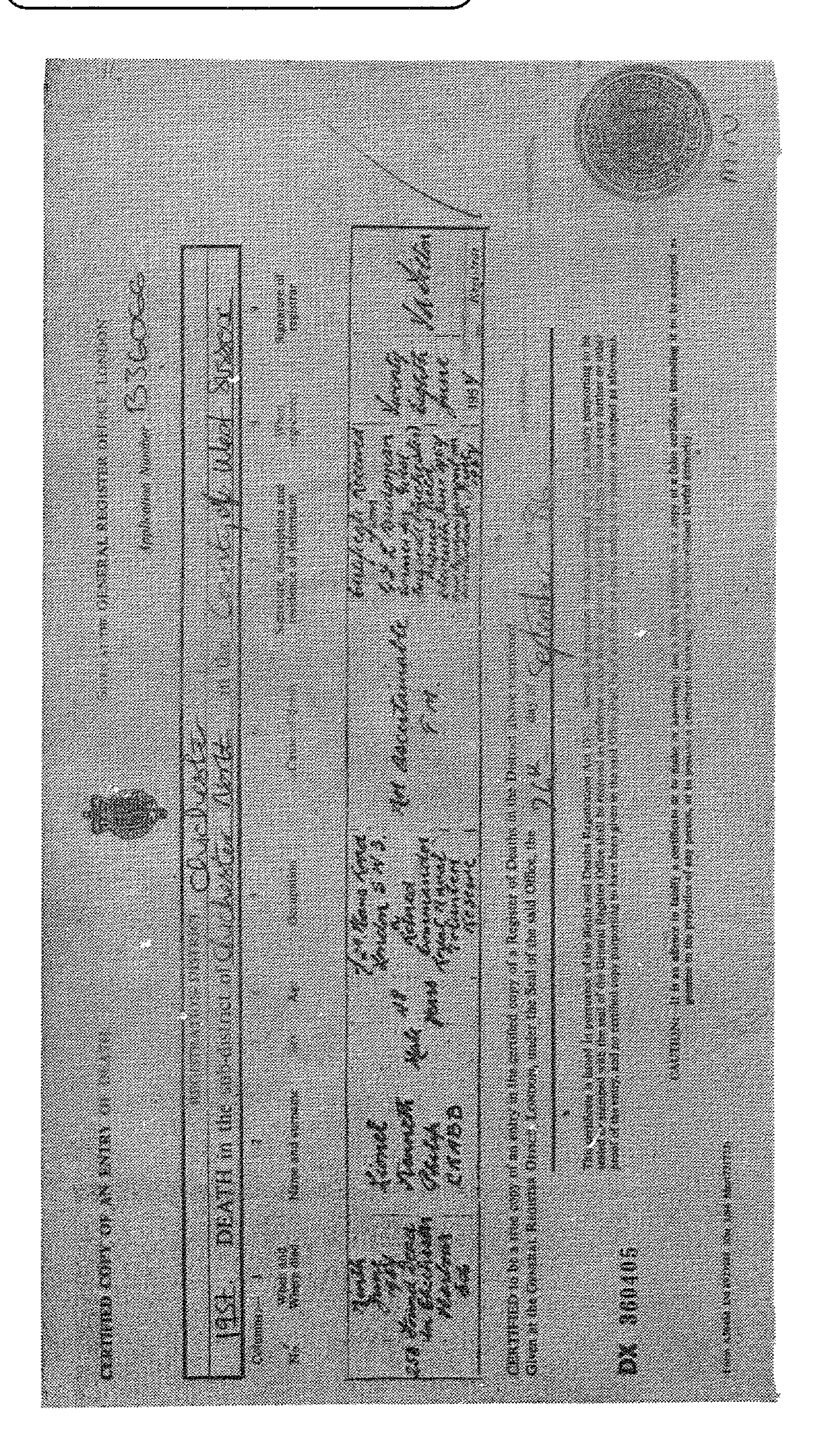
ولكن الأكثر اثارة فى حالة اختفاء الكوماندور كراب هو عثور أحد الصيادين فى السواحل القريبة من مدينة تشيستر (جنوب انجلترا) بعد اربعة عشر شهرا من حادثة الاختفاد على جثة مشوهة مقطوعة الرأس والذراعين تحتويها ملابس جلدية من الطراز الايطالى الذى يستخدمه الغواصين مطابقة لنفس الملابس التى كان يرتديها «الكوماندور كراب» عند اختفائه ويفضلها عادة على ملابس الغواصين التى تزودهم بها مخازن البحرية البريطانية .

وعقب نقل الجثة المفتقدة لأى هوية تشير إلى صاحبها إلى مشرحة الطب الشرعى فى بورموث سيطرة مزيد من الغموض

على المسؤولين فى المشرحة أمام مززق تحديد هوية صاحب الجثة لعدة أيام قبل أن تتدخل المخابرات البريطانية ومن خلال بعض عناصرها الذين اسرعوا إلى المشرحة يشاركون الخبراء فى فحصها ،وانتهت مهتهم بصدور بيان مقتضب يؤكد ان الجثة الكتشفة «للكوماندور نيل كنيث فيليب كراب» . وكما هى العادة تمت عملية وضعها فى صندوق خشبى سجل عليه فى لوحة صغيرة اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته ونقلت لدفنها فى احد مقابر مدينة بورموث فى احتفال صغير لم يحضره سوى ام الكوماندور كراب وبعض الوجوه المجهولة من كبار ضباط المخابرات البريطانية وقس يحترف القاء الادعية والصلوات على جثث المجهولين . غير أنه بعد دفن الجثة ظهرت احدى السيدات التى زعمت انها كانت خطيبة سابقة للكوماندور «كراب» وتدعى باتريشيا روس ، لتردد بين اوساط السكان المحليين فى مدينة بورموث داخل احدى حاناتها انها ظلت على صلة وثيقة بالكوماندور وفى الفترة السابقة على اعلان اختفائه وانها على يقين من ان احدى فرق طاقم المدمرة السوفياتية قامت باختطافه عقب افتضاح وجوده اسفها وعادت به إلى موسكو ، وأن الجثة التى تم دفنها فى مقابر مدينة بورموث لاعلاقة لها بالكوماندور كراب وان حقيقة عملية الاختفاء ما زرالت محاطة بستائر التعتيم لن يكشف النقاب عنها إلى الابد .

وقبل ان يصل الصحافيون والمهتمون بمتابعة كشف الحقيقة

فى اسطورة الضفدع البحرى ، والجاسوس البريطانى «نيل كنيث فيليب كراب» إلى «باتريشيا روس» والقيام بمحولات استنطاقها مزيدا من المعلومات عن تلك الشخصية الاسطورية كانت «السيدة روس» قد توفيت متأثرة باصابتها بالسرطان ، وسقطت احدى الحلقات المفقودة فى اى محاولة لكشف النقاب عن تفاصيل حقبة الخمسينات .



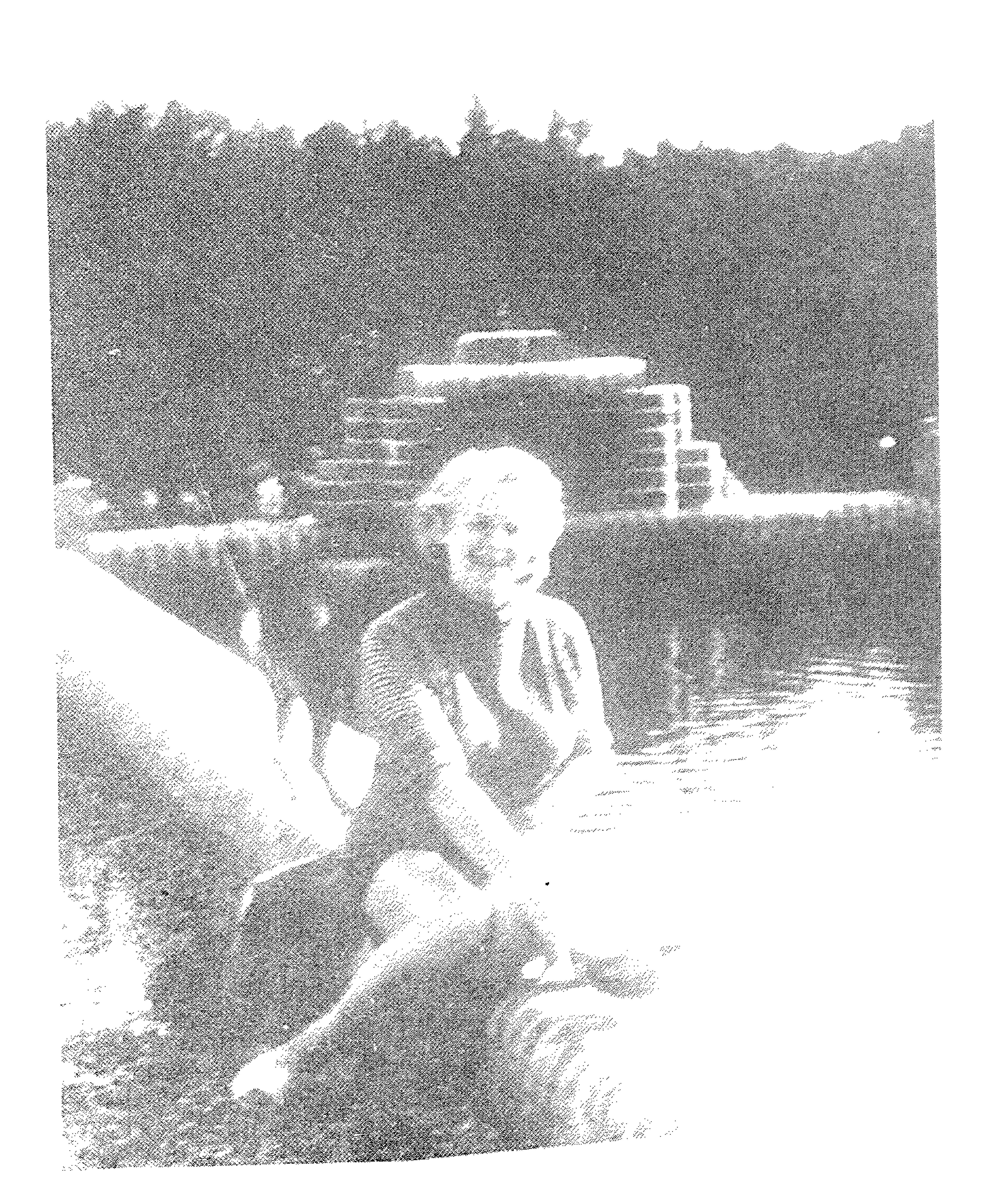
CERTIFIED COPY OF AN ENTRY OF DEATH

GIVEN AT THE GENERAL REGISTER OFFICE, LONDON

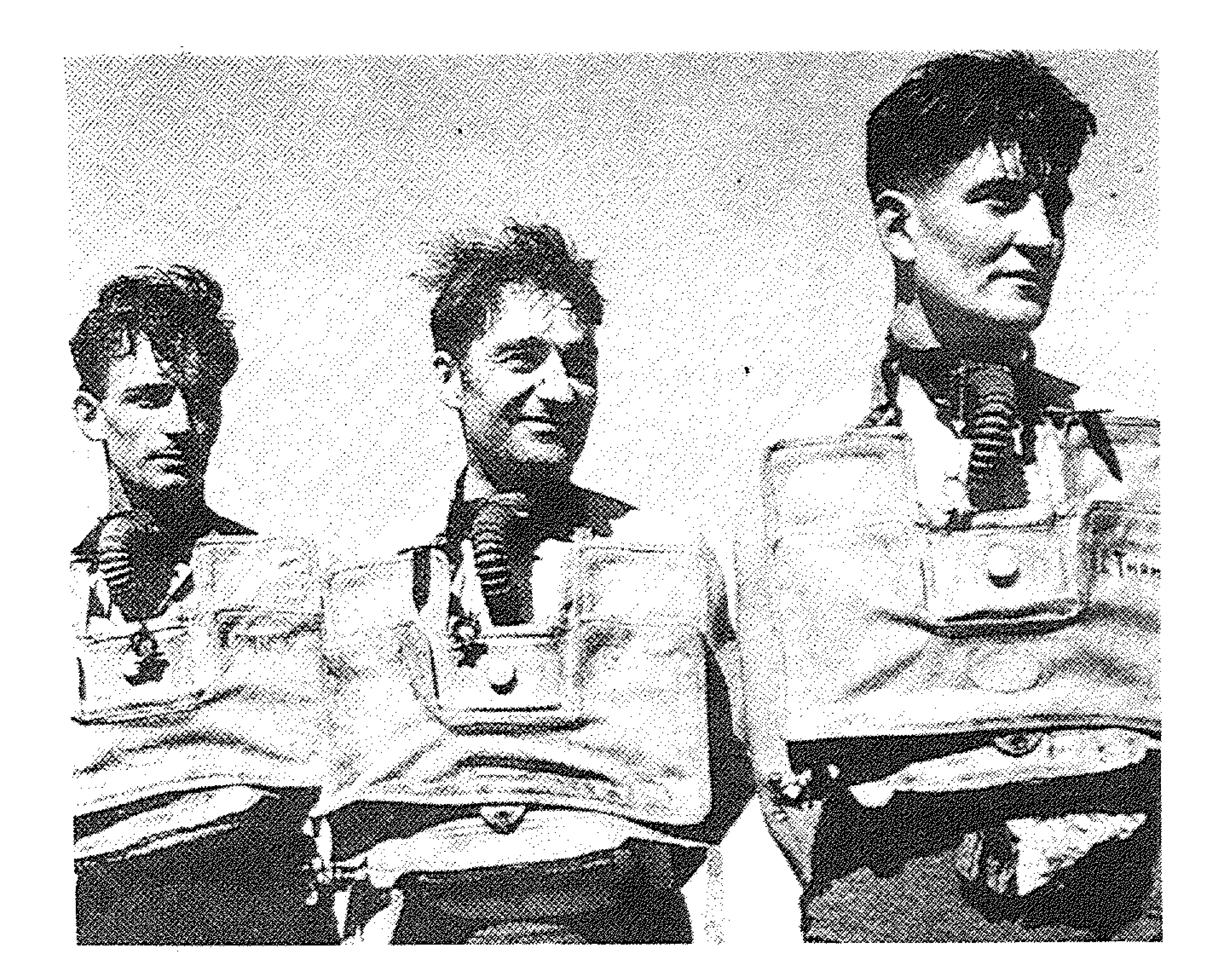
DEATH in the Sub-district of Chichester North

DX 360405

شهادة وفاة الكوماندور كراب التى اصدرتها المخابرات البريطانية .



خطيبة كراب اخر من يعلم عن مهامه الغامضة .



كراب بين اثنين من زملائه بملابس الغوص .



ضفدع بشرى بريطانى أسفل مدمرة سوفياتية حملت نيكيا خروشوف ونيقولاى بولجانين فى أول زيارة رسمية لهما إلى بريطانيا عام ١٩٥٧

الورقة الخامسة

جيفرى ارثر بريم.. أخطر عميل داخل أجهزة المخابرات البريطانية

عندما اكتشفت المخابرات البريطانية فى مطلع الثمانينات الجاسوس البريطانى جيفرير ارثر بريم وألقت القبض عليه، اصيب الرأى العام البريطانى بصدمة ذهول، استحال فى بدايتها تفسير ابعاد وحجم العمليات التى ادارها من موقعه كخبير فى فك رموز الشفرة وتحليلها داخل مركز الاتصالات الحكومية فى مدينة شيلتنهام.

ولم تحل اوصاف ممثل الدفاع عنه امام محكمة الجنايات المركزية اللندنية (الاولد بيلى) لأسباب سقوطه فى بؤر العمالة وردها الي تلك الشخصية اليائسة التى عانت الاكتئاب والوحدة، والاخفاق المتواصل فى حياته العاطفية والجنسية دون تجاهل الحقائق التى اسفرت عنها عمالته وتجسسه لصالح جهاز المخابرات السوفياتية (كى. جى بى) وحجم الدمار الذى سببه لمصالح الدولة البريطانية العليا طوال سنوات تجسسه، والتى تفوق فى ابعادها والمخاطر التى ترتبت عليها ما سبقت ممارسته علي ايدى اشهر الخونة *من الجواسيس البريطانيين الذين عرفتهم حقيقة الستينات*.

كما أسهمت عمليات تجسس جيفرى ارثر بريم فى التأثير علي روابط

الثقة، والتعاون المشترك بين بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية واصابتها بضربة عنيفة فى الصميم منذ هرب جاى بيرجيس ودونالد ماكلين ولجوئهما الي الاتحاد السوفياتى فى عام ١٩٥١، الامر الذى وصفه المتحدث الرسمى باسم وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) عقب افتضاح جاسوسية «بريم» بأنه «المفتاح الذى سهل لعيون الروس اجراء مسح شامل داخل مركز الاتصالات الحكومية البريطانية GCHQ فى شيلتنهام ومعرفة ادق اسرارها، اكثر مما يعرف الامريكيون... بالاضاف الي الاتهامات الصريحة التى وجهتها الصحافة الامريكية الي المسؤولين من اجهزة التخابر البريطانية من ان «افتضاح جاسوسية جيفرى ارثر بريم» ليس سوي قمة جبل الجليد الذى يخفى تحت السطح زملاءه الآخرين فى شيلتنهام».

ولكن، وأياً كانت الصدمة التى سببها «بريم» بافتضاح عمليات تجسسه للرأى العام البريطانى، وهز قواعد الثقة بين الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا، وتدمير منظومات الدفاع وأساليب التخابر والجساسوسية الغربية طوال اربعة عشر عاما وحمايتها من اختراق عملاء اجهزة التخابر السوفياتية «كى. جى. ب»، الا ان السبب الاكثر اثارة والذى ادي الي افتضاحه والقاء القبض عليه واعترافه فى النهاية يعود الي انحرافه الجنسى وشغفه بالصبايا المراهقات، وقبوله القيام بمهمات العميل لحساب الروس طوال هذه الفترة الطويلة فى مقابل سبعة آلاف جنيه استرلينى فقط، تسلمها علي دفعات لا توازى الحجم الهائل من الاسرار والوثائق التى قدمها للمسؤولين فى موسكو.

وقد وصفه احد الرجال الذين عملوا بالقرب منه فى وحدة تحليل الشفرة والتصنت علي شبكات الاتصالات السوفياتية الحساسة بقوله: «عندما افكر فى حجم المعلومات التى كانت تتدفق بين يدى جيفرى ارثر بريم وخطورة الوثائق التى اطلع عليها طوال اربعة عشر عاما وكيفية تعامله معها اصاب بالدوار والصدمة التى يستحيل علي غير العاملين فى مركز الاتصالات الحكومية البريطانية تقدير قيمتها وأهميتها اذا ما وصلت الي ايدى الروس».

ولكن «بريم» رغم خطورة منصبه، واجراءات الرقابة المشددة المتبعة فى مركز الاتصالات الحكومية فى شيلتنهام، وشبه استحالة تسرب اى منها خارج صدور وعقول العاملين فيه، استطاع احاطة الروس بكل ما وقعت عليه عيناه والوصول اليه خطوة خطوة والسخرية فى نفس الوقت من اجراءات الامن المشددة المطبقة علي العاملين فى هذا الجهاز الحساس.

ولد جيفرى ارثر بريم فى بيئة فقيرة متواضعة باحدي قري مقاطعة ستافوردشاير، لأب يعمل فى صناعة اسلاك النحاس، وفى ظل مناخ افتقر فيه الي الكثير من اوجه الرعاية او توفير قدر معقول من التربية السليمة، وان حصل علي حد ادني من التعليم حتي بلوغه سن المراهقة فاستدعى الي الخدمة العسكرية فى عام ١٩٥٦ حيث الحق بالعمل فى احد مخازن ادوات الصيانة فى القوات الجوية لمدة عامين.

ورغم ان العمل فى مثل تلك المواقع لا يضيف خبرة او معرفة الا انه كان بالنسبة للمراهق «جيفرى بريم» فرصة طيبة منحته نوعا من الهرب من تلك البيئة الفقيرة التى نشأ بها، والتخلص من تعاسة ومعاناة سنوات

الطفولة التى عاشها فى قريته، والاعتداءات الجنسية التى يمارسها معه بعض سكانها خلسة من الكبار، وبعض اقرانه فى صفوف الدراسة. الامر الذى دفعه عند الانتهاء من عامى الخدمة الاجبارية فى القوات الجوية، الي التوقيع علي عقد بالعمل التطوعى لمدة عشرة اعوام اخري.

غير ان ذكاءه ورغبته فى تعلم اللغات فى تلك الفترة لفتت اليه انتباه قادته والمسؤولين عنه فى احدي القواعد الجوية، ورسخ لديهم الاعتقاد بصلاحيته - كمادة خام قابلة للتشكيل - بتعلم انظمة الامن والعمل كعنصر فعال فى اجهزة التخابر فى ما بعد، فتم انهاء عمله فى مخازن معدات الصيانة وارساله لتلقى دروس مكثفة فى مركز تعليم اللغات للعاملين فى القوات الجوية بمقاطعة سكوتلندا ولدراسة اللغتين الالمانية والروسية. وعقب انتهائه من استكمال برامج تعلم اللغتين واكتسابه خبرة القراءة والكتابة والحديث بهما بطلاقة اهله ذلك للعمل فى مركز التصنت علي الاتصالات السوفياتية فى مدينة «تشيدل» بمقاطعة شيشاير حيث انحصرت مهمته فى متابعة ومراقبة الرسائل اللاسلكية التى توجهها المراكز الروسية وتعليماتها الي الطيارين فى عدة قواعد جوية مختلفة داخل الاتحاد السوفياتى، وكذلك التعليمات اللاسلكية التى توجهها موسكو الي قواعد المتمردين فى كينيا.

وفى عام ١٩٦٤ انتقل للعمل فى احد المواقع الامامية فى ساحات الحرب الباردة وداخل قاعدة جاتو التابعة للقوات الجوية الملكية البريطانية فى غرب برلين. وكان جزءا من المهام التى كلف القيام بها متابعة الاستماع الي البرامج ونشرات الاخبار والتعليقات التى يبثها راديو موسكو، والتدريب علي اعداد تقارير تحليلية عن اتجاهات السياسة الخارجية

السوفياتية تجاه الاوضاع فى كينيا وانعكاساتها علي القوي المتصارعة داخلها فى تلك الفترة التى شهدت افول الحقبة الاستعمارييية البريطانية لتلك الدولة الافريقية.

غير ان «جيفرى بريم» عنصر المخابرات الصاعد فى اروقة الاجهزة البريطانية بدلا من ان يكرس جهوده فى الخندق البريطانى، شعر بميل شديد نحو لغة الدعاية الروسية والتى غذت فى نفسه تعاطفا يساريا وجد فيه العوامل التى ساعدت علي بلورة معتقدات غامضة نحو المفاهيم الشيوعية واهتماما شديدا بكل ما تبثه معاقلها من موسكو.

وفى شهر يناير عام ١٩٦٨ تسلل نحو احدي نقاط الحراسة حول جدار برلين، ودس قصاصة من الورق تحوى عدة سطور مختزلة بين يدى الحارس الشيوعى، ثم عاد مسرعا ينطلق بسيارته الي قاعدة جاتو الجوية البريطانية.

ولم يمض اسبوعان، واثناء مغادرته موقع عمله ليستقل سيارته الي منزله عثر علي انبوب معدنى صغير مثبت فى باب السيارة، وعندما فحصه وجد داخله قصاصة ورق مدون بها تعليمات مختزلة تطلب منه الاتجاه مباشرة الي «محطة سكك حديد فريدريك شيتراس» للقاء اثنين من العملاء الروس يدعي احدهما «إيجور» والآخر «فاليا». وهناك سوف يستمع منهما الي ما يرغب فى معرفته وردا علي تساؤلاته التى بعث بها مسبقا فى الرسالة التى دسها بين يدى احد حراس نقاط المراقبة حول جدار برلين.

ولم يكن صعبا علي جيفرى ارثر بريم رجل المخابرات البريطانى

الصاعد، والمدرب فى مركز تعليم اللغات وفصول الدراسة داخل القواعد البريطانية ان يجد طريقه والتعرف علي «ايجور وفاليا» وبدلا من مواصلة الاستماع اليهما القي بكل ثقله والتعبير عن رغبته العارمة فى التعاون معهما والي اقصي الحدود، غير ان الذئاب الروس لم تأخذ رغبته بنفس الحماس الذى عبر به عنها، وطلب منه العميلان الروسيان اظهار حسن النوايا بعمل يقنع المسؤولين فى موسكو بصدق رغبته وازالة بعض من الشكوك الطبيعية تجاه الاسلوب الذى يعرض به خدماته.

مرة اخري وفى اللقاء الثانى لم يتردد «جيفرى ارثر بريم» فى سرد كل ما يعرفه وتدرب عليه من انشطة تصنت واعداد تقاريره التحليلية للاتصالات اللاسلكية الروسية وتعليمات المسؤولين فى القواعد الجوية الروسية الي طياريهم وعملائهم السابقين فى كينيا وأساليب تحليل ما تبثه محطة راديو موسكو من تعليقات وزاد علي ذلك تقديمه اليهما نسخاً مصورة من قوائم ارقام تليفونات وعناوين جميع العاملين فى قاعدة جاتو الجوية البريطانية فى برلين واحدث اجهزة التصنت المزودة بها القاعدة، واسرار فك رموز شفرة الاتصالات الروسية مع الطيارين العاملين فى القواعد الجوية لحلف وارسو، واعقد خرائط اجهزة فك الشفرة الالكترونية المستخدمة فى الحلف الاطلسى (الناتو) وتشويشها علي حركة الرادارات والاتصالات والطيران فى جميع انحاء القواعد العسكرية فى اوروبا الشرقية.

وبقدر ما كان كم الاسرار الخطيرة التى ادلي بها جيفرى ارثر بريم فى مقابلاته الاولي مع العملين الروسيين «ايجور» و«فاليا» مبرزا لحسن نواياه

ورغبته الصادقة فى التعاون مع موسكو، بقدر ما بدأ العميلان يفتحان له الطريق للمضى نحو اهدافهما والشعور بالسعادة لسقوط مثل هذا الصيد الثمين بين ايديهما والذى مكن موسكو من احداث تغييرات جذرية فى اساليب التخابر وتوجيه التعليمات الي العاملين فى القواعد الجوية، والعسكرية السرية فى انحاء اوروبا الشرقية والتحايل علي الاساليب الغربية المتبعة فى مراقبة هذه الاتصالات وحركات الطيران المنخفض، وتغيير المواقع السرية لمخازن الصواريخ المتوسطة المدي بسرعة ومهارة تفوق سرعة ومهارة «جيفرى ارثر بريم» نفسه فى السقوط داخل بؤر العمالة.

ومع نهاية تعاقد جيفرى ارثر بريم مع القوات الجوية البريطانية فى شهر سبتمر عام ١٩٦٨، حث «ايجور وفاليا» عميلهم البريطانى النشط علي الالتحاق بالعمل فى وزارة الخارجية البريطانية عند عودته الي بلاده، وحتي تتاح له فرصة جديرة للتغلغل فى اروقة الوايتهول مزودا بخبراته السابقة وكفاءته علي ادارة ما يسند اليه من اعمال فيها. ولم يتردد بريم عند عودته الي لندن فى التقدم الي مركز الخدمات الفنية المشتركة للغات بطلب للالتحاق بالعمل به، كأكثر المواقع التى يستطيع منها مواصلة تقديمه لخدماته لسادته الروس فى عالم الجاسوسية. وكان هذا المركز الحساس افضل الساحات التى اختارها سادته لاختراقه نظرا لطبيعة العمل الذى يقوم به فى مجالات التصنت والترجمة الفورية لجميع الاتصالات اللاسلكية والتى تتم فى انحاء الكتلة الشرقية وتحليلها واعدادها من تقارير يتم الافادة منها فى معارك الحرب الشرسة التى تخوضها اجهزة المخابرات الغربية.

ومن الطبيعى لم يجد جيفرى ارثر بريم صعوبة تذكر وازاء كفاءته العالية فى اللغتين الالمانية والروسية فى الحصول علي موافقة اجهزة الامن للعمل بهذا المركز الحساس الامر الذى كان مصدرا لشعوره بالغبطة وارتياح سادته فى موسكو للسهولة التى زرعوا بها عميلهم داخل واحد من اكثر المراكز البريطانية والغربية علي وجه الخصوص خطورة وحساسية. وبدأ المسؤولون فى جهاز المخابرات السوفياتية يعدون لتدريب عميلهم وتدعيمه بكافة الوسائل التى تضمن لهم الحصول علي اكبر الثمار من شجرة المعلومات الوارفة التى تم بناؤهم لعشه علي ابرز فروعها.

الي برلين الشرقية كانت تتم سلسلة الرحلات السرية التى يصطحب فيها جيفرى ارثر بريم الي فصول احدي مدارس الجواسيس لتلقى دروس الكتابة بالحبر السرى، واساليب التنقيط، والتصوير بأصغر وأدق آلات التصوير، وتلقى الرسائل اللاسكلية بضعف السرعة العادية وتسجيلها وكيفية ردها مرة اخري الي سرعتها العادية فى ثوان والحصول منها علي التعليمات المطلوب منه تنفيذها. كما اعطى اسما رمزيا هو «رولاندز» لاستخدامه فى التعريف بنفسه عند اللقاء مع العملاء لأول مرة واتصلاته فى الاماكن العامة، وابتكار الاساليب البدائية فى ادارة الاحاديث معهم كأن يفاجأ بأحدهم فى الطريق العام يقول له:

«اعتقد انا التقينا من قبل فى مدينة بيترسبرج عام ١٩٦٨» فيكون رده عليه:

«لا.. فى هذا الوقت كنت فى برلين».

ومن هذه المهمات التدريبية السرية فى احدي مدارس الجواسيس

بالقطاع الشرقى من برلين عاد جيفرى ارثر بريم الي لندن ليتسلم عمله فى مركز الخدمات الفنية المشتركة للغات المطل علي جسر بلاك فريرز شرق العاصمة البريطانية، حاملا آماله العريضة والغبطة التى عكستها دروس التدريـب فى صدره، وحقيبة يد سوداء تحوى فى احد تجاويفها السرية دفتـر الشفـرة التـى سيتعامـل بها، واوراق الكـربـون ومجمـوعـة من المظـاريـف البـريـديـة العاديـة والمعنونـة علي احـد المواقـع فى برلـين الشرقيـة.. و٤٠٠ جنيها استرلينيا.

وبدأ «بريم» يكرس جهوده وأنشطته فى الحصول علي تقدير رؤسائه فى مركز الخدمات الفنية المشتركة للغات، بنفس القدر الذى يحصل به علي رضاء سادته الجدد فى موسكو، كما لم يحل ذلك دون بدء استمتاعه بحياته الخاصة والاسراع بعقد قرانه علي مدرسة بريطانية تدعي «هيلينا اورجان» فى خريف عام ١٩٦٩، ويمزج بين حياته الزوجية الجديدة وتصعيد نشاطه فى دفق المعلومات الي جهاز المخابرات السوفياتية «كى. جى. بى» عبر رسائل غرامية وهمية كان يبعث بها الي المانية مجهولة تحيا فى شرق برلين (لا وجود لها) تدعي «لورا». ولكنها فى الحقيقة كانت مجموعة من الرسائل المكتوبة علي شرائح ورق الكربون الخاص لتظهر مطبوعة بين ثنايا سطوره الساذجة الـي «لورا» الالمانية ويستحيل قراءتها او ملاحظتها الا بتعريضها تحت اشعة خاصة من ضوء «الفلورسكوب». وفى بعض الاحيان كان «بريم» يلجأ فى الحالات الطارئة الي القاء رسائله فى صناديق البريد المهملة داخل انحاء متفرقة من ضواحى لندن او دفنها فى مخابئ سرية اسفل احدي الاشجار فى غابة «آبى وود» المجاورة لمحطة سكة حديد

بانستيد بضاحية صارى جنوب العاصمة البريطانية او علي شواطئ بحيرة آشر ليتم جمعها فى ما بعد من بعض العاملين فى السفارات السوفياتية فى لندن، ثم الالتقاء به وتوجيه الشكر اليه وتسليمه مخصصاته المالية.

غير انه مع حلول عام ١٩٧٢ انهار زواج «بريم» و«هيلينا اورجان» وانتابته حالة نفسية سيئة انعكست فى نوبات ارتباك اثرت بصورة مباشرة علي طبيعة عمله المزدوج، وان كان اكثر الاضرار التى لحقت به هو فقدانه لكتاب الشفرة الذى زودته به المخابرات السوفياتية، مما ادي الي عجزه عن الاتصال برؤسائه مرة اخري واحباطه فى ايجاد حل يتغلب به علي اسلوب الاتصالات معهم. وفى ظل اهمال الرد علي رسائله الي الالمانية الوهمية «لورا» فى شرق برلين ومناشدة المسؤولين الروس معاودة الاتصال به واخراجه من ورطته. ولكن الروس ازدادوا تشككا فى مضمون رسائله ولم يغفروا له ضياع كتاب الشفرة او التعاطف مع حالة اليأس التى يواجهها بعد انهيار زواجه وطلاقه من المدرسة هيلينا اورجان والضياع الذى يعانيه رغم انه ظل يقوم بمهمة جمع المعلومات واختزانها استعدادا للحظة التى قد يعيد فيها الروس اتصالاتهم به.

وبطريقة مفاجئة فى نهاية عام ١٩٧٤ اعاد الروس هذه الاتصالات عبر زيارة سريعة قام بها زوجان يتحدثان الانجليزية بلكنة اوروبية شرقية الي منزل «جلاديس بريم» شقيقته وتسليمها حقيبة سوداء محكمة الاغلاق معنونة ببطاقة صغيرة تحمل عبارة «الي السيد المحترم جيفرى ارثر بريم مع خالص التحية». وعندما سلمت جلاديس الحقيبة الي شقيقها لم يخف معالم الفرح وتظاهر امام شقيقته بأنها مرسلة اليه من احدي الصديقات

الالمانيات. كما شعرت جلاديس يومها بالراحة لأن شقيقها قد بدأ يعثر علي امرأة اخري تنقذه من حالة التعاسة التى يعانيها بعد طلاقه من هيلين اورجان. ولكن الهدية الالمانية لم تكن فى حقيقتها سوي حقيبة تحتوى علي احدث معدات التجسس وكتاب جديد بالشفرة الروسية وطلب عاجل باعادة الاتصال مرة اخري بسادته فى موسكو الذين لم ينسوا ارسال مبلغ ٤٠٠ جنيه استرلينى تحت الحساب فى دفتر النوايا الحسنة لاعادة العميل الي علاقته الطبيعية معهم.

وفيما بدأ جيفرير بريم مواصلة اتصالاته وتهريب المعلومات وأدق الاسرار الخطيرة التى اختزنها طوال عامين من القطيعة، والمستجدات فى اروقة اجهزة التخابر البريطانية، ابلغ باستدعاء عاجل الي العاصمة النمساوية فيينا للالتقاء بشخصية روسية رفيعة المستوي فى المخابرات السوفياتية، وجه اليه تساؤلات حول انظمة المعلومات السرية التى بدأ قمر التجسس الصناعى الامريكى ريوليت الذى يجوب الفضاء علي ارتفاع ٢٢الف قدم حول قارة افريقيا وجزر بورنيو ويجمع المعلومات عن شبكات واعداد ونوعيات الصواريخ البعيدة المدي والمنتشرة فى انحاء اوروبا الشرقية، والتى كان السوفيات قد احيطوا بها فى تقارير اثنين من عملائهم فى واشنطن وعن قمر التجسس الامريكى ريوليت وطبيعة مهمته وحاجة موسكو الي معرفة المزيد من التفاصيل عن هذا القمر وعمل الرسائل الالكترونية التى يبثها حتي تتمكن موسكو من مواجهتها ببث معلومات أخري مضللة تبطل عمل قمر التجسس الامريكى ريوليت.

ورغم ان «جيفرى بريم» كان قد انتقل للعمل فى دائرة اخري بعيدة الصلة عن الاطلاع علي اسرار عمل قمر التجسس الامريكى الا انه وعد ببذل جهده للحصول علي المعلومات المطلوبة وتسليمها فى لقاء تال تم ايضا فى فيينا حيث سلم المبعوث الروسى ملفات كاملة مزودة بالصور والمعلومات الحيوية المطلوبة، وعاد بسرعة الي بريطانيا وجيوبه مليئة بـ ٨٠٠ جنيه استرلينى، مكافأة جديدة له فى دفتر حساب النوايا الحسنة بين العميل البريطانى وسادته الروس.

وفى شهر مايو من العام التالى ١٩٧٦ عاد جيفرى ارثر بريم مرة ثالثة الي العاصمة النمساوية فيينا ليخبر اصدقاءه الروس بالنجاح المذهل للاشارات المزيفة التى بدأ السوفيات فى بثها لاحباط عمل قمر التجسس الامريكى ريوليت وكيف سيسهم ذلك فى تدعيم صناعة الصواريخ الروسية بعيدة المدي وزرعها فى انحاء اوروبا الشرقية بعيدا عن اعين اعتي اجهزة اقمار التجسس الالكترونية والمخابرات الغربية بوجه عام ورغم انف نصوص اتفاقيات الحد من الاسلحة الاستراتيجية الموقعة بينهم وبين حكومات الدول الغربية فى عام ١٩٧٢.

علي ان الذى لم يعرفه الجاسوس البريطانى جيفرى ارثر بريم آنذاك، ويتمكن فى اتصالاته مع الروس من ابلاغهم به هو ان قمر التجسس الامريكى ريوليت كان جزءا من برنامج تجسس فضائى كبير عرف باسم مشروع «بيمان» ويضم سلسلة من اقمار التجسس التى تتيح لمنظومة الدفاع الاطلسية (الناتو) القيام بمسح شامل لكافة اصعدة الحياة داخل الاتحاد

السوفياتى وبلا استثناء. وكان قمر التجسس ارجوس احد هذه الاقمار التى ترصد وتتنصت بدقة لكافة الاتصالات الهاتفية الشخصية، والعامة داخل الاتحاد السوفياتى ومدنه ومعرفة ادق الاسرار التى يتم تبادلها فى احاديث بين القادة والزعماء الي اصغر القيادات والاعضاء فى اجهزة المخابرات والحزب الشيوعى، ومنظمات الشباب والاتحادات العمالية والفلاحية والمنظمات النسائية، واتحاد الكتاب والادباء، وروابط الصحافيين، واكاديميات العلوم والجامعات، وحتي تلك التى تتم داخل منازل الصفوة من اعضاء هذه المنظمات ومكالماتهم الهاتفية، واحاديثهم العادية التى يتم متابعتها عبر قياس الذبذبات وتسجيلها الكترونيا من حركتها علي النوافذ الزجاجية لمنازلهم ونقلها مباشرة الي مراكز المتابعة الارضية وتحليل ما تضمن من معلومات مهما كانت اهميتها. بالاضافة الي المحادثات السرية لقادة شبكات الصواريخ، والرسائل المتبادلة بين قادة وحدات المدرعات، واختراق انظمة عمل اجهزة الكومبيوتر العسكرية والحصول علي ما تختزنه من معلومات يعاد بثها وترجمتها الفورية الي الانجليزية فى اجهزة المتابعة لوكالة الفضاء الامريكية «ناسا» ووحداتها التى عرفت باسم «كراى - ١» والتى تملك القدرة علي استيعاب ٣٠ بليون كلمة وتحويلها الي ١٥٠ مليون برنامج فى الثانية الواحدة وتصنيف ما تضمنته من معلومات واعادة توزيعها الي المراكز الاستراتيجية، والقيادة العسكرية، ووكالة المخابرات المركزية، وهيئة الامن القومى، ومكتب المباحث الفيدرالية.

ولم يهدأ الروس فى الالحاح علي رجلهم فى لندن معرفة المزيد عن شبكات التجسس عبر الاقمار الصناعية، ولم تنقض عدة شهور قليلة حتي

كان جيفرى بريم يحمل كافة الاسرار المطلوبة والمسح الشامل لعدد وعمل اجهزة اقمار التجسس بالصورة والمعلومات الي سادته الروس. وبدا «بريم» يتجه بسرعة نحو مزالق الخطورة فى عمالته المزدوجة مع حلول شهر مارس عام ١٩٧٧ عندما انتقل للعمل الي المراكز العصبية الحساسة داخل مركز الاتصالات الحكومية البريطانى فى مدينة شيلتنهام. وتولي ادارة «الدائرة جيه «J» والمخصصة لتحليل كافة عمليات التنصت لجميع الاتصالات اللاسلكية فى المحطات الاوروبية ومنطقة الشرق الاوسط وقبرص. والاشراف علي عمل ٣٠ من الخبراء العاملين فى هذه الدائرة والاطلاع علي تقاريرهم اليومية المقدمة اليه واعادة تحليلها والتعليق عليها قبل رفعها الي المسؤوليين فى مركز الاتصالات الحكومية البريطانى، كما اتاح له منصبه الجديد باعتباره رئيسا مسؤولا عن اكبر الاجهزة داخل هذا المركز حضور الاجتماعات المشتركة لمسؤولى الدوائر المختلفة فى المراكز ومعرفة ادق تفاصيل الاسرار التى يحملونها خلال عملهم.

ولكن مع حلول منتصف عام ١٩٧٧ بدأت اجراس الانذار تدق فى واشنطن، وتتصاعد حدة شكوك كبار المسؤولين الامريكيين فى اجهزة المخابرات ومنظمات التجسس، وبرامج الاقمار الصناعية خاصة عندما غير الروس فجأة شفرات اتصالاتهم فى قاعدة ميرمانسيك واحلالها بشفرات وموجات اليكترونية جديدة. الامر الذى اسرع بكبار المسؤولين فى وكالة الفضاء الامريكية (ناسا) الي تحذير المسؤولين فى مركز الاتصالات الحكومية البريطانى GCHQ فى شيلتنهام وشكوكهم فى احتمال وجود جواسيس سوفيات مزروعين داخل مركزهم فى شيلتنهام.

ولم ينتظر الروس طويلا، بل اسرعوا بابلاغ رجلهم جيفرى ارثر بريم الذى عجل بتقديم استقالته من منصبه فى شهر سبتمبر (ايلول) من عام ١٩٧٧ تجنبا للوقوع تحت دائرة المراقبة المتوقعة. كما اسرع بعد اسابيع قليلة باعلان زواجه من صاحبة المسكن الذى كان يقيم به «راهونا راتكليف» والانتقال معها بصحبة اولادها الثلاثة من زواج سابق للاقامة فى منزل اشتراه بمبلغ ٣٧ الف جنيه فى شارع بيتفيل كريسنت واطلق عليه اسم «لابورنام كوتيج». وواصل بين اصدقائه ومعارفه ترديد اسباب مزعومة لاستقالته من مركز الاتصالات الحكومية فى شيلتنهام والتذرع بحرصه علي حياته العائلية ورغبته فى تكريس اكبر الاوقات لزوجته وابنائها، والاشارة فى تلك الاحاديث الي ان مركز الاتصالات الحكومية قد اصبح متخلفا عن العصر بأكثر من خمسين عاما!

فى هذه الفترة المضطربة من حياة جيفرى ارثر بريم كان يسعي الي التخلص من ضغوط عمالته المزدوجة، ويستغرق تارة فى محاولات الاستقرار العائلى، وتارة اخري يسعي الي الاستجابة لالحاح سادته فى موسكو التعجيل بالهرب من بريطانيا ووعده بتخصيص معاش تقاعدى يكفل له ولأسرته حياة هانئة تحت المظلة السوفياتية. وزعم محامى الدفاع عنه اثناء محاكمته انه حول القيام بالهرب مرتين وحجز رحلات جوية الي هلسنكى ليدخل منها الي الاراضى السوفياتية ولكنه فى كل مرة كان يعود قبل الوصول الي مطار هيثرو غرب لندن مفضلا البقاء مع زوجته روهانا وابنائها الثلاثة..! و.. ايضا مواصلة عمليات تجسسه لحساب الروس من بريطانيا.

بعد قبول استقالته من منصبه بشهرين التحق بالعمل فى شركة شيلتكس لتأجير سيارات التاكسى حيث اشتهر بين زملائه باسم «الرفيق بوريس» بسبب استغراقه فى ساعات الانتظار بين فترات اداء وظيفته فى قراءة المجلات الروسية والاستماع الي محطة اذاعة موسكو، فضلا عن قيامه بزيارات بدت عادية الي موقع عمله السابق فى مركز الاتصالات الحكومية تحت غطاء توصيل العاملين فيه من والي منازلهم بينما كان فى الحقيقة يواصل جمع المعلومات واختلاس برامج الكومبيوتر المختزن فيها المعلومات والتى كان ينتقيها بمهارة وحذق كبيرين مزودا بخبرته السابقة فى العمل فى هذا المركز الحيوى. والمثير ان أياً من العاملين فى مركز الاتصالات الحكومية من زملائه السابقين لم يبد اعتراضا علي تردده او يساورهم الشك فى نواياه بقدر ما كانوا يكنون له احتراما كبيرا وتبادل الاحاديث المستفيضة معه عن ادق اسرار عملهم باعتباره زميلاً قديماً لا يرقي اليه الشك. فى الوقت الذى لم يفقد فيه المسؤولون فى اجهزة المخابرات السوفياتية الاهتمام بـ «جيفرى ارثر بريم» وواصلوا الاتصال به واستدعوه فى شهر مايو عام ١٩٨٠ الي فيينا أيضا لمقابلة مبعوث روسى رفيع المستوي.

فى هذه المقابلة سلم جيفرى بريم مندوب المخابرات السوفياتية ١٥ فيلما تضم صورا دقيقة لـ ٥٠٠ وثيقة سرية جمعها قبل تقديم استقالته من مركز الاتصالات الحكومية البريطانية فى شيلتنهام، وأضفي من جانبه اهمية علي عمليات جمعها اثناء قيامه بالاستمتاع مع المبعوث الروسى

برحلة بحرية فوق مياه نهر الدانوب لمدة ثلاثة ايام عاد بعدها الي لندن براحة نفسية شديدة وجيوب مليئة بحزمة اخري قيمتها ٦٠٠ جنيه استرلينى.

والمثير ان زوجته «روهانا» لم تسأله عن اسباب غيابه عن مسكن الزوجية ثلاثة ايام، ولم تلحظ تكرار انقطاعه عن العمل فى شركة كالتيكس لتأجير سيارات التاكسى وبدت مستمتعة بمشاعر الحب التى يحيطها بها وابناءها الثلاثة وتعميق اعتقادها بأنها قد عثرت فى النهاية علي الرجل الذى يمنحها دفء الحياة العائلية وسعادة الاسرة المترابطة.

وفى شهر نوفمبر عام ١٩٨١ استدعى للمرة الاخيرة للقاء عاجل فى برلين، نجح فى التسلل مع احد العملاء الروس الي القطاع الشرقى من المانيا حيث اسرعا بالسفر الي مدينة بوتسدام وهناك التقي بثلاثة من عملاء جهاز المخابرات السوفياتية الذين كرروا الثناء علي جهوده الكبيرة فى خدمة المصالح العليا للاتحاد السوفياتي. وتسليمه مظروفا ضخما يحوى اربعة آلاف جنيه استرلينى تقديرا لخدماته. وكأى عميل لأجهزة المخابرات لم يسأل عن السبب لاستدعائه او ضخامة المكافأة المالية التى وقع علي إيصال بتسلمها، والاكتفاء باظهار الطاعة العمياء والقناعة بالثروة الكبيرة التى هبطت بين ايديه فجأة. وعاد الي لندن مسرعا ممتلئاً هذه المرة بالشعور بالثراء والرغبة في قطع صلته بالعمل كسائق لدي شركة كالتكس لتأجير سيارات التاكسى فى شيلتنهام والالتحاق بالعمل مدير تسويق لاحدي شركات بيع الخمور، اعتقادا منه بأنها وظيفة يسهل ان

تكون غطاء جيداً لاستمراره فى عمالته المزدوجة وجمعه للمعلومات. ولكنه فى ممارسته لوظيفته الجديدة كان اكثر اخفاقا من القيام بأى عمليات لتسويق الخمور، وبدلا من تركها والاعتراف بفشله كان يقوم بشراء الكميات المطلوب منه تسويقها حتي يحافظ علي بقائه فى الوظيفة.

فى نفس الوقت بدا جيفرى بريم اكثر ميلا لممارسة لون من الشذوذ الجنسى مع الصبايا المراهقات، اللاتى كان يلتقطهن ويهرب بهن الي غرف الفنادق الرخيصة.

وسرعان ما تطورت هوايته نحو المراهقات فكان يقوم بجمع عناوينهن من اعمدة الصحف المحلية ويسعي الي الاتصال بهن، وجمع اعداد كثيرة من سجل الهاتف المحلى والاحتفاظ بها فى الجراج الملحق بمنزله ويجهد نفسه فى العثور علي من تقبل الخروج معه. فى تلك الآونة دفعته رغبته الجامحة الي اقتحام احد المنازل الخالية بعد الاطمئنان الي مغادرة سكانه للانفراد باحدي الصبايا التى اطلقت صرخاتها ونبهت الجيران مما ادي الي اسراعه بمغادرة المنزل والانطلاق عائداً بسيارته الي مسكنه. ولكن الجيران كانوا قد لاحظوا السيارة «الكورتينا» وذلك الرجل المذعور الذى انطلق بها فقاموا بابلاغ الشرطة واعطائها ارقامها.

وخلال عدة ايام واصلت الشرطة فيها تحرياتها عن المعتدى صاحب السيارة الكورتينا، وحصر ٤٢٦ سيارة من نفس الموديل، طرقوا ابواب مسكن جيفرى ارثر بريم واستأذنوه فى الدخول باستجوابه عن حادث اعتداء احد الاشخاص الذين يقودون سيارة من نفس طراز سيارته علي احدي الفتيات المراهقات فى بريستون وين بمقاطعة هيرفورشاير. وأمام

شبهة الاتهام نفي جيفرى ارثر بريم بشدة ان يكون الشخص المقصود وتظاهر باعصاب باردة عن استعداده مغفرة اتصال الشرطة به فى مثل هذا الامر المشين، وواصل تقديم نفسه كموظف محترم فى مركز الاتصالات الحكومية، واضطرت الشرطة الي الانسحاب والاعتذار الشديد.

لكن ساعات الليل كانت اكثر ثقلا علي صدر جيفرى بريم ولم يفلح استغراقه فى الشراب فى تخليصه من هموم الانفصام المصاب به، أو وأد رغبته غريته الجامحة فى العودة الي ممارسة شذوذه فنهض من نومه مناشدا زوجته الاستماع الي اعترافاته التفصيلية بممارسته التجسس لحساب المخابرات السوفياتية طوال ١٤ عاما، بالاضافة الي شذوذه الجنسى الامر الذى ادي به الي ارتكاب ثلاثة اعتداءات علي بعض الفتيات.

فى صباح اليوم التالى «الجمعة ٢٨ ابريل (نيسان)»، قام جفيرى ارثر بريم بالاتصال بالشرطة واعترافه بارتكاب حادثة الاعتداء علي احدي المراهقات. وحضر اثنان من الضباط لاصطحابه الي المركز حيث تم التحقيق معه ووجه اليه الاتهام رسميا بالاعتداء الجنسى علي احدي المراهقات الامر الذى نفاه بشدة فى الليلة السابقة. وعاد الي منزله بعد الاعتراف والتحقيق معه ليواجه مزيدا من الشعور بانهيار جدران عالمه السرى الذى احاط به نفسه طوال اربعة عشر عاما، والخجل من مواجهة زوجته «روهانا» والتظاهر بالرغبة فى النوم.

ومضت الايام التالية بطيئة تثقلها ضغوط السر الذى باح به جيفرى

بريم الي زوجته، ومقاومتها طوال ثلاثة اسابيع الافراج عن تلك الاسرار الخطيرة من صدرها وحسم الخواطر المضطربة التى بدأت تسيطر عليها، ولكنها كانت تكبتها وتغلب نداء الضمير ومشاعر الزوجة وتجنب انهيار اركان عالم الاسرة السعيدة التى نجحت فى بنائها مع الرجل الذى احبته الي ان كان صباح الاحد الذى استيقظ فيه زوجها مبكرا واعرب عن رغبته فى الخروج وتناول الشراب فى احد المشارب المجاورة للمسكن، وعندما نهضت روهانا من الفراش اصطدمت يدها بالصدفة بأحد الصناديق الكرتونية الصلبة اسفل الفراش، فقامت بجذبه حيث فوجئت بامتلائه بعدد كبير من معدات التجسس الحديثة، ومجموعة من آلات التسجيل الصغيرة الحجم والكاميرات المتعددة العدسات فوق حقيبة جلدية سوداء مغلفة باحكام، نجحت فى محاولة فتحها لتعثر بها علي كتب لترجمات رموز الشفرة الروسية و٢٦ مظروفا معنونا علي عدة عناوين مختلفة فى انحاء المدن الالمانية الشرقية.

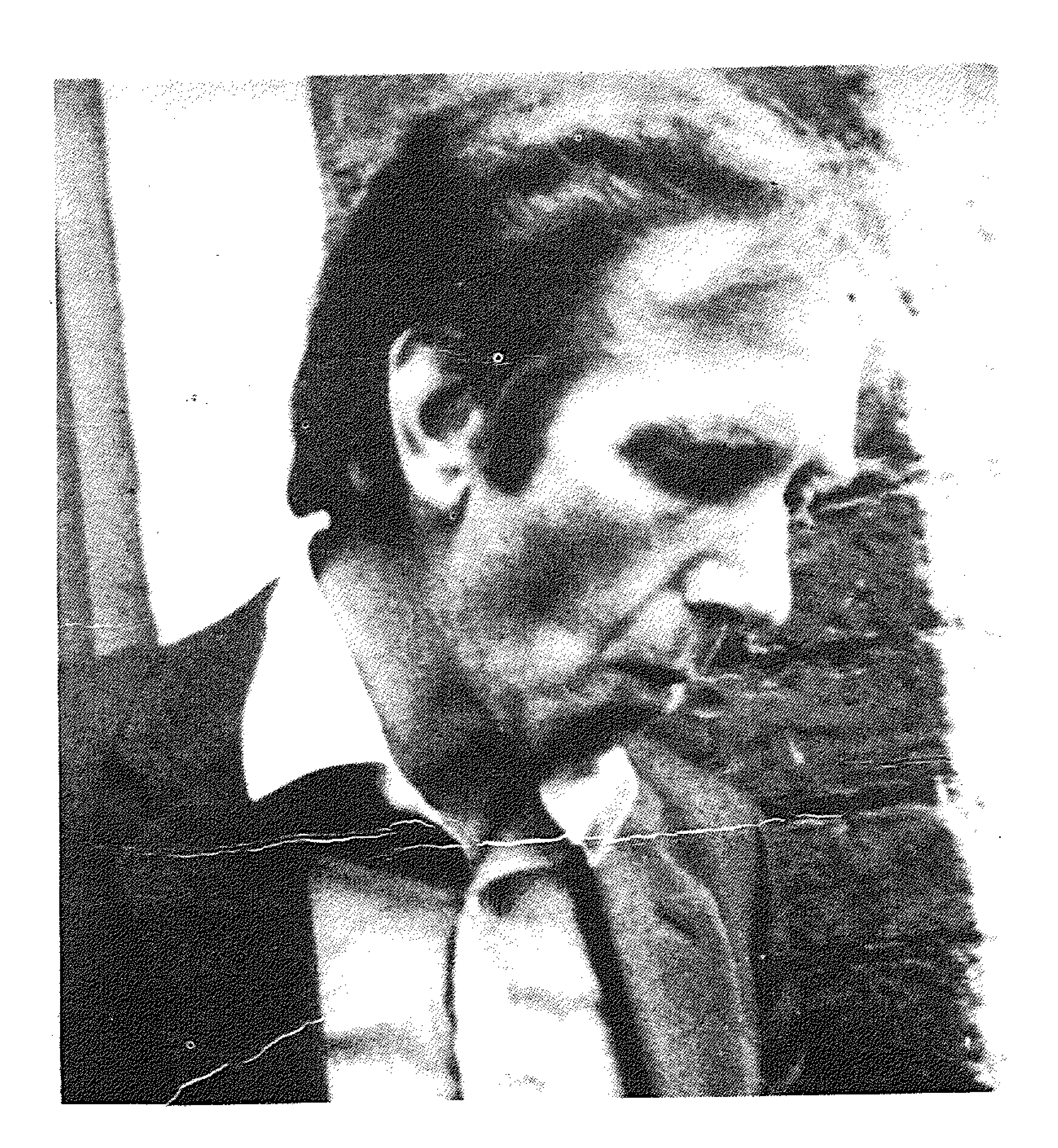
وجدت الزوجة «روهانا» نفسها لأول مرة امام جسم السر الذى باح لها به زوجها جيفرى بريم قبل عدة اسابيع، والادلة الصارخة علي انه ما زال يمارس هوايته القديمة فى التجسس لحساب السوفيات وخيانة المصالح العليا لبلاده.. سقطت فى تلك اللحظات آخر حبال المقاومة فى صدرها واسرعت بالاتصال بأبويها وابلاغهما بدقة المأزق الذى تواجهه، كما اتصلت بطبيبها الخاص واستشارت محاميها.. واتفقوا جميعا علي ضرورة قيامها بابلاغ

شرطة سكوتلنديارد بكل ما سمعته من زوجها واعترافاته التى طوتها فى صدرها ثلاثة اسابيع.

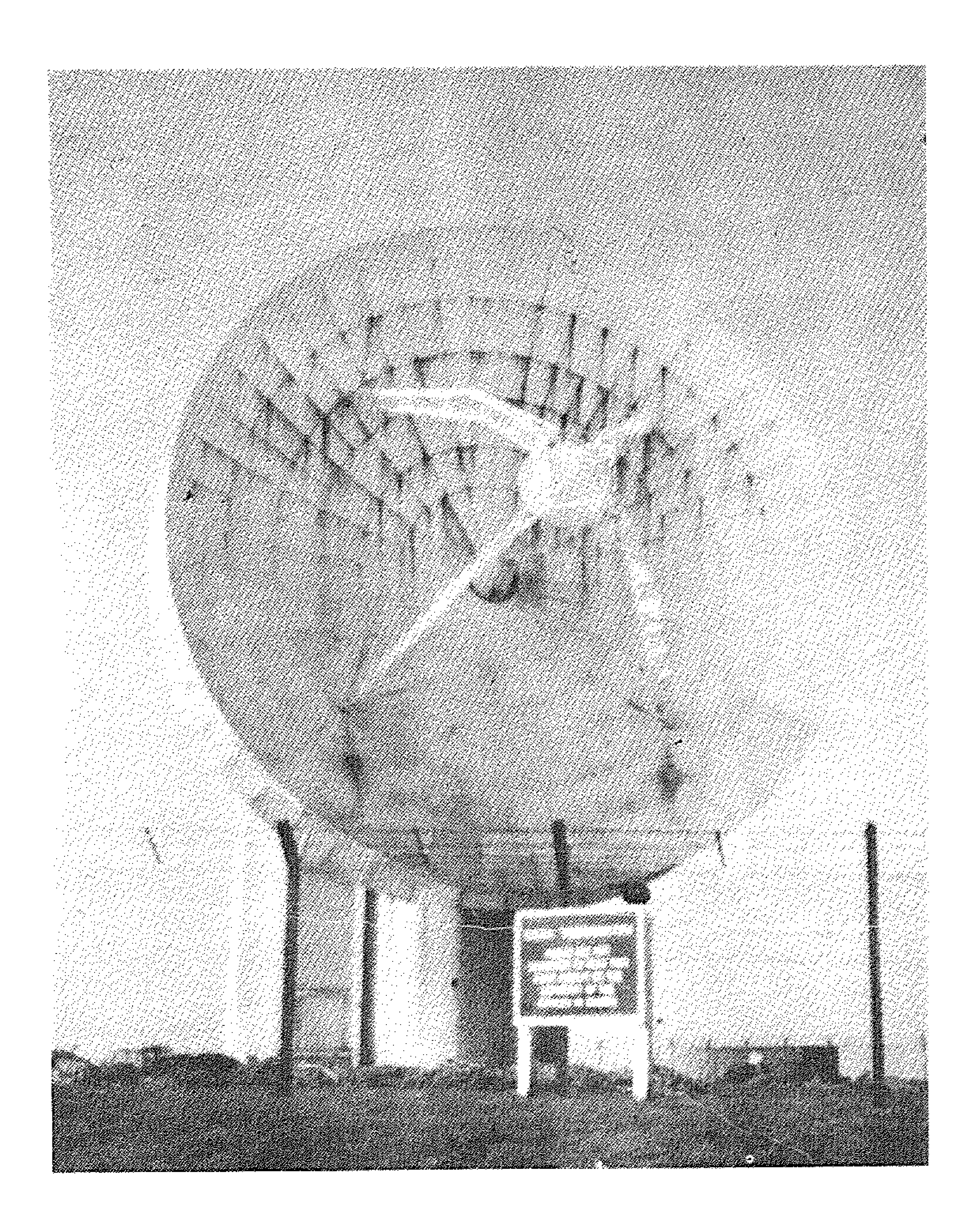
ولم تتردد الزوجة فى الذهاب الي مركز الشرطة والادلاء فى محضر كامل بجميع ما لديها من اسرار عن زوجها جيفرى ارثر بريم.. الذى قامت الشرطة بالقاء القبض عليه ومواجهته بأقوال زوجته التى وردت فى محضر الابلاغ. وكأنما كان ينتظر صدمة مواجهته بالحقيقة التى اخفاها اربعة عشر عاما لينهار ويبدأ فى تقديم اعترافات تفصيلية بخيانته وعمالته للسوفيات طوال تلك الفترة و.. يبدأ مسلسل النهاية الطبيعية لأحد ابرز الخونة داخل اكثر اجهزة الامن البريطانية حساسية واعترافاته امام قضاة محكمة الجنايات المركزية (الاولد بيلى) صباح احد ايام شهر نوفمبر عام ١٩٨٢ بجرائمه فى حق الدولة والشعب البريطانى واستمراره تسليم مندوبى المخابرات السوفيات لأدق الاسرار والوثائق والمعلومات عن مركز الاتصالات الحكومية فى شيلتنهام طول الفترة من عام ١٩٧٦ وحتي القاء القبض عليه فى نوفمبر عام ١٩٨١، بالاضافة الي جرائمه الجنسية المخجلة بالاعتداء علي ثلاث فتيات مراهقات وانتهاء بالاستماع للحكم عليه بالسجن ثمانية وثلاثين عاما، بالاضافة الي عقوبة اخري بالسجن اربعة عشر عاما لارتكابه جرائم تسليم المعلومات والوثائق والصور الخاصة بأقمار التجسس الامريكية خلال زياراته المتعاقبة الي فيينا، وعقوبات اخري بالسجن سبعة اعوام عن كل جريمة من جرائم التجسس الاخري

داخل مركز الاتصالات الحكومية فى شيلتنهام، وثلاثة اعوام عن جرائم الاعتداء الجنسى علي ثلاث مراهقات.

وتعمدت رئيسة الحكومة البريطانية - آنذاك - السيدة مارجريت ثاتشر ان تسرب الي احد كبار الصحافيين المقربين الي الرقم ١٠ داوننج ستريت فى ما يتعلق بالخائن جيفرى ارثر بريم بأنه لن يتم وضعه فى اى قوائم لتبادل الخونة والمجرمين مع الاتحاد السوفياتى تحت اى ظروف والي الابد.



جيفرى آرثر بريم أخر الجـواسيس البريطانيين فى حقبة الحرب الباردة



أحد اطباق جمع المعلومات الفضائية فى مركز الاتصالات الحكومية البريطانية فى مدينة شتنهام شمال إنجلترا

الورقـــة السادسة

«موردخاى فانونو» ملح الحبكة الدرامية لملهاة الموساد فى عام ١٩٨٦

كما يفضل الملايين من عشاق السينما فى العالم مشاهدة الافلام التى تختتم بالنهايات السعيدة ، يعشق ملايين ايضا فى متابعتهم لحكايا الجاسوسية ومغامرات الجواسيس تلك التى يتم فيها إلقاء القبض على الجاسوس ومحاكمته فى مهرجانات علنية صاخبة .

ورؤية المشهد الاخير الذى يواجه فيه صدور الحكم باعدامه فى اسوأ الظروف أو يداعه السجن مدى الحياة فى افضلها بغض النظر عن معرفتهم لتلك الحلقات أو المشاهد المجهولة أو التى سيظل الغموض يلفها إلى الابد وفى أكثر الملفات المسجلة بعناوين تحمل عبارات «سرى للغاية ومحظور النشر» .

ومن بين ملفات الغموض ، والسرية المحضور سيظل الملف الخاص بالخبير النووى والفنى الاسرائيلى «مودخاى فانونو» (٣٢ عاما) واحدا من اكثر هذه الملفات التى يصعب على الرأى العام الاسرائيلى - رغم سعادته بالقاء القبض عليه ومحاكمته وايداعه السجن - وكذلك الرأى العام العربى والعالمى التعرف على بقية تفاصيله الهامة وربما الاكثر اثارة منذ تلك

الخاتمة السعيدة التى صدر فيها الحكم عليه فى شهر مارس (آذار) عام ١٩٨٦ بالسجن ثمانية عشر عاما عقب الزعم باتهامه بالتجسس وافشائه للمعلومات السرية عن المفاعل النووى الاسرئيلى فى ديمونة (جنوب صحراء النقب) حيث عمل فى السابق لفترة تسعة اعوام قبل ادارة حبكة التقاطه من احد كبريات الصحف الاسبوعية اللندنية (الصنداى تايمز) وايضا الزعم باستدراجه لافشاد ما ضمه فى صدره واختزنه عقله مناسرار حول النشاط النووى الاسرئيلى ونشره على العالم لأول مرة (هكذا تم الترويج للملهاة) فى مجموعة من تحقيقات الصحفية والتى اثارت ضجة منذ ذلك الحين (١٩٨٦) عندما نشرتها تحت عنوان «أسرار الترسانة النووية الاسرائيلية» .

وتبدو أهمية «موردخاى فانونو» الاسرائيلى (المغربى الاصل) وينطق اسمه الأخير «فانونو» بين القوائم لتى ضمت مشاهير الاسماء فى عالم التجسس ، فى مجموعة المعلومات التى قام بافشائها والصور التى التقطها اثناء عمله وحملها إلى احد العواصم العالمية يروج لنشرها فى صحفها الكبرى فى تلك الجرأة التى استطاع بها ان يخترق حواجز السرية الفائقة ، واسوار الغموض التى اقامتها اسراذيل حول اكثر مشاريعها العسكرية حساسية طوال اكثر من ربع قرن دون ان يجرؤ زعماؤها على الاشارة اليها سواء فى تصريحاتهم الخاصة أو العامة أو أمهر جواسيس الساحة العالمية ازاحة النقاب عنها قبل أن يخرج بها «موردخاى فانونو» إلى لندن والقائها أمام واحدة من حيتان النشر الاسبوعى فى ساحات فليت ستريت .

وطبقا لما ورد فى المعلومات التيادلى بها لصحيفة «الصنداى تايمز»

الاسبوعية آنذاك ، (واتقانه للدور المنوط به فى الملهاة) فقد كشف عمل المهندسين والخبراء الفرنسيين فى بناد أكبر مركز لتكنولوجيا صناعة الاسلحة النووية داخل ترسانة تمتد فى باطن صحراء النقب ـ والتى عرفت فيما بعد باسم مفاعلات ديمونة ـ منذ عام ١٩٥٧ حيث شيدت فى عمق ٢٥ مترا اسفل رمال الصحراء اولى الواحدات باسم «ماكون ـ ٢» والتى زعم الرئيس الفرنسى الراحل شارل ديجول نفيه لأى تعاون فرنسى مع اسرائيل فى مثل هذه المشاريع معتبرا الترويج لها لايعدو ان يكون قصصا وهمية ، ومفتعلة لاتستند إلى أى اساس من الصحة آنذاك !

ولكن «موردخاى فانونو» جاء بعد ٢٩ عاما من تشييد اولى هذه الواحدات بالمساعدات الفرنسية (أو هكذا تم الزعم) ليزيح النقاب عن أدق تفاصيل المنشآت التى لم تقتصر على وحدة «ماكون ـ ٢» فقط ، وانما امتدت لتشتمل عددا آخر من الواحدات التى افترشت اعماق صحراء النقب، وارتفعت منشآت أخرى من ستة طوابق على السطح جرت داخلها عمليات المراحل الاولى لتنشيط اليورانيوم واجراد الابحاث والدراسات التى تعجل برتسيخ قواعد الصناعة النووية الاسرائيلية التى قامت عناصر اجهزة «الموساد» بتهريبها إلى اسرائيل وفى واحدة من العمليات السرية الضخمة التى لم تكن تسمح بتداول اسرارها أو حتى وصولها إلى اسماع السياسيين فى تل ابيب ، وإلى أن بلغ مخزون اسرائيل من القانبل النووية فى هذه المنطقة طبقا للمعلومات التى ادلى بها «موردخاى فانونو» ونشرتها صحيفة «الصينداى تايمز» عام ١٩٨٦ ، ما يقرب من مائة نووية يبلغ قوة تفجير الواحدة منها ثلاثة اضعاف أول قنبلة نووية امريكية القيت على مدينة

هيروشيما . واتاح امتلاك سرئيل لها فى صمت وسرية مطلقة ، احتلالها المرتبة السادسة فى النادى الذرى الدولى الذى يضم الولايات المتحدة الامريكية ، وبريطانيا وفرنسا ، والاتحاد السوفياتى (السابق) ، والصين . واتاحت الامكانيات الفنية لاسرائيل القيام بتجارب أخرى لصناعة القنابل النيتروجينية والهيدروجينية ومنذ أن يدأ العلماء الاسرائيليون وفى الطابق الرابع داخل منشآت مركز ديمونة النووى انتاج معدات واجهزة الاسلحة النووية الحرارية Themonuclear Weapons.

واما ان القى «موردخاى فانونو» بتفاصيل اسرار ترسانة اسرائيل النووية على صفحات جريدة «الصنداى تايمز» اللندنية فى عام ١٩٨٦ حتى اثارت ردود الفعل العاجلة قلق ومخاوف اعضاء الحكومة الائتلافية فى تل ابيب ، والرؤوس الحافظة لأهم الاسرار التى احيطت بالسرية والغموض ، وتيقنهم من أن ما نشر ، وما يمكن أن يكون قد توفر لدى الجريدة من معلومات أخرى تعتزم نشرها قد اصبح يخرج عن نطاق النشر الصحافى ويهدد بافشاد المزيد من الاسرار التى لم تعد سرية سواد على الرأى العام الاسرئيلى أو الرأى العام العالمى ، خاصة بعد ان استدعت «الصنداى تايمز» مجموعة من الخبراء والفنيين كان من بينهم تيودور تيلور المدير السابق لبرامج التسلح النووى فى البنتاجون (وزارة الدفاع الامريكية) واطلعتهم على المعلومات والصور التى حملها معه «موردخاى فانونو» ويكشف بها النقاب عن اسرار الترسانة النووية الاسرائيلية .

وعقب أن اطلع تيودور تيلور على ما وضع امامه من معلومات وصور، اكد فى تصريح خاص للمسولين داخل صحيفة «الصنداى تايمز»

ان المسألة برمتها لم تعد مجموعة من الاسرار النووية الاسرئيلية بقدر ما تشير إلى امكانية - لاشك فيها - انتاج اسرئيل للقنابل والاسلحة النووية وبمعدلات كثيفة سوف تحولها خلال فترة زمنية قصيرة لاتعدو الاعوام العشرة إلى واحد من القوى النووية الكبيرة على المسرح العالمى ، وان امعلومات التى يذيع تفاصيلها «موردخاى فانونو» تفوق فى اهميتها أية تقارير سابقة توفرت لدى أجهزة وزارة الدفاع الامريكية عن الانشطة النووية التى كانت تمارسها اسراذيل من قبل فضلا عن امكانيتها الفعلية لانتاج عشر قنابل نووية سنويا طبقا للمعدلات والبرامج التى كشف عنها فانونو .

كان «موردخاى فانونو» فى هذه الاثناء لازال موجودا فى لندن ، قادته إليها الصدفة - أو هكذا زعم بعد مغادرته اسرائيل بحجة القيام برحلة ترفيهية ، وصفها لبعض الذين استقبلوه بأنها رحلة اعادة اكتشاف الذات والتخلص من كم الهموم وضغوط القلق اللذين يعانى منهما .

ولكن فانونو وقبل أن يصل إلى لندن ، كانت محطات ترحاله قد توقفت به فى استراليا حيث اندفع إلى احدى الكنائس للاعلان عن رغبته ترك ديانته اليهودية الاصلية والتحول إلى اعتناق المسيحية . فى هذه الاثناء التقى مصادفة أيضا - بصحافى مغامر من كولومبيا يدعى «اوسكار جوريرو» حيث تتعمق بينهما اواصر الصداقة السريعة ويكتشف خلالها فانونو لصديقه عن هويته وعمله السابق فى مركز مفاعلات ديمونة الاسرائيلى ورغبته فى التخلص من ذلك الماضى الذى جثم على صدره طوال تسعة اعوام . وفيما شجعه «جوريرو» على ما اعتزمه يعرض عليه

العمل معا فى بيع ما لديه من معلومات وحكايا تصلح عناوينها المثيرة للصفحات الاولى فى اكبر الصحف العالمية .

ولم تمض عدة ايام حتى كانت المغامرة قد اشتعلت فى رأس الصحافى الكولومبى اوسكار جوريرو واسرع بالاتصال بصحيفة «الصنداى تايمز» فى لندن يعرض عليها «قنبلة النشر» ومفجرها والاشارة إلى ما يحمله معه من اسرار .

ولم يتردد المسؤولون فى «الصنداى تايمز» فى ارسال احد كبار محرريها إلى استراليا للالتقاء بفانونو وجوريرو والاتفاق المبدئى على قبول شراد ما لديهما والحضور إلى لندن لاستكمال نسيج أكبر خبطة صحافية .

وبينما كان فانونو وصديقه يستعدان للسفر إلى لندن كانت أجهزة المخابرات الاسترالية التى تابعت فانونو منذ وصوله وأدق تفاصيل تحركاته، ومشروعه الذى يعتزم تفجيره فى لندن ، وقد سربت الانباء إلى عملاء أجهزة الموساد (المخابرات الاسرائيلية) وأحكمت حلقات المتابعة لذروة القصة المثيرة التى طار فانونو بها إلى لندن .

فى العاصمة البريطانية وما أن وصل اليها «موردخاى فانونو» حتى استقبله كبار المسؤولين فى جريدة «الصنداى تايمز» بترحاب شديد ، واحاطوه بهالة من الاهمية اثلجت صدره ، واغرقوه فى دعوات للغداء والعشاء وزيارة دور المسارح والسينما فى الوقت الذى كانت فيه قد بدأت جلسات الادلاء بما لديه من اسرار والاستماع اليها وتسجيلها ، ونشاط مجموعات من الخبراء والفنين لفحصها ، وتقييمها ، ودفع احدى الصحافيات (اليهوديات) اللاتى يتدربن فى الصحيفة إلى مرافقته اثناء

اقامته فى لندن . واجادت الصحافية «ويندى روبنز» (٢٨ عاما الآن) مهمتها بنجاح حيث كانت ترافقه اطول ساعات النهار والليل فى جولات لزيارة معالم لندن واسواقها واستكمال مهمة لمس مشاعرة العاطفية وتحويل كل ذلك إلى تقارير يومية تضعها فى الصباح التالى على احد مكاتب المسؤولين فى الصحيفة إلى أن انتهت الحلقات لتى ادتها بنجاح وترك فانونو وحيدا يواجه ايامه اقامته فى لندن متسكعا فى شوارعها وساحاتها العامة تحت اعين من يعنيهم متابعته وقياس نبض ادق تحركاته .

فى تلك الاثناء يلتقى «موردخاى فانونو» ايضا بالصدفة بسائحة تدعى «سيندى» فى ميدان «ليستر سكوير» حيث تنشأ بينه وبينها علاقة سريعة اكثر ما فيها من تفاصيل ستبقى مجهولة إلى الابد . فى الوقت الذى كفت فيه «ويندى روبنز» الصحافية اليهودية المتدربة فى «الصنداى تايمز» عن الاتصال به والغاء دعوة كانت قد وجهتها إليه للعشاء فى منزل اسرتها فى مقاطعة والالتقاء بوالديها .

فجأة يكتشف المسؤولون فى «الصنداى تايمز» اختفاء فانونو من لندن ، بعد نشر تحقيقات «اسرارالترسانة النووية الاسرائيلية» على صفحات الجريدة، فيما امتلأت لندن بشائعات اختطافه على ايدى عملاء الموساد (اجهزة المخابرات الاسرائيلية) واعادته إلى اسرائيل مقبوضا عليه عن طريق الايقاع به بالعميلة «سيندى» التى كانت قد التقت به فى مصادفة مدبرة فى ميدان ليستر سكوير فى لندن واقناعه بالسفر معها إلى ايطاليا .

فى اسرئيل كانت الضجة التى احدثها «موردخاى فانونو» بكشفه اسرار الترسانة النووية الاسرائيلية فى ديمونة قد اثارت ردود فعل عنيفة ومختلفة

فى اوساط دوائر المخابرات وفروعها من «شين بيت» إلى الموساد إلى المخابرات العسكرية ، واصبحت التساؤلات المطروحة بين رؤسائها هى كيفية نجاح موردخاى فانونو احد ابرز العاملين فى المنشآت النووية الاسرائيلية التقاط الصور لادق الاسرار النووية ، والحصول على نسخ تفصيلية لبرامج التسليح والانتاج النووى والخروج بما يقرب من ٥٧ وثيقة وصورة فوتوغرافية من الحصن النووى المشدد الحراسة إلى استراليا ومنها إلى لندن ، وكيف تمكن من خداع الحراس ، واعين الرقابة العاتية المفروضة داخل «ديمونة» وفى جميع مناطق صحراء النقب ؟ ؟

والمثيران «موردخاى فانونو» نفسه اعترف فى لندن اثناء ادلائه بمعلوماته انه تم التحقيق معه ثلاث مرات حول انشطته السابقة كعضو فى احد الاجنحة السياسية اليسارية واستطاع نفى المزاعم التى وجهت اليه وخداع المحققين واثبات براءته من أى انتماء سياسى أو حتى تعاطف مع أى حركة سياسية مهما كانت انتماءاتها .

غير ان الغامض والمجهول ، والذى سيظل سرا مغلقا فى عملية «موردخاى فانونو» وعلامات الشك والاستفهام المعلقة حول كثير من مشاهدها وتفاصيلها ، هو كيفية خداعه لأعين الرقابة فى الموانئ والمطارات الاسرائيلية نفسها والخروج من تل ابيب حاملا معه مجموعة من الوثائق والصور التى يصعب اخفاوها بالطريق العادية داخل حقيبة سفر .

ومثل هذه التساؤلات تطرح علامات الشك والادلة شبه المؤكدة حول احتمالات قيام أجهزة الموساد نفسها بنسج اسطورة «موردخاى فانونو»

وهربه من اسرئيل ورحلته الطويلة إلى استراليا والمصادفات الغريبة التى ألقت فى طريقه بالصحافى الكولومبى (المجهول ايضا) اوسكار جوريرو واقناعه ببيع اسراره إلى «الصنداى تايمز» اللندنية وبقية مسلسل المغامرات التى يلتقى خلالها بالصحافية اليهودية ويندى روبنز (تعمل حاليا مساعدة اخراج فى هيئة الاذاعة البريطانية ودائرة اعداد البرنامج الاخبارى التلفزيونى بانوراما) ، ثم مصادفة اللقاء بالسائحة «سيندى» .

وانتهاء بالاختطاف من لندن أو روما وسيناريو المحاكمة والالقاء به خلف القضبان .

والهدف من كل تلك العملية الصاخبة والمحاطة بكم هائل من الاثارة على الساحة الدولية وفى العواصم الكبرى تحقيق رغبة الموساد (المخابرات الاسرائيلية) بالتلويح بالرعب النووى الاسرائيلى امام العالم وتحقيق اقصى ابعاد الافادة من انعكاس ذلك فى اوساط الرأى العام العالمى ، والاسرائيلى . . والاهم العربى !

ولكن مثل هذه الاحتمالات لم تحل دون إحداث مسرحيات أخرى داخلية فى اسرائيل نفسها ، وبتصعيد حدة النقد لأجهزة الامن وتوجيه اللوم إلى جهاز المخابرات الداخلى «شين بيت» واتهامه بالتخاذل ومسؤولية ضعف إحكام الرقابة على اسرار المفاعل النووى فى «ديمونة» وتجاهل خروج احد العاملين بها محملا بكم هائل مما وصف بالوثائق السرية والصور ليذيعيها على العالم .

وفى اطار مسرحية اللوم ـ المفتعل ـ الذى وجه إلى «شين بيت» لم يتردد بعض اعضاء الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) فى طرح التساؤلات

وتوجيه اللوم إلى جهاز الامن والتطاول بتصريحات تطالب بشن حملة تطهير موسعة تشمل اكبر رؤوس ادارة هذا الجهاز ومجموعة من العاملين به . فى الوقت الذى كانت فيه الصحف الاسرائيلية تستكمل حلقات الخداع المخططة بدقة والزعم بكشفها عن ابعاد شخصية الجاسوس «موردخاى فانونو» ودوافع تخليه عن الديانة اليهودية واعتناقه المسيحية ، وانتماءاته السابقة كعضو فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، وإلى حد وصفه بالمجند سرا لصالح منظمة التحرير الفلسطينية .

ولكن مشاهد المسرحية المفتعلة حول «كشف اسرار الترسانة النووية الاسرائيلية» واذاعتها على الرأى العام العالمى عبر احدى اوسع الصحف انتشارا ، ومن عاصمة دولية مثل لندن ، كانت ومنذ بداية الترويج لها دعائيا وقبل النشر وحتى المشهد الختامى للمحاكمة فى اسرائيل ، احد ملفات «الموساد» الذى سعت به اسرائيل إلى التلويح فى وجه العالم ـ والعربى منه على وجه الخصوص ـ بقوتها النووية التى يستحيل قهرها .

أما بقية التفاصيل الروائية للملهاة التى قام ببطولتها «موردخاى فانونو» وحشد من الشخصيات الجذابة والمثيرة لشغف القراء وفى قوائم تضم ويندى وسيندى ومائير فانونو (شقيق بطل المسرحية) ومجموعة أخرى اقحمت ادوارها على خشبات المسارح الحية فى لندن وروما . . ثم تل ابيب وقاعة الكنيست وزخم حملات النقد فى الصحافة الاسرائيلية فلم تكن كلها سوى «ملح الحبكة الدرامية» لاحد الاعمال المخابراتية الفنية الصحافية الذائعة الصيت فى عام ١٩٨٦ وحتى صدور الحكم على «فانونو» فى عام ١٩٨٨ .

وما اذيع من تفاصيل مشهد استدراجه من لندن إلى روما فقد كان

ايضا واحدا من اكثر مشاهد هذه الحبكة التى تظاهرت بها الموساذ بإقحام شخصية الحسناء العميلة سيندى وابرازها كطعم للعلاقة الغرامية التى اشتعلت بينها وبين فانونو وجذبته وراءها إلى مسكن شقيقتها فى روما حتى يستكمل الغطاء الشرعى وتبعد شبهة عمل أجهزة «الموساد» على الاراضى البريطانية .

وتبقى حقائق أخرى عن المشاهد الأخير التى دارت تفاصيلها فى روما اشبه بفصول روايات الجاسوسية الشائعة الانتشار فى اسواق العواصم الغربية لجراهام جرين ، ولوكاريه وفورسايث وغيرهم ، وان زعمت فى رواية فانونو وكشف اسرار الترسانة النووية الاسرائيلية ، بأنه حال وصوله إلى روما « وضع تحت الحجز التحفظى» إلى ان تم نقله من روما رلى تل ابيب لمحاكمته . واضيفت إلى هذه المشاهد الغامضة مشهد آخر داخل المحاكمة حيث سمح للمتهم ـ البطل الرئيسى فى الملهاة ـ بإخراج كفه امام عدسات تصوير وكالات الانباء العالمية مسجلا عليها بقلمه عبارة : «اختطف فى روما بعد ان وصلها على احدى طائرات الخطوط البريطانية فى رحلتها رقم ٥٠٤ من لندن صباح ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٨٦» .

اما صورة كف فانونو . . اداة الموساد الاخير لترويج قصة الترسانة النووية الاسرائيلية فى الصحافة العالمية فقد تم حظر نشرها فى الصحف الاسراذيلية ، واكتفى بظهور وجهه فقط داخل قفص الاتهام ، وتفسير ذلك أما لأنه عائد إلى مقتضيات النشر الصحافى وعدم وجود مساحة لفرد الصور بالقدر الكافى الذى يظهر رسالة «فانونو» الموجهة إلى شقيقه ماذير وإلى العالم أو ـ وهو الاصح ـ أنه لم يعرف بعد اختطافه إلى روما ماذا

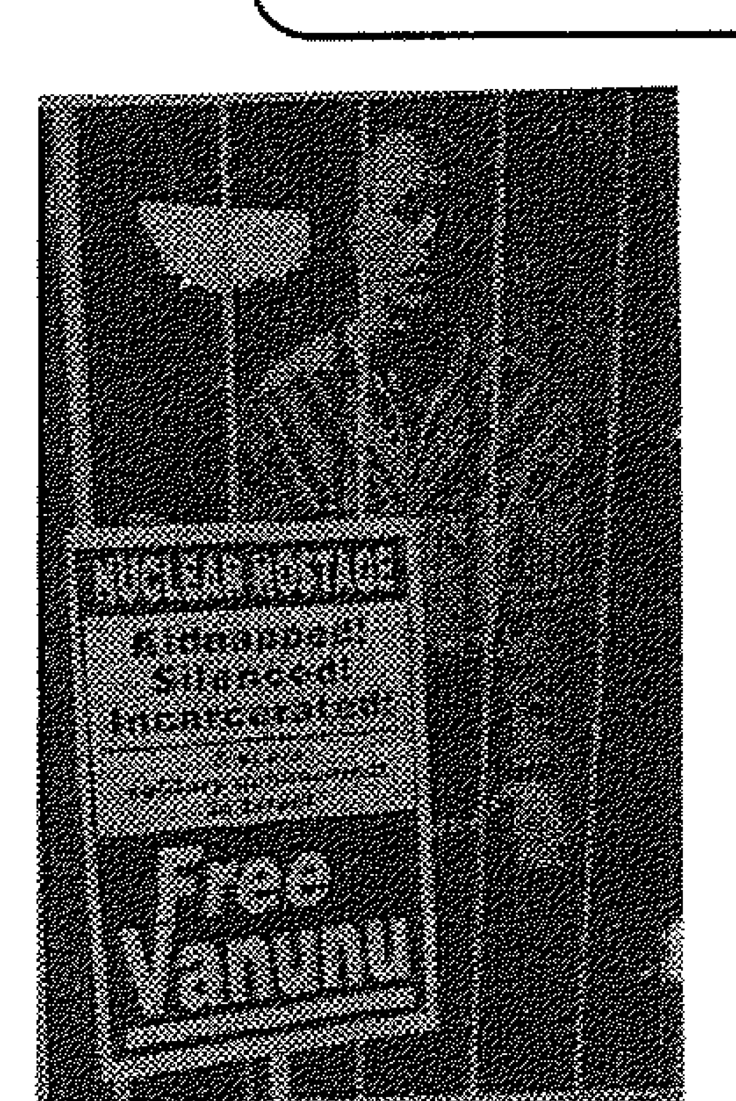
وقع له . والرؤية التى روجها شقيقه فيما بعد تشير إلى أنه عقب وصول موردخاى إلى مسكن صديقته سيندى (العميلة الحسناء) فى روما ، قامت بحقنه بمخدر قوى ، تم على اثره شحنه إلى احدى السفن التجارية الاسرائيلية حيث القى داخل احدى زنزاناتها لمدة يومين جرى بعدهما التحقيق معه حتى صباح السابع من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٦ عندما غادرت السفينة لاشواطئ الايطالية متجة إلى اسرائيل .

وكشف المحقق الايطالى - فيما بعد - الذى استجوب مائير فانونو عن الحلقات المفقودة فى «الملهاة الكبرى» التى ادراتها الموساد فى لندن وروما ، وقبل اغلاق ملف الاستجواب ، عن عدة ملاحظات اعرب فيها دومينيكو سيكا (المحقق الايطالى) عن عدم قناعته بكل ما توفر لديه من معلومات عن ملهاة «فانونو» وخروجه لمفاجئ ليكشف على العالم اسرار الترسانة النووية الاسرائيلية ومفاعلات ديمونة ، وتأكيد السنيور سيكا ان الصور والوثائق التى زعم فانونو تهريبها كأدلة على صحة روايته ليست سوى مواد مفتعلة ومن صنع خبراء أجهزة الموساد بما فى ذلك المشهد الاخير والرسالة التى كتبها على كفه وابرزها لعدسات مصورى الصحف الوكالات العالمية .

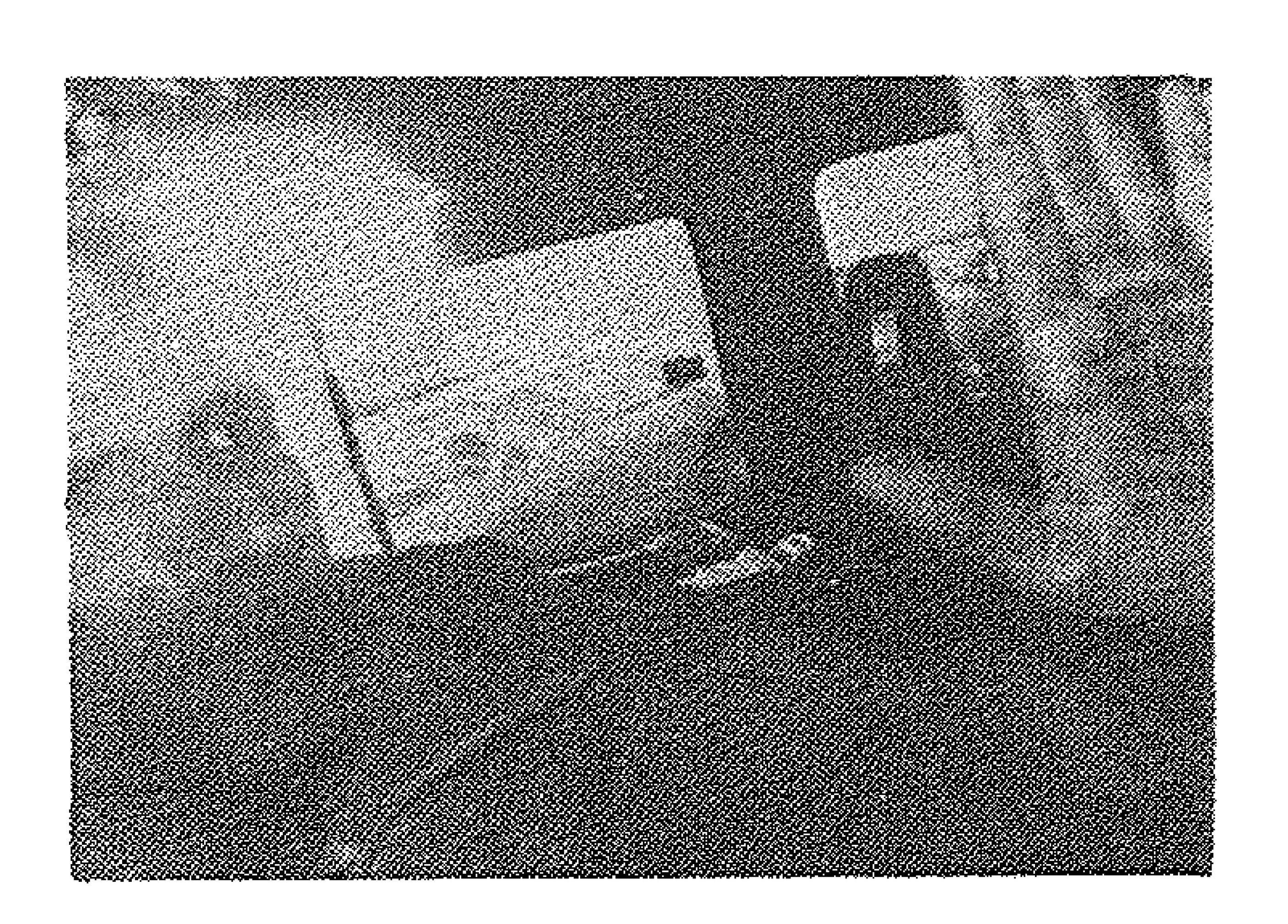
اما العميلة الحسناء «سنيدى» التى تم الزعم بأنها اوقعت «موردخاى فانونو» فى هواها وقادته إلى روما ، فقد كشفت أجهزة الامن البريطانية عن حقيقتها . . وانها لم تكن سوى الاسرائيلية الامريكية الاصل «شيريل بن توف» المتزوجة من اسرائيلى يدعى «اوفر» وتم استدعاوها من احد مستوطنات ناتانيا إلى لندن ، وتزوير جواز سفر اسرائيلى باسمها الجديد

«سيندى هانين» والاقامة فى فندق ايكيستون (وسط العاصمة البريطانية) والزعم بأنها احد خبيرات شركات انتاج التجميل فى فلوريدا . . ومن ثم اداء دورها المحدد فى الالتقاد - المصادف - فى ميدان ليستر سكوير بموردخاى فانونو . . واستكمال واحد من المشاهد المسرحية فى لندن التى خططت لها المخابرات الاسرائيلية .

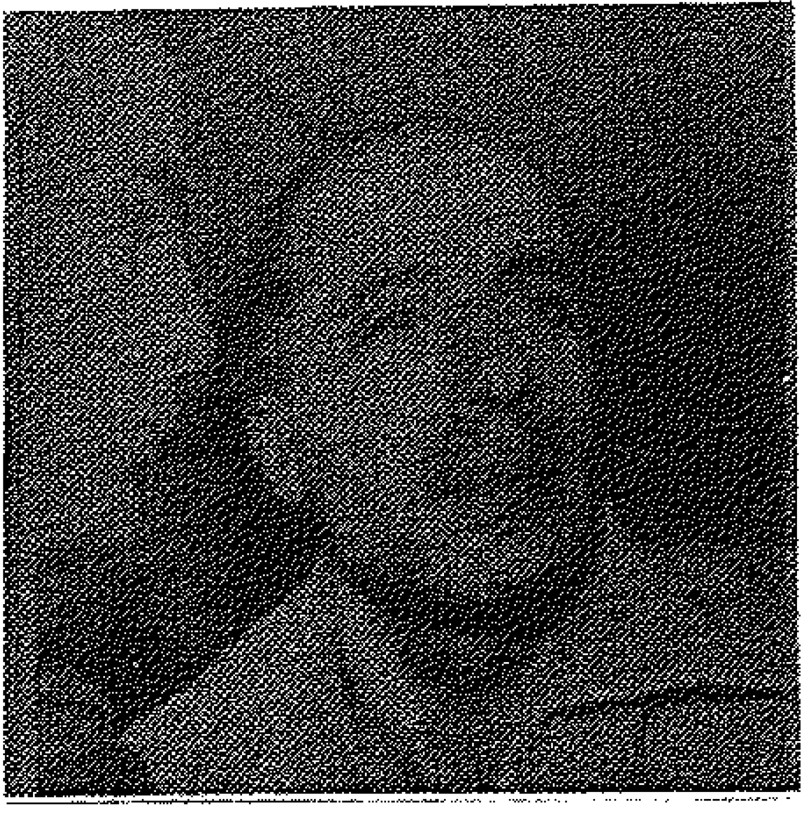
ولكن «سيندى» أو شيريل بن توف فى الحقيقة كانت من العملاء الذين لم يتقنوا الادوار المحددة لهم ، بسبب ميلها إلى الثرثرة ، والمبالغة فى اداء دور لم تفهم ابعاده جيا فتركت من ورائها ثغرات ومعلومات عن اقاربها وزوجها ومقر اقامتها الحقيقى فى اسرائيل والكثير من الاسماء التى كشفت لأجهزة الامن البريطانية الابعاد الفعلية للملهاة الجديدة التى روجت لها الموساد فى صحافة لندن لاسطورة الترسانة النووية الاسراذيلية ومحاولات ارهاب الرأى العام العالمى . . والعربى على وجه الخصوص فى عام ١٩٨٦ .



ملصق إعلانى حمله المتظاهرون أمام السفارة الإسرائيلية فى لندن صباح الأحد ٢٢ ديسمبر فى ذكرى مضى خمسة أعوام على أختطافه ومحاكمته فى تل أبيب وسجنه ١٨ عاماً .



موردخاى فانونو عالم الطبيعيات الإسرائيلى الذى كشف الأسرار النووية الإسرائيلية على صفحات جريدة التايمز البريطانية أثناء مغادرته المحكمة فى تل أبيب ومحاولته كشف دور الموساد (المخابرات الإسرائيلية) فى عملية اختطافه من روما فى ٣٠ يناير عام ١٩٨٦ .



موردخاى فانونو نموذج لمسرحيات الموساد على الساحة الدولية .

الورقــة السابعة

«المتهم رقم ١٢٥» شخصية غامضة فى محاكمات نورمبرج

منذ اكثر من نصف قرن. وربما لعدة قرون أخري مقبلة. ستظل تلك الشخصية التى هزت العالم بهبوطها المفاجيء بطائرة فى العاشر من شهر مايو عام ١٩٤١ فى قرية بمقاطعة سكوتلندا وقدمت نفسها لأول المحققين الذين اسرعوا للتعرف عليها باسم رودلف هيس نائب الزعيم الالمانى النازى ادولف هتلر والذى كان يقود فى تلك الآونة اكبر اعصار عرفته البشرية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، ستظل علامة استفهام.. وسرا غامضا لم يكشف النقاب عنه، طوال سنوات الحرب أو فى اعقابها داخل قاعة محكمة نورمبرج.. وبين جدران سجن سبانداو الالمانى حيث عرف بالسجين رقم ٧ رغم انه كان النزيل الوحيد حتي وفاته المفاجئة فى ١٧ اغسطس عام ١٩٨٧.

وطوال تلك الحقب الخمس التى مضت ظهر فى اسواق النشر الغربية العديد من المؤلفات والدراسات التى تناولت العهد النازى وزعاماته وسياساتهم وأدق تفاصيل الحياة الشخصية لهم، سواء بأقلام المؤرخين، أو الكتاب الموضوعيين أو الهواة، وناشرى التحقيقات الصحافية ولكنها جميعا اخفقت فى ازاحة بعض من الغموض الذى اتسمت به

شخصية «رودلف هيس»، بقدر ما زادت من الاعتقاد بأن ذلك الطيار الالمانى الذى هبط بطائرته فى احدي القري الاسكتلندية فى منتصف عام ١٩٤١ وظل رهينة فى المعتقلات البريطانية الي ان تم تقديمه بين مجرمى الحرب النازيين وعملائهم فى محاكمات نورمبرج.. باسم المتهم رقم ١٢٥ وخروجه منها الي سجن سبانداو الالمانى ببطاقة علي صدره تحمل صفة السجين رقم ٧ وحتي وفاته فى عام ١٩٨٧ لم يكن فى الحقيقة «رودلف هيس» نائب الزعيم الالمانى الراحل ادولف هتلر بل كان شخصية اخري مزيفة احكم تقديمها للعالم بهذا الاسم. وانه ظل طوال اعتقاله فى بريطانيا خلال سنوات الحرب، ثم فى الفترة التى استغرقتها محاكمات نورمبرج، وبعد ذلك خلال رحلة وحدته القاسية بين جدران سجن سبانداو شخصية شاذة غريبة الاطوار لا تمت بصلة الي الشخصية الحقيقية التى شغلت يوما ما منصب الساعد الايمن ونائب ادولف هتلر فى زعامة المانيا النازية.

كان رودلف هيس الذى قدم الي العالم عقب اخماد أوار الحرب العالمية الثانية يبدو حطام رجل فاقد للذاكرة، مختلق لأحداث لم تقع، ومفتعل لشخصيات مجهولة لم تلعب أدواراً ملحوظة علي الساحة الالمانية منذ صعود النازية وحتي اندحار الرايخ الثالث، رافض للقاء السيدة «هيس» المفترض انها زوجته أو ابنها أو اى من الاقارب والمعارف الذين ارتبطوا به طوال حياته فى المانيا. وظل متشبثاً بهذا الموقف الرافض طوال ثمانية وعشرين عاما من سنوات عقوبته مدي الحياة ومنذ ان القى القبض عليه فى القرية الاسكتلندية التى هبط فيها بمزاعم البحث عن السلام بين بريطانيا والمانيا النازية.

كما كان خلال محاكمات نورمبرج قد اخفق فى التعرف علي اثنتين من اعضاء سكرتاريته الخاصة واللاتى يفترض عملهن معه طوال السنوات السابقة علي قيامه بالرحلة الجوية الغامضة الي بريطانيا فى منتصف عام ١٩٤١. بل الاكثر غرابة من ذلك انه عندما استقبل كبير المحققين فى محكمة نورمبرج داخل زنزانته بادر المحقق بقوله: «سيدى ليس هنا فى داخل هذه الزنزانة شخص يدعي رودلف هيس ولكن اذا كنت تبحث عن المتهم رقم ١٢٥ منها انا بين يديك!!» وطوال تلك الفترة وما بعدها من سنوات امضاها بين جدران سجن سبانداو تلاحقت علي لسانه الكثير من الأقوال المتضاربة وسرد الاحداث الوهمية والمفتعلة ولم يكن بذلك الرجل الذى عرفه العالم نائبا للزعيم النازى ادولف هتلر ولا بتلك الشخصية العسكرية المنضبطة التى سجلتها ملفات الحقبة النازية وحتي الأيام الاخيرة قبل اختفائه وظهوره مرة أخري أو ظهور الشخصية البديلة التى حملت اسم رودلف هيس.

وفى أحد الملفات التى تحمل عنوان «حالة رودلف هيس» فى مكتبة معسكر المستشفي البريطانى فى برلين سجل الاخصائى النفسى البريطانى «ج. ار. ريس» والذى كان مكلفا بمتابعة حالة السجين رقم ٧ فى سجن سبانداو، تفاصيل دقيقة عن سلوك المتهم طوال السنوات التى كان فيها بين ايدى البريطانيين منذ منتصف عام ١٩٤١ وحتي عام ١٩٤٥، تم خلال الفترة التى استغرقتها محاكمات نورمبرج، بالاضافة الي موجز قصير عن تاريخ السنوات الاولي فى حياته وحتي قيامه برحلته الجوية الغامضة الي بريطانيا.

وفى هذا السجل اشارات سريعة وردت فى عدة جمل مبهمة تثير الفضول وتطرح مزيدا من علامات الاستفهام عن الفترة المبكرة فى حياة رودلف هيس والتى ذكر عنها انه «شارك فى الحرب العالمية الاولي فى الجبهة الغربية حيث اصيب فى معاركها مرتين فى عامى ١٩١٦ و١٩١٧ بعدة رصاصات اخترقت الصدر واصابت الرئة، ولكن أمكن علاجه منها بعدة عمليات جراحية».

والمثير ان مثل هذه الاصابات والعمليات الجراحية التى تتم فى الصدر يدرك الجراحون الاثار التى يمكن ان تتركها علي صدر المصاب والتى يستحيل زوالها بالتقدم فى العمر، وتظل علامات بارزة أو باهتة طوال سنوات العمر وحتي وفاته. ولكن وطبقا للأقوال الواردة التى أدلي بها السجين رقم ٧ والمتهم ١٢٥ سابقا أمام محكمة نورمبرج والمعتقل فى السجون البريطانية من قبل أطبائه النفسيين، لم تكن لهذه الاصابات فى المعارك الوهمية التى افتعلها اى اثار علي صدره عند الكشف عليه قبل دخوله رحلته الاخيرة فى سجن سبانداو الالمانى.

بل الاكثر من ذلك ان الملف الطبى الذى دون فيه الطبيب العسكرى الامريكى الكابتن «بن هيروفتيز» ادق تفاصيل حالته الصحية عقب تسليم السلطات البريطانية للمعتقل الغامض لديها طوال سنوات الحرب باسم «رودلف هيس» وقبل انعقاد جلسات محكمة نورمبرج لم ترد فيه اى اشارة الي تلك الاصابات الصدرية، أو ظهور اثارها المزمنة علي الجلد وإن اشار الي خط خفيف لا يلاحظ بالعين المجردة يبلغ طوله بوصة واحدة اعلي

الكتف الايسر وليس علي الصدر كما زعم المتهم قبل اجراء الكشف عليه. وان هذا الخط الذى لاحظه الكابتن الامريكى «بن هيروفتيز» كان بفعل محاولة انتحار اخفق السجين فى القيام بها واستخدم فيها سكين مطبخ صغيرة اثناء تناوله طعامه داخل زنزانة المعتقل قبل اجراء المحاكمات.

فيما واصل اطباء وممثلو الدول المحليفة التى احتلت برلين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الامريكية، والاتحاد السوفييتى) وعقب ايداع السجين رقم ٧ بين جدران سجن سبانداو يتناوبون ادارة السجن وشئون الرعاية الصحية لسجينهم النازى الوحيد لمدة شهر لكل منهم، ثلاث مرات علي مدار العام.

وفى نهاية كل شهر كان يعقد ممثلو الدول الأربعة اجتماعا مشتركا يستعرض فيه الطبيب العسكرى الذى كلف بمتابعة حالة السجين رقم ٧، وملاحظاته عن الأوضاع الداخلية والصحية داخل السجن قبل قيامه بتسليم سجلاته الي ممثل الدولة التى يحل عليها الدور فى ادارته. وبمضى الزمن تحولت هذه اللقاءات من صيغة الاجتماعات العسكرية والطبية الي لون من المناسبات الاجتماعية الاحتفالية التى يتناول فيها المجتمعون الطعام والشراب وتعميق التعارف فيما بينهم، وقطع الوقت فى المقارنة بين انواع الطعام الامريكى أو الالمانى أو بين الروسى والبريطانى والفرنسى الذى كانت تتنافس الدول الأربع فى تقديمه علي الموائد الفاخرة داخل معسكرات قوات الاحتلال لبرلين.

غير انه فى الفترة من اواخر عام ١٩٧٢ وبداية عام ١٩٧٣ وبعد ان

اتسمت الاجتماعات الشهرية المشتركة لممثلى الدول الحليفة الأربع بالطابع الاحتفالى وسيطرة مناخ الاسترخاء بين العسكريين والاطباء المكلفين بادارة سجن سبانداو ورعاية الحالة الصحية لسجينهم النازى رقم ٧، طرأ التوتر المفاجيء علي أحد هذه الاجتماعات عندما اقترح قائد المستشفي العسكرى البريطانى فى برلين آنذاك العقيد فيليبس ضرورة ادخال السجين المستشفي لاعادة فحصه بأشعة اكس من الاخصائيين البريطانيين للفصل فى اسباب معاناة السجين لبعض الآلام الداخلية رغم ان السجين لم يحدث ان أعرب عن شكواه أو معاناته لعدة شهور سابقة، الأمر الذى اعتبره المندوب الروسى (الذى انقضت فترة ادارته للسجن انذاك) نوعا من الاهانة البريطانية الموجهة الي الادارة الروسية، وانتهاكا لنصوص اتفاقية نورمبرج الموقعة بين ممثلى الدول الأربع الحليفة، ومحاولة من البريطانيين للانفراد بمسؤوليات الاشراف علي السجين النازى. ولكن القائد البريطانى للمستشفي العسكرى اسرع من جانبه بتخفيف حدة التوتر وتوضيح ان الأمر لا يستأهل توجيه اى اتهامات ضد الادارة الروسية أو ممثليها فى هذه الاجتماعات المشتركة بقدر اتخاذ مزيد من الحيطة والحرص علي سلامة السجين رقم ٧.

وظلت الحقيقة التى لم يذكرها قائد المسشفي العسكرى البريطانى فى برلين فى هذا الاجتماع المتوتر هى «الشك فى ممارسة الاطباء الروس والادارة العسكرية للسجن فى الفترات التى يتولون فيها الاشراف عليه، وأدت بطريقة مباشرة الي اصابة السجين رقم ٧ بقرحة فى المعدة تسببت فيها نوع الغذاء الروسى المقدم اليه وسوء الاوضاع الداخلية فى السجن

وعـدم اتبـاع اى اجـراءات للنظافـة وتطهـيـر الزنـزانة المودع بها السجين أو السماح له بساعات التريض اليومية المقررة فى الفناء الداخلى للسجن الامر الذى أدي الي تدهور حالته الصحية ورفض الادارة الروسية ارساله الي المستشفي أو اجراء اى فحص طبى له فى عام ١٩٦٩ وكاد تفاقم حالته ان يتطور الي الاشراف علي الموت لولا انتهاء شهر الادارة الروسية وتسليمه الي الادارة الامريكية التى عجلت بعلاجه وتحسين الاوضاع الداخلية فى سجن سبانداو.

ولكن ظلت هذه المعاملة التى لجأ اليها الروس حالة لم تفتقر اليها الادارة البريطانية وممثلوها فى الاجتماعات الشهرية لممثلى الدول الأربع الحليفة الي ان حلت اللحظة التى فجر فيها العقيد فيليبس قائد المستشفي العسكرى البريطانى فى برلين طلبه أمام المندوب الروسى فى اواخر عام ١٩٧٢ فى تلك الآونة التى اتسمت بالتوتر بين ممثلى الدول الحليفة الأربع فى برلين، ترددت شائعات بقيام العقيد فيليبس عقد سلسلة من الاجتماعات السرية فى المكتبة الملحقة بالمستشفي العسكرى البريطانى استهدفت توحيد مواقف المندوبين الغربيين الثلاثة ضد الروس وممثليهم فى اجتماعات اللقاء الشهرى المشترك. ولم يكن من العسير علي الروس العلم بحقيقة تلك الاجتماعات السرية التى اتخذوها ذريعة للانسحاب من اللقاء التالى ورفض حضوره إلا اذا قدمت اليهم صيغة اعتذار وتفسير لتلك التحركات التى تتم من وراء ظهرهم، فى الوقت الذى رفض فيه البريطانيون وحلفاؤهم الفرنسيون والامريكيون ذلك الموقف من الروس وهددوا باستخدام حملات

الدعاية المضادة لكشف اساليب ادارتهم لسجن سبانداو والطريقة التى يتعاملون بها مع السجين رقم ٧. وفضحهم أمام الرأى العام الغربى.

وكما هى العادة فى المسلك الروسى الذى يلجأ الي رفع المواقف الي حافة التوتر ثم التحول فى اللحظات الاخيرة الي المواقف المضادة والمتناقضة مع مزاعم طروحاتهم، اذعن المندوبون الروس فى ادارة سجن سبانداو الي المطلب البريطانى، ووافقوا علي اجراء الفحص الطبى للسجين رقم ٧ فى حضور مندوبى الدول الأربع والاطباء المختصين.

غير ان العقيد البريطانى فيليبس كان قد تم نقله الي احدي الوحدات العسكرية الأخري وحل محله فى ادارة المستشفي العسكرى العقيد جون ادجنجتون، دون ان يعلق الروس علي ذلك التغيير اهمية كبيرة أو ملاحظة مغزاه وتمت عملية فحص السجين فى شهر سبتمبر عام ١٩٧٣.

ولكن الصحافة والتليفزيون الالمانى ومندوبيهم علموا بوسيلة ما بموضوع احتمال نقل ا لسجين رقم ٧ «رودلف هيس» من سجنه الي المستشفي الذى يبعد عنه بميلين فى شارع هيرشتراس وان هناك فرصة ذهبية لمشاهدة اشهر سجين نازى اثناء عملية النقل، والتقاط صور نادرة يتطلع الملايين من القراء والمشاهدين الي رؤيتها فى صدر الصفحات الاولي وعلي شاشات التليفزيون.

وبدأت رغم اجراءات الامن المشددة قوافل المصورين ومراسلى الصحف ووكالات الانباء ومحطات التليفزيون الالمانية تنتشر فى اركان الطرق المؤدية من سجن سبانداو الي شارع هيرشتراس، فوق أعمدة

التليفون، وبين الاشجار وأسطح المنازل بانتظار واحدة من اللحظات التاريخية.

وفى الساعة الخامسة مساء ظهرت قوافل عسكرية اخري اسرعت باخلاء الطرق من جيش الصحافيين والمصورين واحكام السيطرة علي كافة المنافذ المؤدية من السجن الي مبني المستشفي العسكرى الحديث الذى كان قد استكمل بناؤه قبل عامين، وانتشر الجنود من حاملى المدافع السريعة الطلقات والخوذات المضادة للرصاص فى كل مكان خاصة فى شارع «ديكنزويج» المواجهة للبوابة الرئيسية للسجن.

ووصلت سيارة الاسعاف محاطة بمجموعة من الدراجات النارية فى تمام الخامسة والنصف لتدلف من البوابة الرئيسية الي داخل السجن، ولتغادره بعد لحظات بسرعة تقطع الطريق نحو المستشفي العسكرى دون ان تتاج لقوافل الصحافيين والمصورين الحصول علي صور صيدهم الثمين كما توقعوا. وداخل المستشفي كان هناك مندوبو الدول الحليفة الأربع ومدير المستشفي البريطانى «جون ادجنجتون» ومساعدوه من كبار الاطباء الاخصائيين لتوجيه القافلة التى اصطحبت السجين الي القاعة والتى خصصت لاجراء الفحص الطبى عليه، ومجموعات أخري من العاملين بالمستشفي والممرضات، وموظفو التسجيل وبعض العاملين فى الخدمات الطبية من المستشفيات الاخري التابعة للقوات الحليفة وكبار العسكريون البريطانيين والمدنيين وادارة سجن سبانداو و.. القادة العسكريون الروس ومندوب المخابرات السوفيتية ويدعي «فيتوف» بملابسه المدنية الزرقاء

ورأسه الضخم وعيناه الثاقبتان اللتان لا تهدأن عن الحركة والتطلع فى جميع الوجوه بنظرات الشك الذى يرقي الي مرتبة الاتهام بلا مبرر!

كانت شخصية فيتوف هذا أحد النماذج الفريدة التى تطرح لونا من الجواسيس المدربين علي اعمال الرقابة وجمع المعلومات عن اى شخص تقع عليه عيناه منذ ان ارسل الي المعسكر الروسى قبل عدة اعوام لينضم الي احدي قوافل الحرس داخل سجن سبانداو، ولكن بصورة أو بأخري وبحكم انتمائه الي جهاز المخابرات السوفيتى كى. جى. بى. استطاع فرض سيطرته علي جميع العاملين فى المعسكر بما فيهم قادته من العسكريين ذوى الرتب العالية. وكان مجرد ظهوره يثير الرعب فى صدورهم ويفرض عليهم نوعا فريدا من الانضباط المشوب بالارتباك رغم انه فى الحقيقة وبغض النظر عن هالة الاهمية التى يضفيها علي نفسه لا يعدو ان يكون شخصية كاريكاتيرية شبيهة بتلك الشخصيات التى كان يلعب ادوارها الممثل الكوميدى الايطالى «توتو» خاصة مع تلك الحركات التى كان فيتوف يجيد اداءها فى الاجتماعات الشهرية لمندوبى الدول الحليفة الأربع وانتفاضاته التقليدية المتكررة بين الحين والآخر ليعلق علي ما يدور من احاديث بعبارات لا يمل من اطلاقها وبأن «هذا الامر مخالف لاتفاقية نورمبرج» أو ان «هذا الاسلوب انتهاك صريح للمتفق عليه» أو «دعونا من تلك الثرثرة ولندخل فى الموضوع!» دون انتظار لسماع ترجمة ما يقال بلغته الروسية الخشنة.

الي جانب «فيتوف» داخل قاعة المستشفي العسكرى الذى احضر اليه

السجين رقم ٧، كانت هناك شخصية روسية أخري لا تقل اهمية واثارة عن فيتوف نفسه، قدمت للحاضرين كطبيب روسى رغم ان هيأته وقامته القصيرة وملامحه وقبعته الشبيهة بهيبة وملامح الممثل الهزلى شارلى شابلن بعصاه التقليدية، لا ترقي الي صفة الطبيب التى قدم بها. كان الرجل يبدو مضحكا مثيرا للسخرية خاصة بساقه العرجاء التى يمارس بها حركة لولبية مستمرة كلما تقدم أو واصل اللهاث خلف فيتوف أو اعادة تثبيت نظارته الطبية والمسح علي شعيرات ذقنه المدببة والتطلع المستمر الي الارض والبحث عن شيء مجهول يبدو مفتقدا..

كل هؤلاء الاشخاص والنماذج الغريبة كانوا قد احتشدوا فى الصالة الداخلية للمستشفي قبل ان يتفرقوا داخل الغرف الثلاث التى تنتهى اليها.. غرفة تناول الشاى، وغرفة السكرتارية، والثالثة التى زودت بأجهزة الاشعة واقتيد اليها السجين رقم ٧ «رودلف هيس» ومجموعة من الحرس تضم ممثلى الدول الأربع الحليفة. واستغرق السجين الدقائق الخمس والأربعين الأولي مع جراح العيون البريطانى العقيد داوسون، الذى قام بعدد من الفحوص الدقيقة علي عينى السجين لأول مرة منذ ثمانية وعشرين عاما، وتأكد من انه ما زال يتمتع بقوة ابصار جيدة رغم النظارة الطبية التى كان يلبسها طوال هذه الفترة.

وعقب انتهاء فحص العيون اقتيد السجين الي ركن الاشعة حيث تخلص من بزته الرمادية الكالحة وملابسه الداخلية وارتدي جلباب المستشفي الابيض وبدا متماسكا اثناء احكام رباطه خلف ظهره والامتثال امام مجموعة الاطباء والممرضين لبدء فحصه بالاشعة.

وعلي الفور قدمت له وجبة طعام خفيفة اعدت مسبقا بعد ان اضيفت اليها «سلفات الباريوم» التى تسهل انعكاس صور عملية هضم الطعام فى المعدة والامعاء الدقيقة وتحديد جدرانها بوضوح وكى يمكن التعرف علي اى خلل فيها أو بروزات، تكشف عنها الاشعة فيما اذا كانت اى منهما مصابة بالورم أو القرحة والاعتماد فى ذلك علي مهارة طبيب الاشعة وتعامله مع جسد السجين الذى بدأ يحركه علي طاولة الكشف كما لو كان قطعة الشطرنج تحت عدسات جهاز الاشعة (الذى لم يكن متقدما بما فيه الكفاية كما هو الحال اليوم) والتقاط الصور المطلوبة واحدة تلو الاخري أو التركيز علي جزء معين فى جدران المعدة وأخذ الصور التى تمنحه فرصة المزيد من ا لمعلومات عنه.

كان الميجور البريطانى بيل ليش أحد أمهر اطباء الاشعة فى مستشفي برلين العسكرى الذى يقوم بهذه المهمة بهدوء وصبر شديدين وكأنما سبق له التعامل مع جسد السجين رقم ٧ رودلف هيس من قبل رغم انها المرة الأولي التى كان جسده ممدداً علي طاولة الكشف أمامه ولكنه كان يعرف تماما اهمية المهمة المكلف بها، واحاطتها بكافة الضمانات التى تمكنه فى النهاية من تحديد الوضع الصحى للسجين بدقة قبل ان تتحول تقاريره الي معلومات أمام المسؤولين فى المستشفي العسكرى والقيادة البريطانية العليا فى القوات الحليفة، واقناع الطرف الروسى بأهمية وخطورة التعامل مع اشهر سجين علي قيد الحياة من بقايا الزعامات النازية.

فى تلك الآونة لم تكن اجهزة الأشعة قد عرفت الحديث من المعدات ووسائل الحماية للمريض أو الطبيب والخبير الذى يقوم بتشغيلها والتقاط

الصور عبر عدساتها، كل المتوفر كان بعض الملابس والقفازات المصنوعة من خليط المطاط والرصاص، ونظارات واقية من الاشعة تحت الحمراء لحماية العينين من خطرها. وفيما كان يتم فحص المريض (السجين رقم ٧) فى غرفة الاشعة، كانت تتم عمليات التصوير والطبع فى غرفة صغيرة مظلمة ملحقة بها محاطة بسرية واحكام شديدين يعمل بها خبير بريطانى آخر يعرف تماما اهمية التفاصيل الدقيقة التى تظهر علي سطح الصور المطبوعة ويسجلها فى رموز تدخل ملفاً لن يطلع عليه احد ممن كانوا محتشدين فى القاعة الخارجية للمستشفي العسكرى البريطانى وخاصة رجل المخابرات السوفيتية «فيتوف» الذى كان قد انتابته حالة من العصبية بسبب منعه من دخول غرفة الاشعة أو دس انفه - كما اعتاد - فى عمل الخبراء وعدم درايته بالشئون الطبية أو كيفية التصرف بعد ان اختفي السجين الشهيد رقم ٧ عن عينيه وكذلك مجموعة كبار العسكريين الامريكيين والبريطانيين والفرنسيين فى احدي القاعات الداخلية التى لم يدع اليها، وراح يتجول خارج ابوابها المغلقة بعصبية، وتركه دون تزويده بملابس مطاطية واقية تمكنه من دخول غرفة الاشعة وفرض نفسه علي العاملين داخلها طوال ساعتين استغرقتهما عمليات فحص السجين.

وعقب انتهاء المرحلة الاولي من الكشف علي السجين بنجاح، قدم الميجور الطبيب البريطانى «بيل ليش» مجموعة كبيرة من صور الاشعة الملتقطة للسجين الي مندوبى الدول الأربع الحليفة الذين راحوا يتطلعون

اليها علي شاشة العرض فى المكتب الملحق بغرفة الاشعة وانتظار الاستماع الي شرح ما تحويه من اسرار.

ولم يتردد «ليش» عن تقديم شرح مختصر للصحة العامة للسجين وتوضيح ان الاصابات البارزة علي جدران المعدة والامعاء الاثنى عشر لا تعدو ان تكون اثار اصابته السابقة بقرحة المعدة التى عولج منها فى الماضى ولم يعد لها تأثير يذكر علي عمل الجهاز الهضمى أو التسبب فى معاناته لأى تشنجات عصبية. وان اى ملاحظات علي حالته النفسية أو ميله الي الاكتئاب يعود الي الظروف المحيطة به ومواجهة سنوات العقوبة والمرحلة المتقدمة فى العمر.

وبعد استراحة قصيرة تداول خلالها مندوبو الدول الأربع الحليفة الرأى فى الحالة الصحية للسجين رقم ٧، وافق الجميع علي استمرار عمليات الفحص فى مرحلة تالية اعطي السجين فى بدايتها مجموعة من اقراص «ماكسولون» للاسراع بعمليات هضم الطعام الذى سبق تناوله قبل بدأ عملية الكشف مرة أخري. وكالمعتاد كان الروسى «فيتوف» لا يكف طوال هذه الفترة عن الاعتراض علي مواصلة عملية فحص السجين، ومعارضة اعطائه اية عقاقير اضافية مهددا بانسحاب الوفد الروسى وتفجير ازمة سياسية وعسكرية اذا لم يتم أعادته الي سجن سبانداو بأسرع وقت ممكن قبل ان تتطور الأزمة وتحميل الجانب البريطانى مسؤولية انتهاك اتفاقية نورمبرج وادارة حملة «دعائية» مضادة لا تحمد عقباها.

نجد ان هستيريا وعصبية «فيتوف» كانت قد تحولت الي أمر معتاد

لا يلقي اكتراثا كبيرا من المندوبين الامريكيين والفرنسيين والبريطانيين، خاصة اطباء المستشفي العسكرى الذين كان عليهم مواصلة فحص السجين بأسرع وقت ممكن واعادته الي سجن سبانداو مرة أخري، ولذا فقد عجل طبيب الاشعة الميجور «بيل ليش» بتقديم وجبة طعام أخري من قطع سمك السالمون البارد الي السجين الذى لم ينتظر احضار ملعقة لالتهامه وبدأ يستخدم يديه فى حركة آلية سريعة بين صحن السالمون وفمه ليزدرد قطعه علي دفعات كبيرة دون ان يكلف خاطره بالتطلع الي وجوه الافراد القلائل الذين احاطوا به فى غرفة الاشعة أو منهم ما يدور من احاديث اختلطت فيها الروسية بالانجليزية والفرنسية من المندوبين خارجها، مع اختلاس النظر بين الحين والآخر الي وجه طبيب الاشعة البريطانى «الميجور بيل ليش» بانطباع يعبر عن الامتنان.

وما ان انتهي من تناول وجبة الطعام حتي انصاع الي أمر قصير وكلمات قاطعة من احد معاونى الطبيب بالصعود مرة أخري الي طاولة الكشف حيث بدأت المرحلة التالية مع تعتيم الغرفة وتفرق المندوبين بعيدا عنها، حيث استغرقت تلك العملية نصف ساعة كانت لمعات فلاش الضوء تقطع العتمة بين لحظة وأخري تتلاحق معها صور الاشعة فى الغرفة الملحقة للطبع. ومع اكتمالها ربت «ليش» علي كتف السجين وأمره مرة أخري بالنهوض لارتداء ملابسه استعدادا للعودة الي سجن سبانداو من جديد.

وعندما خلت غرفة الاشعة الا من السجين العارى رقم ٧، اقترب منه السيرجانت ستيوارت ماكلين أحد خبراء الاشعة الذين عاونوا الميجور ليش

فى مهمة الفحص، واقتاده الي ركن فى الغرفة لمساعدته علي ارتداء ملابسه. وفى لحظة نادرة اختفي فيها الجميع بعيدا عن هذه البقعة اقترب ماكلين من السجين وراح يتأمل صدره العارى وهو يتظاهر بمساعدته علي ارتداء ملابسه، وكان فى الحقيقة يجرى عملية تدقيق اخيرة لصدره وفى محاولة للكشف عن اى اثار جروح قديمة أو ندب تؤكد مزاعم السجين المتناقضة من قبل عن الاصابات التى لحقت به فى الصدر اثناء الحرب العالمية الاولي.

وعلي ضوء الشعاع الشاحب من مصباح ركن خلع الملابس تأكد السيرجانت سيتوارت ماكلين من خلو صدر السجين وبقية جسده العارى من اى اثار أو اصابات سوي تلك الخطوط الباهتة علي كتفه الايسر والناجمة عن محاولته السابقة الانتحار اثناء اجراء محاكمات نورمبرج. وازداد تأكده من خلو جسده من الاثار طوال الفترة التى مضت علي ارتدائه ملابسه ببطء والتى اختتمها السجين بالتطلع فى وجه السيرجانت ماكلين والهمس بالالمانية معتذرا عن بطئة بترديد عبارة تحمل معني «الأسف».

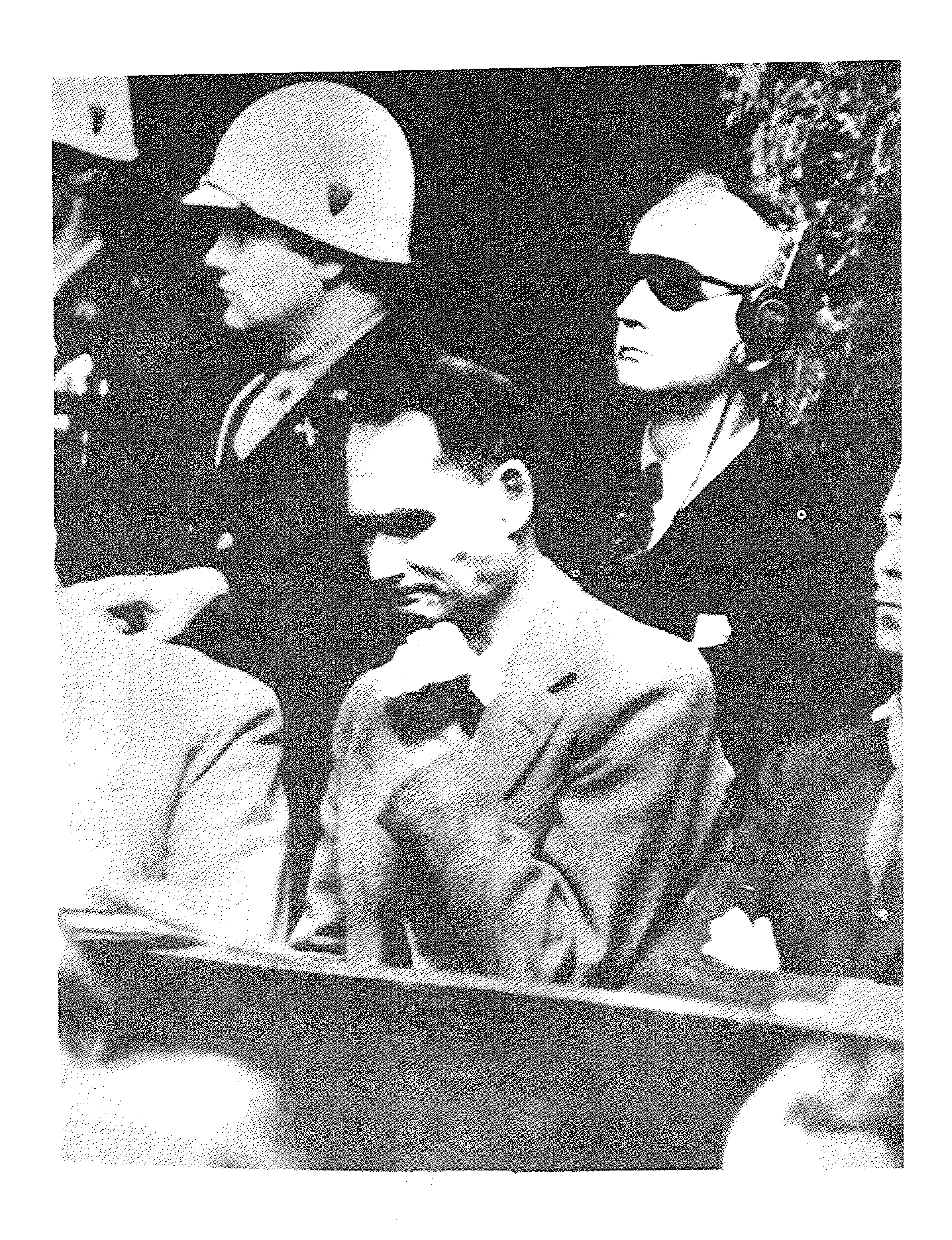
وباستكمال ارتدائه ملابسه دخل قائد المستشفي العسكرى البريطانى جون ارجنجتون الي الغرفة وصافح السجين متمنيا له دوام الصحة بينما كان الروسى فيتوف يصرخ فى الخارج فى محاولة لمنع توجيه اى عبارات مجاملة للمجرم النازى قد تعنى انتهاكا لنصوص احكام محكمة نورمبرج.

وفى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة مساء نفس اليوم اقتيد السجين فى سيارة الاسعاف وموكب الدراجات النارية علي نفس الطريق من المستشفي البريطانى الي سجن سبانداو مرة أخري.

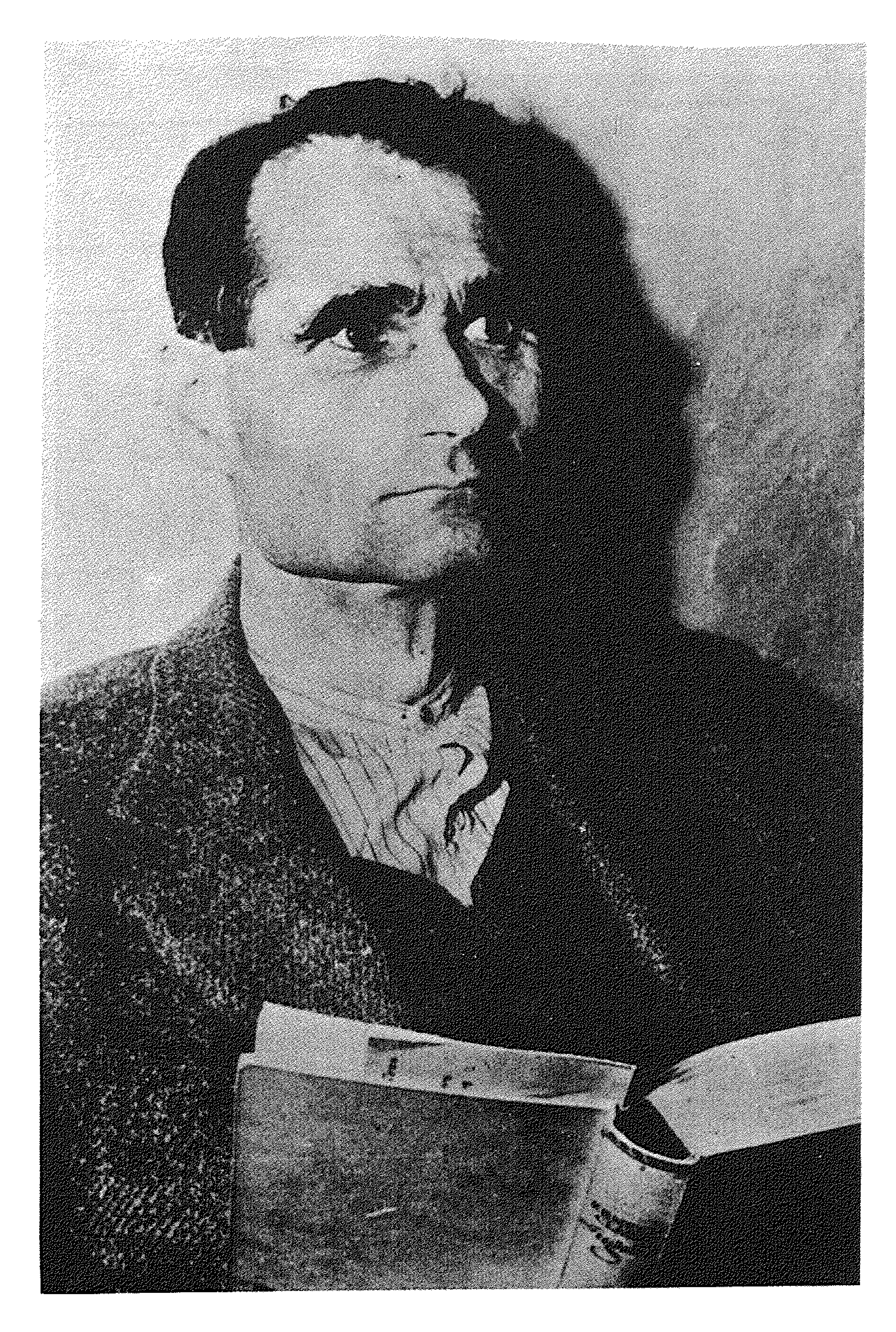
وظلت ملاحظات السيرجانت ماكلين عن خلو جسد السجين رقم ٧ من اى اثار لاصابات قديمة علامات استفهام كبيرة لجسد محارب زعم اشتراكه فى معارك الحرب العالمية الاولي، ومحاولات لاعادة طرح تساؤلاته عمن يكون هذا السجين نزيل سبانداو الذى تختلف شخصية ومعالم جسده عن شخصية رودلف هيس الاصلى؟ واذا كان هذا الشخص الذى تمت عمليات فحصه بالاشعة واثبتت خلوه من اى اصابات مزعومة شخصاً آخر، فمن يكون اذن وما هى قصة زرعه بتلك الدقة والمهارة التى تمت بها منذ سقوط طائرته فى احدي القري الاسكتلندية فى العاشر من مايو عام ١٩٤١؟ وما هو الدور الذى لعبته المخابرات البريطانية فى نسج اسطورة رودلف هيس نائب الزعيم الالمانى النازى أدولف هتلر الفار من المانيا الي بريطانيا فى المعارك الاولي للحرب العالمية الثانية تحت وهم البحث عن السلام؟؟ واني اختفت الشخصية الاصلية؟ ومتي؟ ولماذا تم التعتيم علي حقائقها حتي الآن؟



أشهر متهم وسجين تاريخى فى محاكمات نورمبرج رودلف هيس التقطت له الصورة عندما كان الرجل الثانى فى بداية العهد النازى



رودلف هيس داخل محكمة نورمبرج يستمع الي وقائع الاتهامات



رودلف هيس داخل زنزانة السجن يقضى وقته بالقراءة خلال فترة المحاكمات

الورقــة الثامنة

«ميج» عراقية هدية للموساد الإسرائيلية

كثير ذلك الذى كتب عن حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ وباللغات الاجنبية سواء المصطبغ بلغة الدعاية ومفرداتها وبأقلام تعاطف اصحابها ـ وفى الغالب تحمس وانبهر للنصر الاسرائيلى الذى احرزته ضد الجيوش العربية او سيل الكتب والدراسات التى افتعلت مناهج الموضوعية وصفة الحياد، وصبت فى النهاية فى خنادق وجهات النظر الاسرائيلية والغربية بوجه عام. فى مقابل الاكثر مما كتب وباللغة العربية مستخدماً لغات التعذيب للذات فى اسوأ الاحوال او المفاهيم الدعائية العربية، وبلاغة الانشاء والعموميات المفتقدة للحقائق وتفاصيلها فى افضلها..

والقليل.. القليل الذى استطاع النفاذ الي سطح المطبوع والمنشور، ليطرح امام الاجيال الثلاثة التى تلت، ولم تشهد وقائع احداث حرب الايام الستة لتكشف ما حوته من اسرار مازال معظمها ان لم تكن كلها مطوية فى ملفات وأروقة اجهزة المخابرات العربية والاسرائيلية والغربية بوجه عام. وليس من المعتقد ان جزءاً منها سوف يتاح له فرص النشر والتعرية قبل مضى عقود أخري طويلة مقبلة يتمكن احدها من استخلاص حبات القمح

من ركام التبن الذى ساهم فى اسدال ستائر التعتيم علي اكثر الحروب العربية ـ الاسرائيلية تأثيراً فى حياة الملايين وعلي ساحة تمتد من المحيط الي الخليج..

....

....

فى السادس عشر من اغسطس (آب) عام ١٩٦٦ هبطت فى احدي القواعد الجوية شمال اسرائيل طائرة عراقية من طراز «ميج ـ ٢١»، احدث ما انتجته مصانع المقاتلات السوفياتية آنذاك وبدأت تتدفق علي ترسانات السلاح العربية فى ذروة التعاون السوفياتى ـ العربى وصفقات السلاح المفتوحة بين موسكو وبغداد ودمشق والقاهرة.. وكان هبوط الطائرة العراقية وبمحض اختيار قائدها قمة نجاح احدي اشهر العمليات السرية التى قامت بها المخابرات الاسرائيلية (الموساد) فى مسلسل عملياتها المستعرة لاختراق ادق جبهات الجيوش العربية، ومعرفة الحديث من اسلحتها، ودراسة تفاصيل تكنولوجيا المقاتلات التى اخرجتها مصانع السلاح السوفياتية ووضعتها بين الايدى العربية.

ولم يمض عام علي ذلك الحادث حتي كانت القوات الجوية الاسرائيلية قد استوعبت اصول التعامل مع الاشباح الرابضة فى القواعد الجوية المصرية والسورية والاردنية وتوجيه ضربتها المفاجئة القاضية لها خلال ساعات صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧. علي ان الخيوط الاولي لعملية الحصول علي احدث المقاتلات الجوية من ترسانات السلاح العربية لم تبدأ فى السادس عشر من اغسطس عام ١٩٦٦ وحيازة السلاح الجوى

الاسرائيلى علي طائرة «الميج - ٢١» بقدر ما سبقها اعدد طويل طرحت خيوطه لاول مرة فى منتصف عام ١٩٦٣ وفى اجتماع سرى ضم عيزرا وايزمان قائد القوات الجوية الاسرائيلية - آنذاك - مع مائير آميت الذى كان قد حل محل مدير المخابرات الاسرائيلية (الموساد) أير هريل حديثاً.

فى هذا الاجتماع عرض وايزمان رغبته فى الحصول علي احدث المعلومات عن نماذج تلك المقاتلات الجوية التى تضمنتها صفقات السلاح السوفياتية مع حكومات مصر وسورية والعراق، واهداء القوات الجوية لتلك البلدان العربية الثلاثة آخر ما اخرجته خطوط الانتاج من مصانع الطائرات السوفياتية «ميج - ٢١» التى كانت موسكو قد بدأت انتاجها فى عام ١٩٥٩. وبدأت تدفع بمجموعات منها الي بعض البلدان العربية الصديقة، ولتشكل بها خطوط واسراب الدفاع الجوى ضد اى اعتداء اسرائيلى، او هجوم عربى فى المستقبل علي اسرائيل.

كان عيزرا وايزمان يدرك جيداً اهمية توفير المعلومات المبكرة عن اسرار السلاح الجوى الجديد الذى بدأ يتسرب الي ايدى القوات العربية، كما لم يخالجه الشك فى قدرة جهاز المخابرات الاسرائيلية الحصول علي المعلومات المطلوبة وبقليل من الجهد والمعلومات النظرية التى يمكن توفرها فى مراكز الدراسات الاستراتيجية، والمطبوعات المتخصصة فى نشر التحقيقات عن احدث الطائرات والمعدات التى تنتجها مصانع السلاح الغربية والشرقية..

ولكن الذى لم يساوره التفكير فيه هو امكانية حيازة «طائرة ميج - ٢١» بسهولة، خاصة وان مثل تلك العمليات فضلاً عن انها نادرة الحدوث

الا انها من العمليات المستحيلة التى تفوق قدرات جهاز المخابرات الاسرائيلية. فقد كانت «الموساد» حاولت من قبل تحقيق ذلك واخفقت محاولاتها بعد ان جندت عميل لها من داخل الساحة المصرية فى مطلع الستينات وكان يدعي «جان توماس»، ارمنى متمصر تم تجنيده خلال احدي رحلاته الي المانيا الغربية ـ آنذاك ـ بعد سنوات قليلة من ثورة يوليو عام ١٩٥٢.

فى تلك السنوات نشطت المخابرات الاسرائيلية فى العواصم الغربية تسعي فى التقاط وتجنيد العملاء الجدد واعادة زراعتهم داخل العواصم العربية حيث نجحت شبكات المخابرات الاسرائيلية فى الخارج والتى كان يقودها فى اوروبا «جو راعنان» ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى اتخد من المانيا الغربية مقراً لادارة انشطته الموجهة ضد البلدان العربية.

وفى سلسلة من اللقاءات التى تمت بين الارمنى المتمصر «جان توماس» (توماسيان) ومجموعة اخري من المتمصرين احكم تجنيد اعضاء الشبكة الجديدة واعادة زراعتها داخل مصر بهدف جمع المعلومات لاحدي المنظمات الغربية الامر الذى افتعلته المخابرات الاسرائيلية ستاراً لتغطية انشطة عملائها فى القاهرة وابعاد شكوكهم عن علاقة نشاطهم بالمخابرات الاسرائيلية.

وكان الطعم الذى اغري به الضابط الاسرائيلى «جو راعنان» عملاءه المتمصرين هو استعداده لتقديم مليون دولار (وكان مبلغاً لا يستهان به فى تلك الفترة) للطيار المصرى الذى يتمكن من الاستيلاء علي طائرة «ميج ـ ٢١» والهبوط بها فى احدي القواعد الجوية الاسرائيلية. وحمل جان توماس

ورفاقه الآخرين ذلك العرض المغرى، سعياً للعثور علي فريستهم بين ضباط القوات الجوية المصرية.

وبعد فترة قصيرة ابلغ جان توماس رؤساءه الاسرائيليين بأنه قد اوشك علي تحقيق الهدف، والعثور علي الطيار المصرى (المسيحى) «اديب حنا»، الذى كان احد طلائع الطيارين الذين استكملوا تدريباتهم علي طائرات «الميج ـ ٢١»، وانه اصبح قاب قوسين من تنفيذ الخطة التى اتفق عليها معه للطيران بها الي اسرائيل.

غير ان «اديب حنا» بدلاً من الاقلاع بطائرته الي احد المطارات الاسرائيلية، قام بابلاغ المخابرات المصرية بتفاصيل خطة تآمر المخابرات الاسرائيلية وعملائها داخل مصر، حيث القى القبض علي الارمنى المتمصر رئيس الشبكة الاسرائيلية وزملائه، ومن بينهم ابيه الذى كان قد صور فيلماً كاملاً للقاعدة الجوية التى سينطلق منها الطيار «اديب حنا» تمهيداً لتهريبه خارج مصر، وقدم اعضاء الشبكة الاسرائيلية وأحد العاملين فى وزارة الحربية المصرية الي المحاكمة السرية التى اصدرت حكمها باعدام جان توماس واثنين آخرين ونفذ فيهم الحكم فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٢. فيما صدرت احكام أخري بالاشغال الشاقة المؤبدة علي بقية اعضاء الشبكة. وتم احباط اول عملية للمخابرات الاسرائيلية للحصول علي طائرة سوفياتية من طراز «ميج ـ ٢١» ومن داخل القواعد الجوية المصرية. ولم تهدأ المخابرات الاسرائيلية او تكف عن محاولاتها لتحقيق هدف الاستيلاء علي احدي طائرات «ميج ـ ٢١» فقد عاودت المحاولة مع اثنين من الطيارين العراقيين، غير انها عندما ساورتها الشكوك فى امكانية

نجاحها بعد الاتصال باحدهما الذى كان يتلقي تدريباً قصيراً فى الولايات المتحدة الامريكية، وآخر داخل بغداد نفسها اغلقت ملف المحاولة، ووجهت الي الطيارين العراقيين تهديداً مشدداً بالتزام الصمت تجنباً لمصير تعس قد ينتهيا اليه اذ ما ابلغا السلطات العراقية بمحاولات تجنيدهما.

وجاءت المحاولة الاسرائيلية الثالثة فى نهاية عام ١٩٦٤ عندما سعي تاجر يهودى عراقى فى الستين من عمره يدعي «يوسف»، كان علي صلة بالشبكات اليهودية العراقية السرية التى تعمل علي تهريب اليهود خارج العراق، بالاتصال بعملاء المخابرات الاسرائيلية فى طهران، وعرض استعداده للتعاون معهم فى عملياته داخل العراق. ووجدت المخابرات الاسرائيلية من تاجر السجاد اليهودى العراقى «يوسف» وعشيقته العراقية صيداً ثميناً بعد ان علموا ان شقيقتها (اليهودية) متزوجة من نائب قائد اسراب «الميج ـ ٢١» العراقية، المسيحى الكاثوليكى «منير روفا». وعن طريق «يوسف» وخلال عدة رحلات قام بها الي عدة عواصم غربية علمت المخابرات الاسرائيلية ان «الطيار منير روفا» قد تم ترفيعه الي منصب قائد اسراب طائرات «الميج ـ ٢١» المتمركزة فى احدي القواعد الجوية بالقرب من مدينة كركوك، وانه يقوم بادارة عمليات القمع الجوى ضد المتمردين الاكراد من الشمال. ولان «منير روفا» مسيحى كاثوليكى، ورغم منصبه العسكرى الا ان شكوك السلطات العراقية لم تكن تسمح له بتزويد طائراته سوي بكميات محدودة من الوقود تكفى الطيران والتحليق واداء المهام فى الدوائر المحدودة التى كلف بها الامر الذى كان مثاراً لاستيائه الدائم وعاملاً من عوامل وقوعه تحت اغراء عشيق شقيقة زوجته

«يوسف» وابداء استعداده وحماسه للطيران الي اسرائيل اذا سنحت له الفرصة. وهنا اسرعت المخابرات الاسرائيلية بابلاغ تاجر السجاد «يوسف» بضرورة استدعاء الطيار العراقى «منير روفا» الي احدي العواصم الاوروبية الغربية للاتفاق معه علي تفاصيل خطة الهرب بطائرته الـ «ميج - ٢١» ووضع اللمسات الضرورية لانجاح المهمة.

وبالفعل سافر منير روفا الي روما بصحبة يوسف، تحت ستار رحلة سياحية عادية منحا علي ضوئها تأشيرة الخروج من بغداد. وفى احدي غرف فندق بالعاصمة الايطالية تم لقاء بين ممثل جهاز المخابرات الاسرائيلية وكل من يوسف ومنير روفا، فى الوقت الذى كان مائير آميت مدير جهاز المخابرات الاسرائيلية - (الموساد) فى غرفة مجاورة يراقب ويستمع الي تفاصيل الاتفاق السرى، والشروط التى عرضها «منير روفا» واهمية تحقيق رغبته فى تهريب والديه وزوجته واطفاله وبعض الاقارب الآخرين خارج العراق وضمانة سلامتهم، وشرط الحصول علي مليون دولار مقابل هبوطه بطائرة «الميج - ٢١» فى احدي القواعد الجوية الاسرائيلية.

انتهي اللقاء السرى بين ممثل المخابرات ألاسرائيلية والعميلين العراقيين بالموافقة علي جميع الشروط المطروحة، وعاد يوسف ومنير روفا الي بغداد، فى الوقت الذى تسلل اليها عملاء آخرون من «الموساد» الي داخل العراق لغرض رقابة صارمة علي العميلين وبدأ تنفيذ عملية تهريب عائلة واقارب صيدهم الثمين خارج البلاد واحداً بعد الآخر تحت اسباب وهمية منها العلاج والسياحة فى اوروبا.

الاكثر اثارة ان «منير روفا» نفسه دعى مرة أخري الي الخارج، وكانت هذه المرة زيارة اسرائيل للاطلاع عملياً علي ارض المطار وممرات القاعدة التى ستشهد هبوطه بطائرته عليها. وحتي تتم هذه الزيارة باحكام طارت سائحة امريكية ثرية من باريس الي بغداد. وهناك التقت مع منير روفا حيث تظاهرت بالوقوع فى حبه واصرارها علي اصطحابه فى رحلة غرامية الي باريس، ولم يتردد «منير». وطار اثنان من عشاق المخابرات الاسرائيلية من بغداد فى رحلة قصيرة لم تستغرق فى باريس عدة ساعات، طارا منها بوثائق سفر مزورة الي تل ابيب، لتحمل احدي السيارات «منير روفا» الي احد كبار مكاتب المسؤولين فى جهاز المخابرات الاسرائيلية (الموساد) ولقاء قائد القوات الجوية الاسرائيلية آنذاك الجنرال موردخاى هود الذى قدم ضماناته الشخصية للطيار العراقى «منير روفا» بنجاح الخطة كاملة، وانتظار المليون دولار فى حسابه باحد البنوك الاسرائيلية كى يتسلمها عقب وصوله مباشرة الي اسرائيل بطائرته «الميج - ٢١» وبعد عودة «منير» الي بغداد تصادف صدور قرار بنقله لتولى منصب قائد قاعدة الرشيد الجوية بالقرب من بغداد، والغاء القيود المفروضة علي تموين الطائرات وصلاحياته التى تتيح له الطيران لمسافات طويلة تصل الي ٩٠٠ كيلومتر. وهى المسافة الكافية التى تصل به الي اسرائيل اذا شاء.

فى منتصف شهر اغسطس عام ١٩٦٦ وفى صباح السادس عشر منه، ابلغ منير روفا المخابرات الاسرائيلية بانه علي وشك الاقلاع بطائرته، بعد حوالي الساعة والنصف. سجلت اجهزة الرادار الاردنية فى الشمال اختراق احدي الطائرات للاجواء الاردنية، وأسرع المسؤولون الاردنيون بالاتصال

بقيادة القوات الجوية السورية التى افادت بان الطائرة ربما تكون احدي طائراتهم القاذفة خلال عمليات التدريب التى يقوم بها الطيارون السوريون.

بعد عدة ساعات كان «منير روفا» يعقد مؤتمراً صحافياً فى احدي القواعد الجوية الاسرائيلية، ويصف تلك اللحظات التى بدأت طائرته تخترق الاجواء الاسرائيلية قبل هبوطه الي القاعدة الجوية، وكيف اقتربت منه طائرتا ميراج اسرائيلية قادتاه الي ممر الهبوط مع اداء التحية ببعض الحركات فى الفضاء..

وفى ذلك الصباح نفسه الذى اقلع فيه منير روفا بطائرته «الميج ـ ٢١» من قاعدة الرشيد قرب بغداد كان عملاء الموساد داخل العاصمة العراقية قد استأجروا شاحنتين كبيرتين مغلقتين، حشدوا داخلهما بقية اقارب «منير» واتجهوا بهم الي الحدود العراقية ـ الايرانية حيث تمكنوا وعن طريق رشوة الحراس من عبور الشاحنتين الي الاراضى الايرانية. وهناك كانت طائرة هليكوبتر فى الانتظار حيث استقلها الاقارب وعملاء الموساد الي احدي القواعد الجوية ليستقلوا طائرة اقلعت بهم علي الفور الي اسرائيل.

بعد عامين من انجاز تلك الرحلة المثيرة لواحدة من عمليات جهاز المخابرات الاسرائيلية بنجاح والاستيلاء علي طائرة «ميج ـ ٢١» وبقيادة الطيار العراقى العميل منير روفا.. ظهرت الطائرة نفسها فى مقدمة العرض الجوى لاسراب القوات الجوية الاسرائيلية فى احتفالات مايو (ايار) عام ١٩٦٨.



طائرة ميج عراقية قدمت هدية للمخابرات الاسرائيلية

الورقـــة التاسعة

حسناء غامضة فى نوادى ستوكهولم الليلية

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) حرصت الاطراف المتحاربة الالمانية والحليفة على الابقاء والحافظ على حياد العاصمتين السويدية ستوكهولم والبرتغالية ليشبونة ، وابعاد كل منهما عن مخاطر الدمار أو القصف الجوى . . أو حتى التفكير فى احتلالهما ، لأنه وبكل بساطة كانت العاصمتان محتلتين بالفعل من جيوش العملاء السريين لأجهزة المخابرات التابعة للدول المتحاربة ، بالاضافة إلى نشاط كبار دبلوماسييها ورجال الاعمال وتجار السلاح والباحثين عن مواد الامداد والتموين للجيوش النازية والقوات الحليفة .

كما كانت الاتصالات اليومية مع السويد امرا حيويا ، يحرص على تدعيمها المسؤولون السويديون بعد ان تحولت بلادهم إلى أهم مراكز التعامل والتجارة الخارجية مع جميع الاطراف . ولم يكن مثيرا للدهشة والاستغراب مشاهدة الوفودة الالمانية التى لا يتقطع تدفقها يوميا على وزارات الخارجية والتجارة والصناعة وحتى وزارة الشؤون الاجتماعية بنفس النشاط الذى كان يمارسه ممثلو الجمعيات والهيئات البريطانية فى

الحفاظ على خطوط الاتصالات البريدية مع اسرى الحرب من جنود القوات الحليفة فى معسكرات الاعتقال النازية ، وكذلك بحثا عن الطيارين الذين كان يتم اسقاط طائـراتهم ، ويفلحون فى التسلل أو الوصول إلى الاراضى السويدية والافلات من الوقوع فى اسر القوات النازية . . وانتظار ترحيلهـم إلى بريطانيا والعودة إلى الاشتراك فى المعارك الجوية مرة اخرى .

الاكثر من ذلك ان البريطانيين كانوا يعتمدون على مراكز الصناعة الحربية السويدية فى الحصول على ما ينقصهم من المعدات والمكائن وقطع الغيار التى كانت تستهلك بكثافة وتعجز مصنعهم عن الوفاء بسرعة انتاج البدائل فى السنوات الاولى من الحرب التى بلغت فيها المعارك الجوية والبرية ذروتها فى نفس الوقت الذى كان فيه الالمان ايضا يتنافسون فى الحصول على حاجتهم من منتجات المصانع الحربية السويدية وابرام العقود المفتوحة وبأى ثمن مع المسؤولين عنها .

وفى عام ١٩٤٣ كانت العاصمة السويدية ستوكهوم قد اصبحت المعقل الوحيد فى شمال اوروبا ، التى لا تزال غارقة فى بحور الضوء وتفتح ابواب نواديها الليلية ومطاعمها ومسارحها لاستقبال تدفق لألاف من السياح ورجال الاعمال الذين كانوا فى الواقع ستارا يختفى خلفه العملاء والجواسيس وأمهر رجال المخابرات النازية والبريطانية على حد سواء .

فى هذا العام ظهرت فجأة فى تلك المرابع الليلية للعاصمة السويدية ستوكهولم امرأة حسناء فى حوالى الثلاثين من عمرها ، تفيض حيوية وتمتلك من عوامل الاغراء الكثير ، بشعرها الاحمر وعينيها الزرقاوين الصافتين ، وجسدها الممشوق الذى ادارت به رؤوس العشرات من كبار

الدبلوماسيين ، ورجال الاعمال الذين عرفوها باسم «جين هورنى» دون الاهتمام باصولها الحقيقية سواء كانت مواطنة سويدية كما كانت تزعم ، أو بريطانية من مواليد احدى المدن الداخلية فى جنوب انجلترا كما كان يتهامس عن اصلها المتطلعون إلى معرفتها والحظوة بصحبتها يوما ما .

وان ظلت حقيقتها . وجنسيتها الاصلية سرا لم يستطع الوصول إلى معرفته أو الكشف عنه أى من الخبراء والجواسيس المهرة الذين كانوا يحومون حولها بلا انقطاع .

وعقب مضى اسابيع قليلة على ظهورها فى النوادى الليلية فى العاصمة السويدية ستوكهولم تحولت «جين هورنى» إلى اشبه بجوهرة التاج الذى يتطلع الكثيرون إلى انتزاعه والاستحواذ عليه وعلى صحبتها وبأى ثمن . كما لم تتدد «جين هورنى» عن الاستجابة لمحاولات الكثيرين منهم ، واصبحت تشاهد فى صحبة كبار الدبلوماسيين الاجانب ، أو خبراء أجهزة المخابرات المعروفين فى العاصمة السويدية وبغض النضر عن جنسياتهم الالمانية أو البريطانية أو الامريكية بين أكثر من ممثلى أجهزة تجسس اثنتى عشرة دولة يتنافسون فى ادارة انشطتهم فى ساحات ستوكهولم المفتوحة ومرابعها الليلية فى تلك الفترة .

وايا كانت حقيقة جنسية «جين هورنى» المجهولة ، أو اللعبة التى تمارسها فى النوادى الليلية فى مدينة ستوكهولم فى تلك الفترة ، فقد كانت الحقيقة واللعبة من اخطر الحقائق والالعاب التى تمت ممارستها فى ذروة سنوات الحرب العالمية وانطوت صفحاتها سريعا ، وظلت اوراقاً وسجلات

مجهولة فى ملفات المخاريات الالمانية والسويدية و . . البريطانية حتى الآن .

فقد كان البريطانيون وعملاء فى ستوكهولم على قناعة ومنذ الظهور المفاجئ للحسناء جين هورنى بانتمائها إلى عضوية جهاز المخابرات الالمانية «الابفيهر» وظل تعاملهم ومتابعتهم لها طوال حقبة ظهورها ونشاطها القصير على الساحة السويدية يسوده هذا الاعتقاد . كذلك كان الاعتقاد الراسخ لخبراء أجهزة المخابرات الدنماركية الذين لجأوا إلى السويد بعد سقوط بلادهم فى قبضة الاحتلال النازى منذ عام ١٩٤٠ . والاهم هو اعتقاد المخابرات الالمانية وعملائها فى العاصمة السويدية بأنها ليست سوى عميلة ماهرة وحسناء من الحسناوات اللاتى تستخدمهن أجهزة المخابرات البريطانية فى ساحات العواصم الاوربية ـ القليلة ـ المحايدة فى جمع المعلومات والقيام بأنشطة سرية تحت ستار اللهو وادارة رؤوس الرجال فى المرابع الليلية .

غير ان ابرز الشائعات التى ترددت عنها واصبحت حديث الاوساط الدبلوماسية الغربية فى ستوكهولم اكدت وبما يشبه الحقائق انها عميلة مزدوجة تقوم بدور كبير فى تسليم زعماء المقاومة الدنماركية الهاربين إلى ايدى السلطات الالمانية خاصة بعد ان عرف عنها انها ومنذ صيف عام ١٩٤٣ قد اصبحت عشيقة لرجل الاعمال الالمانى هورست جيلبيرت (٥٤ عاما) والمقيم فى الدنمارك ليشرف على عمله فى ادارة مكتب التلغراف الاسكنديناف ، رغم أنه فى الحقيقة كان يعمل فى جهاز المخابرات الالمانية «الابفيهر» برتبة ميجور و يشغل منصب مدير «الدائرة السادسة فى

هذا الجهاز، المختص بجمع ادق التفاصيل والمعلومات العسكرية والوثائق السرية عن جيوش قوات الحلفاء ، ومكافحة انشطة جواسيسها وعملائها فى ساحات شاسعة من البلدان الاوروبية التى سقطت تحت مظلات الاحتلال النازى .

ومع حلول خريف عام ١٩٤٣ ازدادت الرحلات التى كانت تقوم بها الحسناء ذات الشعر الاحمر و العينين الزرقاوين الصافيتين والقوام الممشوق ، جين هورنى بين سنوكهولم وكوبنهاجن بحجة لقاء عشيقها هورست جيلبيرت المقيم فى العاصمة الدنماركية .

غير ان المثير ، كان فى الوسيلة التى تستخدمها جين هورنى فى رحلاتها تلك ، والتى لم تكن تستخدم فيها وسائل المواصلات الطبيعية المفتوحة بين البلدين ، ولكنها كانت تلجأ إلى استخدام وسائل المواصلات السرية التى انشأها زعماء المقاومة الدنماركية لتهريب السلاح ، واستقبال اللاجئين بين مدينتى كاتيجات وسكاجيراك ، الامر الذى كان يطرح المزيد من علامات الاستفهام والغموض حول العلاقات التى ربطتها بزعماء المقاومة الدنماركية ، وأجهزة المخابرات الالمانية ، وعملاء الجستابو المعروفين فى العاصمة السويدية ستوكهولم ، وكان احدهم يدعى «هوفمان» ويعرف عنه أنه المكلف بمكافحة انشطة جماعات المقاومة الدنماركية ومطاردتهم فى انحاء السويد وسد المنافذ عليهم ، وقطع شبكات الاتصال وبين عملائهم فى داخل الاراضى الدنماركية لتى تحتلها القوات النازية .

ومع مطلع عام ١٩٤٤ اتخذت حركة الجاسوسية الحسناء الغامضة «جين هورنى» منحى آخر مع تكرار زياراتها للعاصمة الالمانية والخروج منها إلى عدة عواصم اوروبية محتلة مزودة بوثائق مرور مزورة ، تعددت فيها جنسياتها والمعلومات المحدودة المدونة عنها وان حملت جميعها صورتها الشهيرة والمعروفة بها فى المرابع والنوادى الليلية فى ستوكهولم .

وعقب قيامها باحدى هذه الرحلات المتكررة إلى برلين وعودتها منها إلى العاصمة السويدية ، ترددت الشائعات فى الاوساط الدبلوماسية الغربية انها قامت بتهريب بعض المعلومات عن انشطة المخابرات العسكرية الالمانية إلى السلطات السويدية ، حيث قامت هذه بدورها فى تسليم معلومات التى حصلت عليها من جين هورنى إلى دوائر المخابرات الغربية وخاصة المخابرات البريطانية .

فجأة انتقل إلى العاصمة السويدية حديثا من لندن ، ملحق عسكرى شاب على درجة كبيرة من الوسامة فى شهر مارس (اذار) عام ١٩٤٤ ، وبدأ كغيره من الدبلوماسيين الغربيين الشبان فى التردد على النوادى الليلية فى ستوكهولم يقطع داخلها حدة الملل فى البقاء فى عاصمة مفتوحة تبدو كما لو كانت فى جزيرة معزولة عما يحيط بها من حصار مدمر للساحة الاوروبية بأجمعها . وبصورة مجهولة واسلوب محكم حدث ان وقعت الحسناء ذات الشعر الاحمر جين هورنى فى هوى الملحق العسكرى البريطانى الشاب (والمجهول الاسم حتى اليوم) فقد كان يدعى حينا «بيل» وحيناً آخر «رون» وان كانت تناديه امام اصدقائها الكثيرين «تيد» ولم اسمه

فى الحقيقة أى واحد من هذه الاسماء التى عرف بها أو رددتها جين هورنى امام الاصدقاء .

واصبح مشهد جين هورنى والملحق البريطانى الشاب واحدا من المشاهد المألوفة فى النوادى الليلية فى ستوكهولم طوال عدة اشهر لايفترقان فيها ، ويطرحان بظهورهما المتكرر صورة عاشقين متمين يثيران تعاطف ومودة كل من يلتقى بهما أكثر مما يثيران علامات الشك فى صدور عشرات الجواسيس والعملاء الذين يترددون على تلك النوادى الليلية فى ستوكهولم .

كما بدا واضحا ان الانثى السويدية الحسناء قد استكانت ، وخفت نشاطها المحموم وتعطشها إلى صحبة البارزين من الرجال بعد ان عثرت على فتاها البريطانى الوسيم القادم حديثا إلى ستوكهولم .

ولكن ـ فجأة ايضا ـ وبعد ما يقرب من الاشهر السبعة على تلك العلاقة الغرامية المحمومة التى جمعت بين سجين هورنى، والملحق البريطانى الوسيم ، قطع علاقته بها واختفى من النوادى الليلية ، بل من الساحة السويدية كلها بعد ان تلقى استدعاء عاجلا بالعودة إلى لندن .

ومع اختفائه ، طغى الذهول والكآبجة على عشيقته التى بدا انها لاتعرف سببا للاختفاء أو حقيقة عودته إلى بلاده إلا بعد فترة طويلة اختفت هى ايضا خلالها من الظهور فى النوادى الليلية ، واصبح واضحا ان العشيق الوسيم كانت قد دفعته المخابرات البريطانية إلى الساحة السويدية لجمع ادق التفاصيل والمعلومات عن الحسناء ذات الشعر الاحمر والعينين الزرقاوين الصافيتين والقوام الممشوق جين هورنى ، والايقاع بها

فى هواه . وعندما اتم مهمته المكلف بها عاد سريعا إلى بلاده كأمهر العملاء الذين يقومون بلمهام الخطرة وتحت عيون اشرس أجهزة المخابرات الالمانية وعملاء الجستابو وشباك الحسناوات من النساء عميلات أجهزتهم .

وعندما عادت جين هورنى مرة اخرى بعد الاختفاءعدة اسابيع عن نوادى ستوكهولم الليلية كانت شعلة الانوثة قد انطفأت فى عينيها وبدت كيانا مهزوما تحلق بعينيها فى مجهول بعيد لاتعرف اسراره أو القدرة على استخدام مواهبها السابقة فى تفسير اسطورة العشق التى جمعتها مع فتاها البريطانى ، الدبلوماسى الشاب الذى ظهر واختفى فجأة من حياتها .

بدت جين هورنى فى تلك الآونة من شتاء عام ١٩٤٣ ، اكثر ميلا لتوجيه اهتمامها بالبارزين من عملاء الالمان ورجال الجستابو المعروفين ، وفى محاولة لتطهير صدرها من مشاعر الحب الجارف الذى ربطها بالضابط البريطانى المجهول .

ولكن رجال المخابرات السويدية كانت قد ارادادت شكوكهم حول جين هورنى ونشاطها المثير لعلامات الاستفهام ، وعلاقاتها المتشعبة بالعديد من العملاء والجواسيس المعروفين ، خاصة بعد ان اكدت معلومات جماعات المقاومة الدنماركية التى كانت تتخذ من العاصمة السويدية ستوكهولم مقرا لها ان جين هورنى اصبحت اداة طيعة فى ايدى عملاء الابفيهر والجستابو للايقاع برجالهم والتجسس لحساب النازى فى الساحة السويدية .

ولم تتردد المخابرات السويدية فى لاسراع بالقاء القبض على جين هورنى واصطحابها إلى احد مراكز الاستجواب ، والتحقيق معها حول انشطتها المتشعبة فى بلادهم . وبعد ثلاث اسابيع من الاستجواب المكثف

مع الحسناء ذات الشعر الاحمر افرجت عنها السلطات السويدية صباح ١٣ أكتوبر عام ١٩٤٤ واخلاء ساحتها من أى شكوك أو اتهامات وجهت إليها بعد التأكد من انها لا تعدو ان تكون انثى تثير اهتمام الرجال وتبيع الهوى للقادرين على الاحتفاظ لها بذلك المستوى الباذخ من الحياة فى النوادى الليلية وتكاليفها الباهظة فى زمن الحرب . ولكن رغم هذه «البراءة» التى حصلت عليها جين هورنى من المخابرات والسلطات السويدية ظل كبار المسؤولين عن جماعات المقاومة الدنماركية فى ستوكهولم على قناعة بأنها جاسوسة ماهرة وعميلة مدربة حتى النخاع لحساب المخابرات الالمانية ، وانه يتوجب اقتلاعها بأى ثمن من الساحة السويدية وتكثيف عمليات متابعتها وفرض مظلة ثقيلة من عيون رجالهم على تحركتها مهما كانت طبيعية .

وفى صباح السادس عشر من يناير ١٩٤٥ وصلت احد فزق الاعدام التى تضم سبعة من رجال المقاومة الدنماركية إلى العاصمة السويدية ستوكهولم ومن عدة مناطق معقدة تحيطها اقصى اجراءات السرية ، ويهدف واحد هو الحصول على رأس ذات الشعر الاحمر التى سيطرت بنشاطها داخل مجتمع الجواسيس والعملاء الدبلوماسيين الاجانب ورجال الاعمال سنوات طويلة ، حانت لحظة القصاص منها وتنفيذ الحكم الصادر بحقها من قوى المقاومة الدنماركية . . باعدامها .

فى ذلك الصباح الباكر من شهر يناير عام ١٩٤٥ لم يكن صعبا على اثنين من اعضاء فرقة الاعدام الدنماركية العثور على مقر اقامة جين هورنى واقناعها بمزاعم - غير معروفة حتى الآن - اصطحابهما إلى محطة

السكك الحديدية المركزية فى ستوكهولم حيث استقلوا ثلاثتهم منها قطار قطار الليل إلى مدينة مالمو ، التى تم حجز عدة غرف متجاورة فى فندق «جراند هوتيل» بها .

فى مساء اليوم التالى شوهدت امرأة ذات شعر احمر تغادر الفندق بصحبة احد الرجال الدنماركيين ـ كما اعترف موظفو الفند فى ما بعد ـ كما شوهد زميله الآخر فى محطة قطارات سكك حديد مالمو يستعد للاقلاع بالقطار المتجه إلى العاصمة السويدية ستوكهولم ، فيما ظلت الغرف الثلاث المحجوزة والمدفوعة الثمن مقدما باسم جين هورنى وزميليها لمدة اربعة ايام ، عندما اكتشفت ادارة الفندق اختفاءهم منها دون المعتادة فى مثل هذه الفنادق الكبيرة .

والحقيقة المعروفة حتى الآن هى ان احد افراد المقاومة الدنماركية الذى وصل فى صحبة جين هورنى عند وصول ثلاثتهم إلى فندق جراند هوتيل ، كان هو نفسه الذى لوحظت مغادرته للفندق مع احدى الفتيات التى ارتدت نفس الملابس التى كانت ترتديها جين هورنى الحقيقية وتغطى رأسها بباروكة شعر حمراء مشابهة لرأس جين هورنى ، فى الوقت الذى كان فيه عناصر اخرى من رجال المقاومة الدنماركية يقومون بتهريبها من الابواب الخلفية للفندق والاختفاء بها فى مدينة مالمو إلى ان شوهدوا فى صباح ١٩ يناير ١٩٤٥ يستقلون قاربا بحريا يتجه نحو الشواطئ الدنماركية . وفى منتصف الطريق التقى القارب بأحد قوارب الصيد الدنماركية حيث تمت عملية الانتقال من القارب الاول اليه والانطلاق به فى عرض البحر دون ان يلحظ احد سوى بعض الصيادين الذين ادلوا

بأقوالهم فى ما بعد ووصفوا عملية الانتقال السريعة التى قام بها ثلاثة أو اربعة من الاشخاص بصحبة سيدة ذات شعر احمر قبل حلول المساء .

فى عتمة تلك الليلة (١٩ يناير ١٩٤٥) تمت عملية قتل الجاسوسة الحسناء ذات الشعر الاحمر والقاء جثتها فوق المياه التى بدأ يكسوها الجليد . فى نفس الوقت الذى كانت فيه الشرطة فى العاصمة السويدية قد ألقت القبض على احد افراد فرقة الاعدام الدنماركية وبدأت استجوابه حول اختفاء «جين هورنى» . وبعد عدة ايام من التحقيق اعترف خلالها المقبوض عليه باختطافها من قبل عناصر اخرى ، عاد فى نهاية التحقيق وانكر جميع اعترافاته السابقة وزعم وقوعه تحت ضغوط الشرطة السويدية التى لم تجد مفرا من الافراج عنه لضعف الأدلة الموجهة ضده . وفور مغادرة المعتقل اختفى من العاصمة ستوكهولم ومن السويد ، كما اختفى أى اثر لمجموعته مع اغلاق السلطات السويدية ملف امرأة غامضة نشطت فى النوادى الليلية فى ستوكهولم خلال الحرب وعرفت باسم جين هورنى . كما نفت المخابرات البريطانية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية معرفتها لجاسوسة فى الساحة السويدية لها هذا الاسم أو قصة الضابط البريطانى الوسيم الذى ربطته العلاقة الغرامية معها فى عام ١٩٤٤ .

كذلك نفى ضباط المخابرات الالمانية «الأبفيهر» الذى تم التحقيق معهم بعد الحرب العالمية الثانية وجود جاسوسة سويدية بين شبكات النساء العميلات لأجهزتهم خلال سنوات الحرب سواء فى ستوكهولم أو غيرها من العواصم الاوروبية التى كانت واقعة تحت لاحتلال النازى .

ورغم اغلاق ملفات جميع أجهزة المخابرات لأطراف الصراع المسلح

الذى دار فى الساحة الاوروبية طوال سنوات الحرب وانكار الجميع وجود امرأة ذات شعر احمر وعينين زرقاوين صافيتين وقوام ممشوق عرفتها النوادى الليلية فى ستوكهولم وعرفها معظم العملاء والجواسيس ورجال الاعمال الدبلوماسيين الذين عاشوا هذه الفترة فى السويد ، ظلت جين هورنى وطوال اكثر من نصف قرن لغزا غامضا ليس من المتوقع ازاحة النقاب عن حقيقتها أو حتى وجودها إلى الابد .



جين هورنى فى جميع صور الوثائق المزورة التى استعملتها زمن الحرب .



صورة زفاف تجمع بين جين هورنى مع زوجها هيرج كرانبيرج عام ١٩٤٢ .

الورقــة العاشرة

شهيد اسمه «موشى زكى رافع»

يقال ان اباه كان واحدا من ضباط المخابرات المصرية، ويضيف البعض انه كان ضابطا برتبة عالية فى الجيش، ولكن المؤكد ان الفتى نفسه كان شابا فى العشرين من عمره، وسيم المحيا، رائع الطلعة، سخت عليه الطبيعة فحبته قامة مديدة، وملامح جميلة، وعينين سوداوين واسعتين تحيط بهما اهداب كثيفة، وله انف دقيق وفم دائم الابتسام ينفرج عن اسنان منظومة بيضاء.

بدأت القصة فى صيف عام ١٩٦٧، وفى ذلك الوقت كانت ادارة الجاسوسية فى المخابرات المصرية تفكر فى ارسال عميل الى اسرائيل، عميل تتوفر فيه الصفات التى تؤهله للانخراط فى صفوف جيش الدفاع الاسرائيلى، على ان يؤمن تأمينا محكما حتى لا يتعرض لخطر السقوط او الاكتشاف. وان يبقى لفترة طويلة دون ان يكلف بأى واجب فى مجال جمع المعلومات، حتى اذا ما جاء الوقت المناسب، وعندما تشعر القاهرة بأنها فى مسيس الحاجة الى عونه، شرع فى العمل على الفور.

ولسبب مجهول وقع الاختيار على ذلك الفتى دون مقدمات.. وكان هو تواقا الى المغامرة، يرحب على عادة الشباب بالمهام الخطرة، وتدور فى

مخيلته قصص كثيرة عن الابطال المجهولين فى عالم الجاسوسية. كما كان يتعجل اليوم الذى تبدأ فيه رحلته.

وكانت لدى ادارة الجاسوسية فى عام ١٩٦٨ امكانيات توفرت نتيجة للاعمال التى قامت بها فى هذا الحقل. والاحتياجات التى كانت تتضح يوما بعد يوم منذ ان تولت امر عملائها الذين دفعت بهم الى داخل صفوف العدو الاسرائيلى بخدمة ومهارة. وكانت ثمرة هذه الامكانيات والتجارب والاخطاء قسم متخصص فى اغراض التدريب. وهو ما يعرف باسم «المدرسة» ولكن الحقيقة ان «المدرسة» ليست سوى جزء صغير من اجزائه العديدة.

وفى الوقت الحالى يقوم ذلك القسم على مساحة ثلاثة افدنة، ويشتمل على المدرسة والمقصف الملحق بها، هناك ايضا مكتبة وسينما، وساحة للالعاب الرياضية، ومستشفى يدعى «هداسا» ومبنى صغير للاساتذة، وجراج للسيارات، ونقطة للوقود الى جوارها مبنى للادارة. ويحيط بهذه المنشآت سور مرتفع من الحجر الابيض تتوسطه بوابة حديدية الى جوارها كشك للحراس يتبعون اجراءات امن مشددة فى قسم التدريب الذى يعرف باسم «٣ ج أ». اذ يحظر الدخول اليه حتى بالنسبة لبقية ضباط وموظفى المخابرات أنفسهم.

اما العاملون به فيتعرضون لاجراءات فحص يومية لا تمل من التكرار.

ويعتبر الرمز «٣ ج أ» بيان لمهمة ذلك القسم الحيوى، فرقم «٣» هو ترتيب القسم بين بقية الاقسام الاخرى، ويشكل حرف «ج» الحرف الاول من كلمة «جيروساليم» ومعناها «القدس». اما حرف «أ» فيتعلق بناحية

تنظيمية بحتة.

وتحتل «مدرسة الجواسيس» هذه مساحة كبيرة من القسم «٣ ج أ» وتضم اثنى عشر مبنى صغيرا على شكل الحرف اللاتينى «u» يقيم فيها الطلاب اقامة دائمة، ومبنى مكونا من ثلاثة طوابق للمحاضرات والشؤون التعليمية المختلفة. وأربعة متاجر متجاورة.

وفى قاعة السينما تعرض الافلام الاسرائيلية ثلاث مرات فى الاسبوع، اما الطرقات الداخلية فترتفع على جانبيها علامات المرور الاسرائيلية كما تحمل العربات نفس اللوحات المعدنية المستخدمة فى اسرائيل. ويحظر على الطلاب ان يتحدثوا اثناء فترة الدراسة بغير اللغة العبرية وحتى فى الاحاديث التليفونية الداخلية ينقطع الحديث بشكل مفاجئ اذا اخطأ المتكلم واستخدم لغة غير لغة الدراسة الشديدة التعقيد.

كذلك لا يقبل المقصف سوى العملة الاسرائيلية وسيلة للتعامل.

وفى البداية كان الطلاب يثقبون العملات الاسرائيلية ليصنعوا منها ميداليات للمفاتيح، الا انهم اقلعوا عن هذه العادة السيئة نهائيا عندما ادركوا ان ذلك سوف يؤدى الى جلب مزيد من العملات الاسرائيلية مما يضيف عبئا لا مبرر له الى الاعباء الثقيلة التى تتحملها ادارة «٣ ج أ».

وفى شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٦٨ ألحق بهذه الادارة طالب جديد يدعى «عمرو طلبة» بعد ان تم تسجيل اسمه فى مدرسة الجواسيس، وبدأ على الفور فى تلقى برنامج خاص للتدريب.

وفى مارس (آذار) عام ١٩٦٩ اجتاز «عمرو طلبة» مجموعة من الاختبارات المعقدة بنجاح يتناسب مع مواهبه، وتقرر ايفاده بأقصى سرعة

الى اسرائيل. وبينما كان ضباط ادارة الجاسوسية يفكرون في ساتر لاخفاء رجلهم ساق اليهم القدر حالة تعد نموذجية. اذ اخطروا بوفاة احد اليهود المصريين ويدعى «موسى زكى رافع» فى مدينة طنطا.

واثبتت التحريات التى اجراها رجال المخابرات ان موسي كان شابا فى مقتبل العمر، مفرط فى الوسامة، ذا قامة مديدة وملامح تعد آية فى الجمال البشرى. وانه ولد فى حارة اليهود القرائين، وان والده «زكى رافع» كان رجلا كليل البصر يتجر فى الاشياء القديمة والنفايات، منطويا علي نفسه يقضى النهار وجزءا من الليل فى ازقة القاهرة بحثا عن مشترياته. وفى وقت متأخر يعود الي حارة اليهود حيث ينصرف الي فرز حصيلته اليومية فى اكوام تملأ جنبات الغرفة التى كان يتخذها مسكنا. وبعد ذلك يستغرق فى النوم حتي الصباح الباكر ليعاود الكرة من جديد.

اما «موسي» فقد كان طفلا صغيرا عندما ضاق ذرعا بحياة ابيه، وبالغرفة التى تفوح من اركانها الروائح المتخلفة عن القدم والبلي. ولما كان قد نشأ محروما من حنان الام التى توفيت بعد عامين من ولادته، قرر الصبى ان يشق طريقه فى الحياة بمفرده وان يعتمد علي نفسه. وهكذا غادر حارة اليهود القرائين ذات صباح. دون ان يهتم احد من الجيران باختفائه. وان كانت النسوة قد اشفقن علي الطفل الذى كان يتمتع بقسط وافر من الوسامة والجمال.

وتأكد ان «موسي» قد تقلب فى اعمال ومهن وضيعة تتفق مع عمره ومهاراته المحدودة، وانتهي به المطاف فى مدينة «طنطا» حيث استقر فى

عمل يدوى فى مصنع للزيوت. والتحق بمدرسة ليلية تعلم فيها شيئا من المحاسبة، وبعد ذلك حصل علي وظيفة كاتب فى شركة لنقل البضائع كان مركزها الرئيسى فى شارع البحر (شارع الجيش الآن).

الا ان «موسي» لم يستمر فى عمله طويلا، اذ اصيب بمرض صدرى نجم فى ما يبدو عن سوء التغذية والحياة المرهقة التى عاناها. وقضي شهور مرضه متنقلا بين مستشفي المبرة التى تقع فى اقصي شارع الجيش وغرفته المتواضعة التى كانت خلف مستشفي علاج الحيوانات فى الطرف الآخر من المدينة وفى النهاية قضي نحبه فى هدوء.

وفى عام ١٩٥٨ بعد ان هجر «موسي» حارة اليهود القرائين بثلاثة اشهر توفى الاب الكهل هو الآخر. ولما كان الرجل بلا اقارب تولت الشرطة دفنه علي نفقة الدولة فى المقابر المخصصة لمن لا عائل لهم من الموتي المعدمين.

ونسجت شخصية «عمرو» الجديدة تبعا لهذه الوقائع وعلي نحو يتسم بالدقة. اذ كان عليه ان يدعى انه هاجر من حارة اليهود وعمل فى محل لبيع ادوات التطريز فى شارع الموسكى، ثم سافر الي طنطا وهناك عثر علي عمل فى مصانع للزيوت والصابون، وفى نفس الوقت التحق بمدرسة ليلية ونال شهادة متواضعة فى مسك الدفاتر، وبعد ذلك عاد الي القاهرة واشتغل بالسمسرة وبيع بوالص التأمين. واكتشف ذات يوم انه يشعر بحنين طاغ تجاه حارة اليهود. وعندما وصل الي هناك لم يجد احدا يعرف شيئا عن مصير أبيه.

وفى السادس من شهر ابريل (نيسان) ذهب عمرو طلبة الي حارة اليهود لكى يعثر بنفسه علي المنزل رقم ١٩ ، ولكى يتعرف علي البيئة التى يفرض طبقا للشخصية التى سيتقمصها انه ولد وتربي فيها. واستفسر عمرو من جيرانه عن دكان والده. ولكن لم يتلق اى اجابات قاطعة. وعرف ان مالك المنزل قد باعه الي مالك جديد فأرهق نفسه سعيا وراء عنوان الرجل الذى كان يملك منزلهم اثناء حياة ابيه وفى النهاية دله صاحب جراج قريب علي العنوان الصحيح بوضوح.

فى نفس اليوم اتخذ عمرو طريقه الي شارع بورسعيد بحثا عن محطة للوقود تملكها شركة مصر للبترول. وكان الرجل القائم بادارة هذه المحطة ويدعي الحاج «محمد احمد الشافعى» هو نفسه المالك السابق للمنزل رقم ١٩ فى حارة اليهود القرائين. ولكن الحاج لم يكن موجودا فى محطته، ورفض عمال تموين السيارات ان يجزموا بموعد حضوره. وبعد مزيد من الالحاح اخبره احد العمال بأن «الحاج» يقيم فى شقة بالطابق الخامس من عمارة بنزايون التى تقع فى شارع الازهر.

كان الحاج «محمد احمد الشافعى» وهو رجل بدين احمر الوجه سمين الوجنتين، قد فرغ لتوه من صلاة المغرب عندما وصل «عمرو» الي بيته، وسرعان ما تذكر الرجل الورع ذلك الطفل الذى كان يقيم مع ابيه فى بدروم منزله، ولكن الحديث اتخذ بعد ذلك مسارا حزينا، اذ افضي الرجل الي الشاب بنبأ وفاة ابيه. وكان عمرو بارعا فى اظهار حزنه لدرجة ان المضيف الطيب بكي تأثرا من اجله، وعرض عليه ان يقدم له اى مساعدة

الا ان عمرو الذى اصبح اسمه «موسي» كفكف دموعه وودع الحاج ثم مضي لشأنه.

وفى اليوم التالى استمات «موسي» سعيا وراء مخلفات والده، وافادته الشرطة بأنها لا تحتفظ بمثل هذه الاشياء لفترة طويلة، كما ان الاب الفقير لم يكن فى حوزته شيء ذو بال، باستثناء بطاقة شخصية وصور لطفل صغير وبضعة قروش.

وكان علي «موسي» ان يقضى ردحا من الزمن فى متاهات الروتين السقيمة اذا اراد ان يستعيد بضعة اوراق لا قيمة لها.

وفى منتصف شهر مايو (أيار) عام ١٩٦٩ كان «عمرو طلبة» قد اجتاز سلسلة من الاختبارات الاخيرة للتأكد من استيعابه الدقيق لشخصيته الجديدة، فكان يستيقظ فجأة فى اى وقت من الليل علي رنين جرس التليفون وما ان يرفع السماعة حتي يجد من يسأله عن دكان والدته او عنوان ابيه، واحيانا كان يوجه اليه المتحدث السؤال التالى: «هل انت عمرو؟».

وكانت الفترة ما بين السؤال والاجابة تسجل بدقة فى جهاز التسجيل المزود بآلة لقياس الوقت اوتوماتيكيا. وبعد هذه الاختبارات النهائية حصل موسي زكى رافع (الجديد) علي وثيقة سفر صحيحة وغادر مصر فى اليوم الاخير من مايو متوجها الي اثينا. ومن هناك بدأ رحلته الطويلة، وكانت كوالالمبور عاصمة المالايا هى محطته التالية.

وفى كوالالمبور حاول «موسي» ان يحصل علي عمل فى مصنع ناجح

«للبسكويت» تملكه شركة تدعي «تاى هونج» ولكن التوفيق جانبه بشكل سافر، فقضي شهرين كمتعطل يجد فى البحث عن عمل ملائم. وطوال هذين الشهرين كان يتردد بصفة منتظمة علي مقهي «هنج كى» وفى هذا المقهي تعرف علي احد الاسرائيليين. وكان هذا الاسرائيلى شخصا ودودا، دائم الكد، يعمل بحارا علي السفينة الاسرائيلية «شيقمة» ويدعي «تصاروق» واستطاع الاخير ان يغرى «موسي» بالهجرة الي اسرائيل.

وذات صباح من شهر اغسطس (آب) عام ١٩٦٩، وصل موسي الي حيفا ليسجل اسمه كمهاجر جديد ويستكشف الوطن، وتمكن من الحصول علي خطاب ممهور بخاتم وزارة الهجرة، وتوقيع من يدعي «هيلل اشكنازى» كما قيد اسمه فى مكتب المهاجرين التابع للوكالة اليهودية، وتجول فى انحاء اسرائيل لمدة اسبوعين، ثم رحل مرة اخري الي اثينا.

وبعد ستة اشهر عاد موسي - وتنطق بالعبرية موشيه - الي ميناء حيفا وهناك قدم اوراقه لموظف تفتيش الحدود والجمارك، وكذلك الخطاب الرسمى الذى حصل عليه من وزارة الهجرة الذى ينص بجلاء علي ان جميع الحقوق المعطاة للمهاجر الجديد مكفولة له، وبعد ذلك كان عليه ان ينهى الاجراءات الرسمية فى اروقة وزارة الهجرة ورغم ان هذه الاجراءات معقدة وتتسم بالدقة الا انه نجح فى اجتيازها.

وكان اسوأ من صادفه بين موظفى ادارة الهجرة، رجل يرتدى ثيابا انيقة، ذو شعر مصفف لامع، وغليون ثمين يتدلي بين شفتيه. وكان هذا الموظف دقيقا فأكثر من التحديق فى خطاب وزارة الهجرة، وبدا عليه انطباع بعدم سلامة الخطاب فأخذ فى تريد الاسئلة: ماذا جري؟ ألم تسجل

كمهاجر منذ ستة اشهر؟ وماذا تريد الآن؟؟ وكيف حصلت علي هذا الخطاب الرسمى؟؟

ولكن موشى وجد اجابة مقنعة ومختصرة علي شكوك الموظف الثرثار، اذ خلع خاتما ذهبيا ضخما كان يزين يده اليسري وهو يغمز بعينيه، فتهللت اسارير الموظف الانيق بصورة مفاجئة وبعد ان دس الخاتم فى درج مكتبه، وقع علي النماذج بنفس مطمئنة.

وكان علي «موشى» ان يتجول بصحبة نماذجه فى مكاتب وزارة الهجرة المفعمة بالضجيج، ولفت انتباهه حشد هائل من اللافتات المصفوفة علي الجدران «مرحباً بك هنا» و«يوجد لك مكان فى اسرائيل»، و«تستطيع ان تبدأ حياتك باطمئنان».

ولكن وجوه المهاجرين الواقفين تحت هذه اللافتات كانت تعكس واقعا مختلفا، بعدم الاكتراث، والشعور بالحنين والقلق بينما كانت ايديهم تمسك بأعداد لا حصر لها من النماذج زرقاء، وصفراء، وحمراء ليس الا لسبب ان الورق الابيض يتكلف غاليا. كما ان وزارة الهجرة لا تهتم كثيرا بقوة ابصار المهاجرين!

واستلزمت الاجراءات الروتينية ان يصعد «موشى» الي الطابق الثانى حيث المكتب المخصص لصرف قروض للمهاجرين الجدد تساعده علي ان يبدأ حياته فى اسرائيل. ومن المذهل ان الحكومة الاسرائيلية فى ذلك الوقت كانت تمنح المهاجر قرضا لا يتجاوز مائة وخمسين ليرة اسرائيلية، تسدد علي اقساط بواقع عشر ليرات شهريا.

وبهذا المبلغ الضئيل يتعين علي المهاجر ان يدبر شؤونه وان يحصل

علي مسكن، وفى هذه النقطة بالذات اكتشف «موشى» ان المسكن اللائق يتطلب رشوة لا تقل عن عشرة آلاف ليرة، تدفع للمسؤولين عن ترتيب اولويات المستحقين للمساكن الشعبية. وترددت الكلمات اليائسة بين الطابور الطويل الذى وقف امام موظفة شابة قصيرة حمراء الشعر. ولاحظ «موشى» ان السيدة التى كانت تقف امامه تميل شيئا فشيئا الي صدره بينما تتطلع الي وجهه من فوق كتفيها. وكان جمال الفتي الاخاذ قد جعله محط انظار النسوة والفتيات اللاتى تمنين لو ان الحياة فى «أرض الميعاد» تكتسب جانبا بهيجا بصحبة شاب بمثل هذه الوسامة.

وعندما وصل «موشى» الي مكتب الموظفة القصيرة فشلت فى كتابة اسمه مرتين، واخطأت فى كتابة البيانات الخاصة به رغم الحاسبات الالكترونية المستخدمة، وبعد عدة دورات عديدة لجمع التوقيعات من الموظفين وقف «موشى» امام صراف بدين متذمر ليسلمه القرض الذى بدأ كحلم من احلام اليقظة.

وقضي «موشى» شهرا فى مدرسة لتعليم اللغة العبرية، وهناك تعلم ان يكون متواضعا. فقد كان زملاؤه خليطا عجيبا من البشر المتفاوتين الاعمار من كل انحاء الارض يتكلمون انجليزية عرجاء، وفرنسية لا تمت الي لغة اهل باريس مع كلمات عربية ويونانية وايطالية وعبرية.. فى حجرة صغيرة، رصت فيها مقاعد من الخشب الاجرب. وكان اتعس زملائه رجل من شيلى فى الخمسين من عمره.. كان الاستاذ يصر كل يوم عن ان يسأله: ـ لماذا ترغب فى تعلم اللغة العبرية وقد بلغت هذا العمر؟؟ وكان الرجل يعتبر السؤال جارحا. فلم يتعلم شيئا.

وبعد شهر من الدراسة، التى كان «موشى» آخر ما يحتاج اليه. رحل الي القدس بحثا عن عمل مناسب. وهناك لاحت له فرصة علي شكل وظيفة كتابية فى مستشفي اتنيم. وكان الفتي يقضى الليل فى ركن المطبخ علي مقعد من الصاج. واشفق عليه طبيب امريكى يدعي «مورتن فيكسبرت» فدعاه الي الاقامة فى غرفة ملحقة بجراج منزله الذى يقع فى شارع «احادهاعام» رقم ١٣ فى وسط ضاحية «سلبيا».

ووجد الطبيب الامريكى فى شخص «موشى» شابا معاونا مؤدبا كما كان مخلصا، فكان يصحبه فى الصباح الي المستشفي حيث يفترق عنه، وفى نهاية اليوم يمر عليه لكى يعودا معا. واكتشف «موشى» ان الطبيب الامريكى يختزن قدرا هائلا من السخط، اذ فرض عليه ان يقبل بعد خبرة اثنين وعشرين عاما فى مهنة اجر مبتدئ، وكان الرجل يشغل قبل هجرته الي اسرائيل منصب مدير قسم فى مستشفي «كونى ايلاند» وكان لديه منزل فى نيويورك باعه بخمسة وعشرين الف دولار ثم حصل علي اجازة - بدون مرتب - وجاء الي اسرائيل.

وكان الفتي سعيدا بالصداقة التى ربطت بينه وبين الدكتور المهذب، فكان يقبع بالقرب منه وهو يقرأ دون ان يتحرك، حتي اذا ما فرغ الدكتور من قراءاته التفت الي الفتي وأخذ يتجاذب معه اطراف الحديث. كما كان يغدق عليه المنح والمكافآت كلما سنحت الفرصة.

وفى مستشفي «اتنيم» كان لدي «موشى» حافز آخر علي الشعور بالبهجة يتمثل فى فتاة جميلة من ممرضات المستشفي. وكانت «حبيبة»

(وهذا اسمها) حسناء فى السابعة عشرة ذات جمال آسر وملامح اندلسية، حيث جمع الحب بين الفتي «المصرى» وفتاة «السابرا» الرقيقة الحال، وفى الليالى المقمرة كان الفتي يصحب معشوقته الي الضواحى ليبثها شوقه، وكانت هى تحتفظ بالفاكهة التى يقدمها لها المرضي وتدسها فى حقيبتها لكى تشارك حبيبها فى تذوقها.

وأبي القدر الا ان ينتزع «موشى» من هذا العالم الصغير الذى كان قانعا به فقد اتضح ان الدكتور «مورتن» سوف يرحل عن القدس. الامر الذى اثار حزن الفتي لدرجة لا يمكن تخيلها. ولم يتمكن من اقناع صديقه بالعدول عن عزمه، فقد سنحت فرصة اراد الرجل ان يجربها قبل ان يتخذ قراره النهائى بالعودة الي الولايات المتحدة، لم تكن هذه الفرصة سوي وظيفة مدير ادارة الخدمات الجماهيرية فى مستشفي متواضع فى اقصي الشمال فى مقابل اجر كبير والمنصب الذى بدا له مناسبا. وعندما حلت نهاية عام ١٩٧٠ اضطر «موشى» الي الرحيل هو الآخر قاصدا «تل ابيب». وهناك كانت وسامته كافية لاقناع سيدة اسرائيلية شمطاء تدعي «شوشانا بيير سولتز» لكى تدبر له وظيفة فى دار للنشر تملكها. وهكذا اصبح «موشى» كاتبا للحسابات فى دار «اوحانوت للنشر المحدودة» لقاء مرتب مقبول.

ولكن «شوشانا» المتصابية كانت فى حاجة الي عشيق اكثر من حاجتها الي كاتب حسابات. ولما كانت امرأة روسية من مواليد اوكرانيا فقد اتخذت اقصر الطرق الي هدفها. فدعته للاقامة فى شقتها وقد كانت الفترة التى اجبر فيها «موشى» علي الاقامة مع «شوشانا» اتعس فترة قدر لجاسوس ان

يتحملها ويعانى قسوتها. فقد كانت المرأة منفرة بقدر ما كانت شغوفة بممارسة الحب مع مخدومها. كما كان الفتي مجبرا علي اخفاء مشاعره نحوها وكان يضحك فى سريرته لمنظرها وهى تخطر فى غلالة النوم الرقيقة وعلي حد تعبيره كانت المرأة اشبه ببركان تتصاعد من فوهته ابخرة آسنة.

فى تلك الفترة ان اجبر فيها موشى علي الاقامة مع العجوز الشمطاء شوشانا ظهرت فى الافق عجوز متصابية اخري ولكنها كانت جميلة بالفعل وتدعي سوناتا فيرد عضوة الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) وزوجة الدكتور لينتال فيرد. وكانت قد شاهدت موشى ذات يوم وهو يدق علي الآلة الكاتبة عندما ذهبت لزيارة صديقتها فى دار نشر «اوحانوت» فأومأت له برأسها. وكان جوابه ابتسامة شاحبة من ركن فمه.

وعندما خرجت المرأة من مكتب صديقتها «شوشانا» اقتربت من الموظف الوسيم وانحنت فوقه الي ان لمس شعرها انفه وادعت انها تود ان تتأكد من درجة اجادته الكتابة، لان لديها شيئا تود ان تنسخه. وادرك موشى ان المرأة قد وقعت اسيرة لسحره.

وتكررت زيارات سوناتا للدار زاعمة انها تناقش شؤون لجنة التربية ورغم ان «شوشانا» كانت مقررة هذه اللجنة فى تل ابيب بالفعل فإنها تشككت فى السبب الكامن وراء زيارات «سوناتا» المتتابعة بشكل مفاجئ، وبغريزة انثي ولدت فى العقد الاخير من القرن الماضى، ادركت ان «موشى» هو هدف الزيارات، فاهتاجت بشكل جدى، واخيرا اكتشفت ان الموظف المخادع يتردد بانتظام علي شقة «سوناتا» فطردته من الدار بعد

شجار صاخب. كما اكتشف الدكتور «لينتال»، وهو رجل بخيل اجش الصوت يتناول قائمة حافلة من الادوية والمقويات، الصلة التى جمعت العاشقين علي اثر الفضيحة التى اثارتها «شوشانا» الجريحة. فطلب من زوجته ان تهجر تل ابيب وتعود الي الكيبوتز الذى كانا يقيمان فيه. ولكن سوناتا كانت امرأة المانية من مواليد بافاريا تتميز بعاطفة غلابة واعتزاز بالنفس، فرفضت بشدة، بل طلبت اسقاط عضوية الكنيست عنها. ثم اتخذت خطوة اكثر جرأة اذ اصطحبت عشيقها الي الاماكن العامة والحفلات التى يؤمها علية القوم من دون اى احساس بالجرم او الخجل.

ولم تدم السعادة للعاشقين طويلا، فقد دعى «موشى» لتأدية ضريبة الدم، وكان هو مطيعا فارتضي ان يصبح جنديا فى جيش الدفاع الاسرائيلى واكتفي بأن طلب من عشيقته ان تتوسط له لدي اصدقائها ذوى النفوذ حتي لا يرسله الجيش الي الاماكن النائية حيث الاشتباكات والالغام والمدفعية.. كى يبقي بجوارها.

واتصلت «سوناتا» اللعوب بصديق لها يدعي «آل» وكان هذا رجلا واسع النفوذ، كما كان يقدر مثل هذه المسائل، اذ ان ابنه هو شخصيا كان مجندا فى الجيش وسبق له ان توسط لكى يستبقيه الي جواره لذلك وجد من الطبيعى التدخل لكى يبقى «موشى» فى تل ابيب.

وبفضل «آل» الحق الفتي بعمل مريح لا تكتنفه اية مخاطر، وكان ذلك فى ادارة البريد العسكرية حيث برع المجند المثقف فى عمله داخل قسم الرقابة البريدية، وكان هذا العمل هو الحلم الذى لم يكن يحلم به قط. ولما كان «موشى» بلا عمل مدنى، رحب بعد انقضاء فترة التجنيد الاجبارية

بالبقاء فى صفوف الجيش، وفى الوقت نفسه بدأت ادارة الجاسوسية فى القاهرة الاتصال بجاسوسها الذى استقر له المقام فى جيش العدو.

وحدث فى وقت ما عام ١٩٧٢ ان تلقي موشى علبة صغيرة من الجلد، ولم تكن هذه العلبة تحتوى علي اى شيء مخيف. مجرد جهاز لاسلكى دقيق ومفكك الي قطع متناهية فى الصغر. وقد وضعت كل قطعة داخل اداة عصرية من ادوات الحلاقة. وكان علي موشى المدرب جيدا ان يعيد تركيب جهازه وان يستخدم عدسة مكبرة فى قراءة الشفرة السرية التى كتبت علي شفرات الحلاقة.

وبدأ الجاسوس المصرى فى العمل تحت «الرمز ١٠٠١» وكانت حروف تعارفه عبارة عن ثلاثة احرف متتالية قبل بدء الرسالة وثلاثة احرف عكسية بعد انتهائها.

وبمجرد ان انتظمت الصلة بين «موشى» ورؤسائه، اصدر اليه هؤلاء امرا غريبا، ان يثير حنق عشيقته بأقصي ما يستطيع من جهد وكما هى عادتهم دائما لم يقدموا اليه اى مبرر منطقى للامر المتسم بالقسوة والذى بدا وكأنه الحماقة بعينها.

ولم يثر موشى حنق سوناثا، بل اثار حقدها، فقد عادت المرأة ذات ليلة الي مسكنها لتجد فتاها الذى كان يزعم انه سيقضى الليلة فى ثكنة عسكرية غارقا فى فراشها مع فتاة طائشة متكورة الارداف تعمل فى محل لبيع مستحضرات التجميل فى شارع «ديزنخوف».

وكان مشهد الفتي العارى بشعره المشوش، وآثار احمر الشفاه التى غطت وجنتيه وشابت بياض اسنانه ايضا، كافيا لنشوب عراك محتدم تلقي

فى بدايته صفعة مدوية من يد «سوناتا» الخشنة وكان رده عنيفا الي اقصي حد، اذ دفعها بقوة فتدحرجت علي السلالم واصيبت برضوض مؤلمة.

وبينما عضوة الكنيست الموقرة تصرخ من الاوجاع التى لحقت بعظامها، ارتدي «موشى» ثيابه وجمع حاجياته الشخصية ثم اصطحب عشيقته الجديدة الي الخارج دون ان يهتم باغلاق الباب وراءه، او حتي ان يلقى نظرة علي حبيبته السابقة التى كانت تشهق من خلال دموعها بنبرات مؤثرة.

ولجأت «سوناتا» الي الثأر بطريقة موضوعية، فاشتكت الي صديقها «آل» من سوء تصرفات ذلك الفتي الجاحد للجميل والتى بذلت من اجله اقصي الجهود لسعادته. وهكذا نقل «موشى» بشكل مفاجئ من ادارة البريد المركزية الي الجبهة رقيبا للبريد فى مركز العمليات الاسرائيلية المقام فى «أم مرجم» ومن هناك عاد الي ممارسة هوايته المحببة فى الاتصالات اللاسلكية.

وكان هذا الجاسوس النادر صاحب اكبر قسط من الفضل فى المعلومات التفصيلية التى حصلت عليها القاهرة عن جبهة القناة. وحداتها ومراكز قياداتها، واسماء ضباطها وجنودها، واماكن اسلحتهم، ومناطق تمركز مدرعاتها، ومدفعيتها.

وكانت ادارة الجاسوسية حريصة علي جاسوسها المثالى، فأمرته فى الساعة الثانية الا خمس دقائق بعد ظهر السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ بالتوجه الي المبني الخشبى الذى كانت تحتله النقطة الطبية فى موقع «ام مرجم» وكان هذا المبني مقاما علي مرتفع يبعد مسافة مائتى متر عن

غرفة العمليات التى كانت الهدف الاول لغارات الطيران المكثفة لحظة نشوب الحرب.

ولكن ممارسة التجسس فى جبهة ملتهبة ليست من الاعمال البهيجة. فقد ارسل موشى برقية عاجلة بنتائج التدمير الذى لحق بغرفة العمليات فى الثانية والنصف. ثم ارسل برقية اخري بانه امر هو وجماعة البريد بأن يستعدوا للانتقال الي المواقع الامامية. وكان ذلك فى الثالثة الا خمس عشرة دقيقة بالضبط، وردت ادارة الجاسوسية بأن طلبت منه تحديد الطريق الذى سيسلكه او الموقع الذى سوف يلحق به.

وفى الرابعة والنصف أفاد موشى بأن قافلته تتعرض لقصف عنيف من الطائرات وانهم فقدوا اربع عربات احترقت نهائيا الا انه لم يشر الي الموقع الذى كان فى طريقه اليه.

وعادت ادارة الجاسوسية الي مطلبها الذى كان ملحا، ورد «موشى» بأنه يتحرك فى اتجاه مدينة القنطرة شرق. وقال انه يري الي الشمال وحدة مدرعة تتحرك مثيرة عاصفة من الغبار نحو الجبهة ووعد بأن يرسل مزيدا من التفاصيل عنها بعد ان يصل الي مسافة قريبة منها. ولكن ادارة الجاسوسية لم تكن تريد من رجلها اية معلومات اضافية.

وعلي مسافة عشرة كيلومترات من نقطة تقع جنوب القنطرة شرق بخمسة عشر كيلومترا ارسل «موشى» برقيته الاخيرة، وكان راقدا علي الرمال بعد ان هجر العربة بسبب الغارات الجوية، واعطي صورة دقيقة، وعنيفة للجبهة التى تفجرت بالدمار واشتعلت بالنار، وكان صوت

الانفجارات يغطى علي مقاطع رسالته كما كان الجندى الشجاع «موشى» قد تخلي عن الشفرة منذ اللحظة الاولي لاشتعال القتال الامر الذى اعتبر خطأ فادحا من غرفة الاستماع. وكان عامل الاستقبال المختص يعتقد ان هذه الرسائل الغريبة مدسوسة بمعرفة الاسرائيليين ولكن رجال المخابرات كانوا يعرفون رجلهم.

واتصلت ادارة الجاسوسية بسرعة ملهوفة بالمنطقة «١١٠» التى يوجد بها ضابط مخابرات القنطرة غرب، وكان الاتصال فى الرابعة وسبع وثلاثين دقيقة بالضبط. كما كانت المهمة المطلوب تنفيذها عسيرة وصعبة التحقيق الا اذا تدخلت العناية الالهية بشكل مباشر. اذ كان علي ضابط المخابرات المشار اليه ان يبحث عن قافلة العربات التى كان «موشى» من بين الجنود الذين نقلوا بواسطتها، وان يتصل بقائد الجيش الثانى لكى يصدر اوامره بعدم اطلاق النار مهما كانت الظروف علي اى فرد من هؤلاء الجنود حتي لو اطلقوا هم النار فى اتجاه الجبهة المصرية.

وفى نفس الوقت اخذ عامل الارسال فى ادارة الجاسوسية ينادى علي «١٠٠١» وسيطر الوجوم علي جو الغرفة التى كانت تزدحم بالضباط والموظفين وشرائط الورق التى تتدافع من احشاء اجهزة المبرقات الاتوماتيكية عندما دخل مدير ادارة الجاسوسية بنفسه، وهو رجل اشيب نحيل ذو جبهة عريضة وعينين حادتين وملامح جادة توحى بالعزم. وبتؤدة شديدة مضي مدير ادارة الجاسوسية الي جهاز الارسال ثم اخذ ينادى بنفسه علي افضل رجاله، واكثرهم نفعا فى تلك اللحظات

«١٠٠١» .. «١٠٠١».. وتكرر النداء وارتفعت حدته من دون ان يسجل الجهاز اى اجابة وراح الرجل يعبث فى الازرار بعصبية تنم عن الغضب.

وفجأة القي الميكرفون من يده ونزع الاسلاك المثبتة فى ثقوب الجهاز واعاد فحصها مرات قبل ان يعيدها الي أماكنها، ثم راح ينادى علي الرقم ١٠٠١ عدة مرات. وفى النهاية نفد صبر الرجل الذى لم يحدث مطلقا ان نفد صبره بشكل علنى. فأزاح الجهاز بعيدا ثم نهض واقفا وعلي باب غرفته امر احد مساعديه بأن يعد له طائرة. وفى الجبهة كانت الصورة تحتوى علي قدر كبير من المخاطرة والجسارة اذ اندفعت عربة جيب داكنة من عربات المخابرات وسط ارتال الحشود من الدبابات والمدفعية وعربات التموين والاسعاف والعربات المكتظة بجنود المشاة المحتمين بأرديتهم الصوفية.

وكان رجل يجلس فى المقعد الأمامى بجوار السائق وهو يستحثه لكى يسرع. وكان لا بد من الحصول علي اذن من اللواء «سعد مأمون» قائد الجيش الثانى (آنذاك) قبل الدخول الي منطقة قتال الجيش. وعلي جسر مزدحم عثر ضابط المخابرات علي شاب يمكن ان يلتفت اليه.. ضابط صغير كان منهمكا فى اصلاح دبابته التى تعطلت بالقرب من رأس الجسر. وقفز ضابط المخابرات من العربة التى اقتربت لدرجة ان انفها اندس تحت مدفع الدبابة.

وضاقت عينا ملازم المدرعات وهو يشهد رجلا لا يحمل علامات الضباط يتحدث بلهجة آمرة: اين اجد اللواء «سعد مأمون»؟ ورد الضابط الصغير بتلعثم: «اللواء سعد مأمون؟ لقد شاهدته للمرة الاخيرة يعبر الجسر

الذى يقع الي شمالك مباشرة عليك ان تبحث عنه فى الجانب الآخر ذلك اذا كان ما زال حيا.. فقد رأيته يعبر الجسر وهو حاسر الرأس!.

واضطرت عربة المخابرات الي عبور الجسر دون اذن من احد، وفى المنطقة الواقعة جنوب القنطرة شرق عثر ضابط المخابرات علي شخص آخر لديه وقت للحديث مع الآخرين، جندى من الشرطة العسكرية يقف فى حراسة مفترق طرق بينما ارتفع قائم من الخشب عليه سهم اخضر. ومرة اخري سأل الضابط عن اللواء سعد مأمون؟ ولكن رجل الشرطة العسكرية سدد اليه نظرة كما لو كان قد صادف احد المجانين. ثم انهمك فى ارشاد مجموعة من المدرعات وصلت الي المكان.

وفى الخامسة الا عشر دقائق اكتشف الضابط انه يبذل جهودا فاشلة فقد حاول التقدم فى اتجاه الشرق. ولكن جندى الشرطة العسكرية حذره من التقدم بسبب الالغام. واخيرا سأله عن تلك الرغبة العارمة التى تعتريه لكى يتقدم شرقا الي الميدان. واجاب رجل المخابرات الحانق بأنه يبحث عن قافلة عربات علي مسافة عشرة كيلومترات من الشاطئ. ولكن جندى الشرطة العسكرية ابتسم بسخرية ثم هتف قائلا:

«عربات! هل تتصور انك ستعثر علي عربات؟ من هذا المجنون الذى يمكن ان يقود عربة فى هذا الجحيم. ليس هناك احياء فى هذه المنطقة يا سيدى».

وفى الخامسة والنصف كان الظلام قد بدأ يخيم علي الجبهة، وكانت الانفجارات تملأ الافق مختلطة بهدير المدرعات واصوات الرشاشات، وهتافات الجنود الذين تدفقوا عبر الجسور. ورغم ذلك تمكنت طائرة

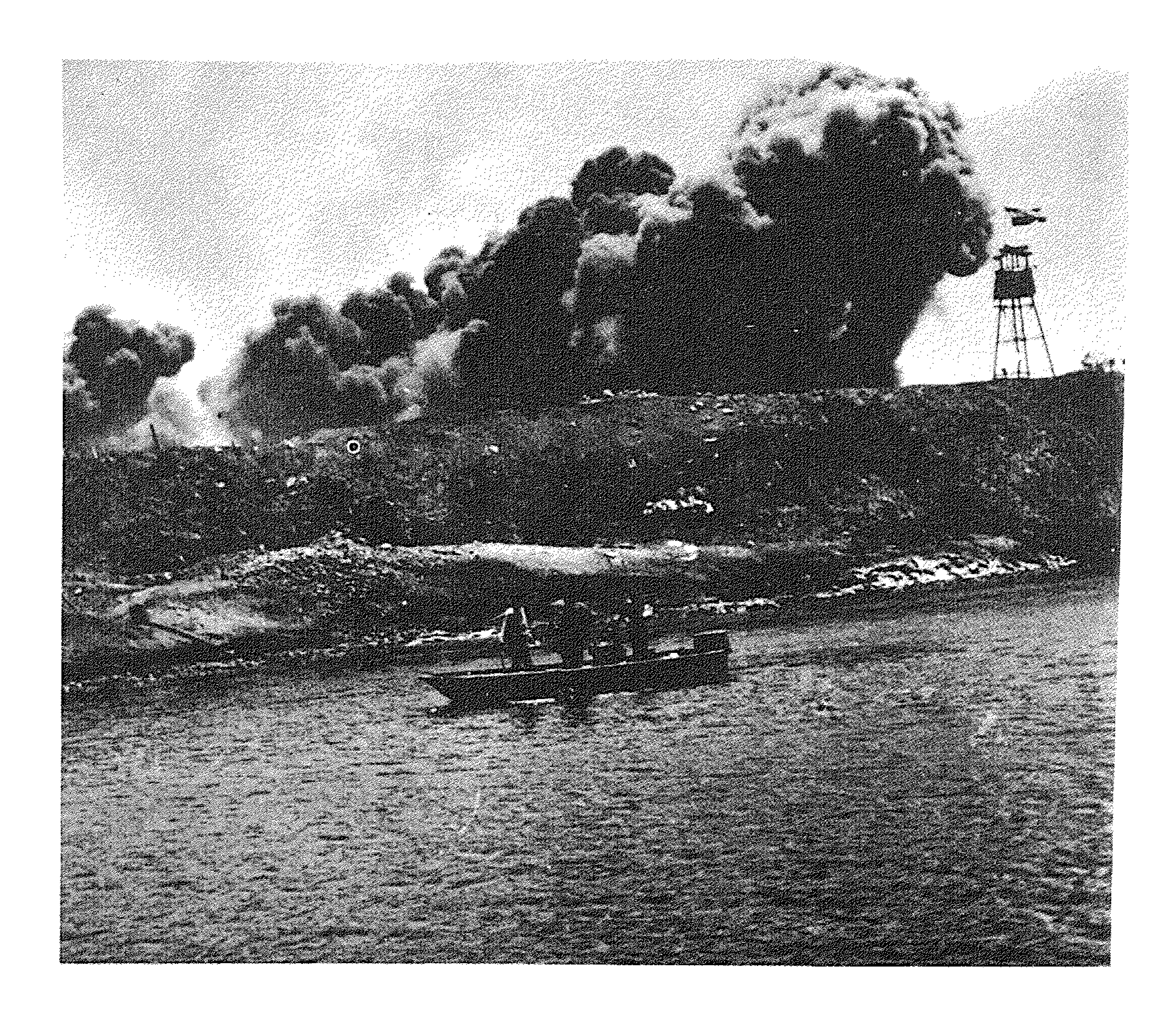
هليكوبتر رمادية من الهبوط بسلام علي الرمال بينما ظلت محركاتها تئز، وهبطت منها مجموعة مكونة من اربعة رجال، احدهم نحيل يتقدمهم ثم تبعه ثلاثة رجال يرتدون ملابس مدنية. واسرع الي مكانهم ضابط محارب ادي التحية العسكرية للرجل النحيل ثم تقدمه الي حيث كانت ست عربات محترقة تناثرت حولها الجثث وأضاء الرجال مصابيحهم اليدوية ثم اخذوا يبحثون بين الجثث وهم يقلبونها برفق.

وفى حفرة سوداء يبدو انها ناجمة عن قنبلة ثقيلة عثر احد الضباط علي جثة «موشى زكى رافع» راقدا علي جانبه الايمن وقد غطي وجهه بيديه ولم يكن بجواره اى سلاح. والتف الضباط الاربعة حول رجلهم دون ان يجرؤ احد علي التفوه بكلمة واحدة. وومض ضوء ساطع اعقبه صوت انفجار هائل تردد صداه فى الافق مرتين.

وهرول احد الضباط نحو الطائرة وهتف بصوت عال. وخرج من بطن الطائرة ستة جنود يحملون صندوقا من الخشب وعلما زاهى الالوان. وقبل ان تنقل الجثة الساخنة الي الصندوق اصدر الرجل النحيل امرا قصيرا وشد قامته. ووقف الضباط الذين يرتدون الملابس المدنية وقفة عسكرية. ورفع الضابط المحارب يده بالتحية العسكرية وحذا الجنود حذوه ثم حمل الجميع الصندوق الملفوف فى العلم وعادوا به الي الطائرة. وفى سماء اختلطت فيها الوان اللهب واصداء الانفجارات وهدير المدافع كانت الطائرة الهليكوبتر الرمادية تحلق بالجميع تجاه الغرب فى طريقها الي القاهرة.

وكانت هذه هى نهاية العريف رقم ٢٤٦٧٥ «موشى زكى رافع» الذى قتل وهو يؤدى واجبه دون ان يعرف حقيقته سوي نفر قليل من رؤسائه

الذين ما ان عادوا به الي القاهرة حتي قام قائدهم باغلاق آخر صفحة فى ملف خدمات امهر وأذكي ضباط المخابرات المصرية «عمرو طلبة» وضمه الي سجلات الرجال الابطال الذين ادوا واجبهم الذى انيط اليهم فى صمت وشجاعة وفى حقبة من احلك مراحل الحرب الشرسة بين الثعالب المصرية، والنمور الاسرائيلية طوال سنوات بلغت ذروتها فى الساعات الاولي بعد عبور جيش مصر قناة السويس فى السادس من اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٧٣.



مشاة القوات المسلحة المصرية عقب نجاحهم فى تحطيم اسطورة خط بارليف وبدء عبور قناة السويس لتحرير سيناء عام ١٩٧٣



احد الجنود المصريين بعد رفع علم بلاده فوق تحصينات خط بارليف المنهار

الورقـة الأخيـرة

نهاية عنيفة فى شارع بيت مزراحى

فى صباح أحد ايام شهر فبراير (شباط) عام ١٩٤٢ كانت حدة مطاردة الشرطة البريطانية لأخطر زعماء الارهابيين اليهود داخل المدن الفلسطينية قد بلغت ذروتها عندما انتهت سلسة المطاردات داخل غرفة اعلى سطح احد المنازل المتواضعة فى «تل ابيب» حيث انطلقت عدة رصاصات اخمدت انفاس «افراهام شتيرن» ومعها اغلقت الشرطة السرية البريطانية . «سى . آى . دى» (CID) احد اخطر ملفاتها وإسدال ستار النهاية على حياة واحد من اشرس زعامات الجماعات الصهيونية الارهابية التى ادارت انشطتها فى ظل سلطة الانتداب البريطانى على فلسطين فى تلك الحقبة .

غير ان اعدام افراهام شتيرن وبالطريقة التى تم بها ظلت اصداوها تتردد داخل منطقة الشرق الاوسط وأروقة الشرطة البريطانية طوال نصف القرن الماضى دون ان تجد ردوداً حاسمة على الغموض الذى شاب حلقات مسلسل العنف ومكافحة الارهاب ، والأدوار التى قام بها رؤساء اجهزة شرطة الانتداب البريطانى داخل فلسطين خلال عقد الاربعينات من القرن الحالى .

فى ذلك الصباح البعيد منشهر فبراير (شباط) عام ١٩٤٢ ، عقب ليلة غلست فيها الأمطار الغزيرة شوراع مدينة تل ابيب ، وخلفت ازقتها ركاماً من الوحل ومستنقعات المياه الآسنة ، كانت سيارة سوداد كئيبة يكافح سائقها فى شق طريقه داخل الحوارى الخلفية إلى أن اصبح فى منتصف «شارع بيت مزراحى احد ابرز معالم الحى الشعبى للمدينة عندما هبط منها اثنان من رجال الشرطة السرية واندفعوا نحو احد المنازل يقطعون درجاته الداخلية قفزا حتى بلغ اولهم الغرفة الوحيدة المعلقة فوق السطح فيما تخلف زمليه الاخر دون أن يستكمل منتصف الدرج للحظات قبل ان يلحق بزميله فى قفزات سريعة خفيفة . ويتوقف الاثنان أمام الباب الخشبى العتيق يلتقطان انفاسهما ويستعدان لمواجهة ذروة الموقف الذى اندفعا إليه بكل حماس .

كان مفتش الشرطة السرية (الرجل الأول) توم ويلكين ، والعريف برنارد ستامب (الرجل الثانى) من امهر ضباط مكتب التحقيقات الجنائية البريطانية «سى . آى . دى» اللذان كلفا بمهمة المطاردة قد تلقيا معلومات مؤكدة باختباء اخطر ارهابى دوخ فرق مكافحة الارهاب فى فلسطين لسنوات قليلة فى ذلك العنوان المذكور . .

ولم يتردد الرجلان طويلاً قبل ان يقتحما الباب الخشبى لغرفة السطح وبدآ عمليات تفتشيها بعصبية ظاهرة انتهت سريعاص دون عثورهما على شئ مهم ، أو الصيد الثمين الذى ذهبا للبحث عنه . وبدا الموقف اشبه بسيناريوهات المشاهد السينمائية الفاشلة التى تخفق فيها الشرطة فى القاء القبض على لص هارب لاوجود له ، يجرجر رجالها اقدامهم فى حركة

انسحاب بطئ عائدين من حيث اتوا . ولكن العريف «برنارد ستامب» بعد ان وشك على مغارة باب غرفة السطوح عاد إلى داخلها مرة أخرى بعد أن لفت انتباهه فرشاة حلاقة مبللة ملقاة اعلى خزانة صغيرة بجوار الفراش الوحيد الذى يحتل نصف الغرفة . وقبل ان يقوم بإعادة فحصها مرة أخرى تنبه إلى وجود سيدة تكسو ملامحها علامات الفزع وتعجز عن الكلام منذ ان بدأ مع زميله اقتحم مسكنها ويجريان عمليات تفتشيه الدقيق . كانت السيدة وتدعى «توفا سفوراى» هى الشخص الوحيد الذى تنبه اليه رجلا الشرطة عندما سألها «ستامب» عن زوجها وراحت تؤكد لهما انه لم يعد إلى المنزل منذ ثلاثة ايام . وكما هى العادة فى اسئلة رجال الشرطة السرية تظاهر توم ويلكين وبرنارد ستامب بزنهما لم يستمعا إلى ردها ، فقد كانا يعلمان فى الحقيقة ان الزوج «موشى سفوارى» معتقل لديهما منذ الليلة لسابقة .

وأثارت فرشاة الحلاقة المبللة فضول العريف برنارد ستامب فاندفع يتحسسها ويعيد تساوله على المرأة مرة أخرى فى الوقت الذى كانت يده الاخرى تجذب ستارة من نسيج مهترئ مدلاة من قضيب حديدى لخزانة الملابس عندما سقط القضيب المعدنى بالستارة وبرز من خلفها رجل يكاد تنخلع عيناه من وجهه عندما اصبح وجهاً لوجه امام المفتش توم ويلكين وبرنارد ستامب . لم يكن الرجل الذى برز فجأة داخل خزانة الملابس سوى «افراهام شتيرن» الصيد الثمين الذى رد على رجلى اشرطة باسمه الحركى «يائير» عندما سألاه عن هويته .

كان الثعلبان رغم اسئلتهما المتلاحقة للرجل المذعور يعرفان جيدا

حقيقة صيدهما ، وأن حظة القائهما القبض عليه واحدة من اللحظات التاريخية فى مسلسلات المطاردة التى تقوم بها فرق المباحث الجنائية لشرطة الانتداب الفلسطينى فى تلك الآونة بالاضافة إلى أنها ستكون لحظات فاصلة فى مستقبلهما فى ما بعد والتى كتب عنها ستامب فى مذكرات نشرها لأول مرة فى بريطانيا بعد سنوات طويلة : « كانت اللحظات مشحونة بالرهبة والتوتر معاص عند العثور على افراهام شتيرن الشهير باسمه الحركى «يائير» وبدا المذعور كمن استيقظ توا من النوم ، فلم يكن يرتدى سوى ملابسه الداخلية وزوج من الجوارب تفوح منهما رائحة عطن نفاذة . . وما عدا ذلك فقد كان اعزل من أى سلاح سوى الخوف ابرز اسلحة المطارد لحظة القاد القبض عليه ! نادى مفتش الشرطة السرية توم ويلكين من النافذة الوحيدة فى الغرفة على سائق السيارة السوداء الكئيبة الراقدة فى نهاية الزقاق ، وطلب منه ابلاغ القائد المحلى لمكتب المباحث الجنائية «سى . آى . دى» جيفرى مورتون الذى وصل إلى المكان بعد عشرين دقيقة وبصحبته عدد آخر من الرجال احتشدوا جميعا ، بعد صعودهم ، داخل الغرفة الضيقة محيطين بالرجل المذعور «افراهام شتيرن» والمرزة التى اكتست ملامحها بأعمق علامات البلاهة «توفا سفوراى» .

ومنذ تلك الحظات . . ومضى الاعوام الخمسين التى أعقبتها فإن ما حث داخل الغرفة المعلقة فوق سطح احد المنازل فى شارع بيت مزراحى فى مدينة تل ابيب ما يزال موضع جدل كتبها رجلا الشرطة اللذان اوقعا بالصيد الثمين أو ملفات أجهزة المخابرات البريطانية ومركز الوثائق القومية ولسبب بسيط هو ان معظم الملفات السرية لشرطة الانتداب

البريطانى كان قد تم احراقها بعد تلك الواقعة بسنوات قليلة مع تهيؤ السلطة البريطانية للانسحاب من فلسطين وتسليمها على صحن من ذهب ودماء للعصابات الاسرئيلية .

غير ان مالا جدال فيه هو أن «افراهام شتيرن» فى مطلع ذلك الصباح البعيد من شهر فبراير عام ١٩٤٢ كان قد اصبح فى عداد الأموات ، كما كانت جثته مغطاة ببطانية رمادية اللون ملطخة بالدماء . كانت تلكنهاية مفاجئة لحياة عملية قصيرة حافلة بالأحداث . اذ كان عمره آنذاك يتزعم اشرس عصابة ارهابية عرفتها الامبراطورية البريطانية ، فطلية ثمانية عشر شهراً ادارت منظمته الصغيرة اعنف عمليات لارهاب فى فلسطين من جرائم القتل ونسف المنشات العامة والخاصة باسم حرية اليهود فى ارض الميعاد ، وعرضت سلطات الانتداب البريطانى خلالها تقديم مكافأة قيمتها ألف جنية استرلينى (وكان مبلغا ذا قيمة كبيرة انذاك) لمن يدلى بأية معلومات تؤدى إلى القاء القبض على افراهام شتيرن حياً أو ميتاً .

أما «افراهام شتيرن» نفسه فقد كان بولندى المولد ، رومانسى المشاعر ، يقرض الشعر ، ويميل إلى النزعات التبشيرية قبل ان يلتحق بجماعة «ارجون» الارهابية ثم ينشق عليها ليشكل منظمته الخاصة التى اصبحت تعرف فى بعد باسم «منظمة المقاتلين من أجل حرية اسرائيل» أو اسمها العبرى المختصر ليحى «LECHI» ، رافضاص بذلك التسليم بأن الاولوية يجب ان تعطى للحرب ضد البريطانيين والعرب . وقد كانت أيديولوجية «افراهام شتيرن» وأساليبه التكتيكية محط استنكار أغلبية يهود فلسطين آنذاك وعلمهم بأن «شتيرن» كان قد اجرى اتصالات مع السطلات

الايطالية الفاشية ، والالمانية النازية مقترحاً التحالف التكتيكى معهم منذ مطلع عام ١٩٤٠ ايماناص منه بأن بينه وبين ادولف هتلر مصالح مشتركة فى طرد اليهود من اوروبا وأنه سوف يسهل له ذلك الهدف فى مقابل هجرتهم إلى فلسطين .

أما بريطانيا آنذاك فقد كانت ترى فى افراهام شتيرن مجرد ارهابى عميل ينشط فى بيع يهود بولندا بأى ثمن ولو كان تحالفا مع سادولف هتلر، وأجهزة مخابرات «الدوتشي» الايطالية ، وإنها (أى بريطانيا) ترى ضرورة فى التخلص من شتيرن وأمثاله بأى وسيلة خاصة فى تلك الظروف الحالكة التى كانت تعيشها بريطانيا بعد ان تقدمت الجيوش النازية إلى شمال افريقيا فى عام ١٩٤١ واحتلال منطقة البلقان واختراق جيوش «البانزر» اراضى الاتحاد السوفياتى فى الوقت الذى كان العراق قد اصبح تحت سيطرة انقلاب يقوده رشيد عالى الكيلانى المتعاطف مع دول المحور .

فى نفس الوقت كان افراد «عصابة شتيرن» يعدون العدة لحملة ارهابية واسعة النطاق فى انحاد فلسطين منذ شهر نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٤١ ، ونجاحهم فى اغتيال ثلاثة من رجال الشرطة البريطانية اليهود ، ثم قتلهم فى اوائل يناير (كانون الثانى) عام ١٩٤٢ يهوديين آخرين إثناء قيام منظمة شتيرن بالسطو المسلح على احد المصارف ، ومع تصعيد اعمال العنف واصلت «منظمة ليحى» قتل ثلاثة آخرين من كبار ضباط شرطة الانتداب البريطانية (اثنان منهم كانا من اليهود الذين يحظون باحترام

الجالية اليهودية) ، عندما انفجرت قنبلة تم تفجيرها الكترونياً فى احد السيارات التى تنقلهم .

وبعد ذلك بأسبوع اطلق جيفرى مورتون قائد الشرطة الجنائية البريطانية فى تل ابيب النار بنفسه على عدد من ارهابى منظمة شتيرن فقتل اثنين منهم وأصاب الثالث بجراح والقى القبض عليه ، ولم يكن سوى موشى سفوارى فى شقة بالطابق العلوى من بناية فى شارع ديزنجوف فى تل ابيب . . واعتقل سفوارى فى مركز الشرطة فى الليلة السابقة التى استكملت فيها عمليات مطاردة افراهام شتيرن نفسه إلى أن القى القبض عليه هو الآخر وتم قتله فى غرفة اعلى سطح شارع «بيت مزراحى» .

وتؤكد رواية جيفرى مورتون التى سجلها فى مذكراته المنشورة فى بريطانيا فى مطلع الستينات حالة الخوف والرعب الشديدين ، التى سيطرت على شرطة الانتداب البريطانى فى فلسطين ابان تلك المعارك التى دارت رحاها بين الشرطة والارعابيين .

ويقول مورتون فى مذكراته عن تلك الايام العاصفة ومشاهد السيناريو الأخير لتصفية ابرز زعماء «منظمة شتيرن الارهابية» ليحى : «بعد ان دخلت شقة الطابق العلوى فى بناية شارع ديزنجوف شاهراً مسدسى الاوتوماتيكى وجدت داخلها رجلين مطلوبين ورجلا ثالثاً لم اكن اعرفه . تبادلنا النظرات الحادة فى ثانية ملؤها الخوف وعندما صرخت : «لاتنهضوا . . انتفض الرجال الثلاثة ، ومد الرجل الغريب يده نحو معطف ملقى على مقعد بجوار سريرين داخل الغرفة ثم تقدم الآخران نحوى

بسرعة ، الأمر الذى اضطرنى إلى أطلاق النار عليهما من مسدسى حيث اصبتهما وزميلهما الثالث بجراح بليغة . . بعد ذلك عثرت على مسدس محشو بطلقات الرصاص فى جيب المعطف الذى لم يتمكن ثالثهم من اخراجه والدفاع به عن نفسه! » .

وضيقت الشرطة الخناق على الارهابيين وساعدها فى ذلك تعاون يهود المنطقة الساخطين على اعمالهم مع ضباط الشرطة الجنائية البريطانية . وبدت ايام افراهام شتيرن بعد ذلك معدودة . فقد كان يطوف فى تلك الايام ليلاً شوارع تل ابيب المظلمة بسبب التعتيم المفروض عليها آنذاك حاملاً نسخة مهترئة من التوراة وسريراً يطوى ، لكنه يظل على اتصال برفاقه عن طريق المراسلين الذين كانوا يجلبون له الطعام والرسائل .

وحياة افراهام شتيرن وموته والغموض الذى لف سنوات عمره التى عاشها تشبه الاساطير ، كما اطلق على شارع بيت مزراحى الذى قتل داخل احد مساكنه «شارع شتيرن» وتحولت غرفة السطح إلى متحف تديره وزارة الدفاع الاسرئيلية ومزاراً سياحياً للصوت والضوء حيث تبث منه تسجيلات تروى ما حدث لشتيرن فى آخر ايامه .

وفى يناير (كانون الثانى) من العام الحالى ١٩٩٢ عقد الكنيست الاسرائيلى جلسة خاصة بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس منظمة شتيرن ، واجتمع اعضاؤها القدامى الباقون على قيد الحياة كما يفعلون فى كل عام لزداد صلاة الموتى اليهودية بجانب قبر شتيرن فى مقبرة «تهلات إسحاق» فى مدينة تل ابيب . وأصدرت الحكومة الاسرائيلية بهذه المناسبة طابعاً بريدياً خاصاً باسم افراهام شتيرن .

ويحتفل بذكراه منتقدوه والمتحمسون لتاريخه الارهابى على حد سواء ، من تيارات الوسط واليسار فيما لاتصدق شرائح عريضة من الاسرائيليين كيف يحتفى على هذا النحو برجل كان منبوذاً فى ايامه ويصعدون من الدعوة لإبقائه منبوذاً إلى الابد .

والواقع ان كل ما يتعلق بأفراهام شتيرن من معلومات فى الملفات البريطانية تشير بصورة غير مباشرة إلى دوره السياسى والجدل الساخن الذى يحيط هذا الدور دون توظيفه فى سياق التاريخ ، غير ان عملية اعدامه بالرصاص كانت مصدر إلهام لأتباعه فى السنوات الست التالية من الحرب العالمية الثانية ، خاصة بعد ان نفذ هتلر حله النهائى فى مناطق اخرى من اوروبا بالنسبة لليهود . واقتربت فلسطين ـ التى اوصدت ابوابها آنذاك فى وجه الهجرة اليهودية غير الشرعية من شفير الهاوية . وتضمنت الاعمال الارهابية الشرسة لعصابة شتيرن اغتيال «اللورد موين» عام ١٩٤٤ فى القاهرة ، وكذلك اغتيال كبير مفاوضى الأمم المتحدة «الكونت فولك برنادوت» فى القدس عام ١٩٤٨ .

كما وصف وينستون تشرشل رذيس وزراء بريطانيا الأسبق الذى كان متعاطفا مع الصهيونية افراد عصابة شتيرن بأنه لا اختلاف بينهم وبين عصابات فرق العاصفة النازية .

وقد ظل افراهام شتيرن يمثل بعداً شيطانياً فى النزاع العربى - الاسرائيلى طوال نصف القرن الماشى ، ففى مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط الذى عقد فى مدينة مدريد فى نوفمبر من العام (١٩٩١) الماضى لوح وزير الخارجية السورى فاروق الشرع رفى حركة سياسية بارعة

بملصق بريطانى قديم عليه صورة اسحق شامير مكتوب عليه «مطلوب» فى محاولة ذكية لتذكير العالم بدوره الارهابى وماضيه الدموى .

وكان «شامير» الذى اصبح اسمه الحركى «مايكل» بعد وفاة شتيرن من ابرز قادة عصابة شتيرن وظل كذلك إلى ان فرضت أول حكومة اسرائيلية حظراً على نشاط تلك المنظمة .

على ان تصفية افراهام شتيرن ظلت فى ملفات أجهزة الشرطة والمخابرات البريطانية أكبر وأهم انجاز قامت به اثناء السنوات الأخيرة من الانتداب البريطانى على فلسطين . فبعد خمسة ايام من اعدام شتيرن فى شارع بيت مزراحى ، ارسل المفوض السامى البريطانى فى فلسطين «السير هارولد ماكمايكل» فى ١٧ فبراير ١٩٤٢ برقية إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات فى لندن جاد فيها :

«نجم عن اجراءات الشرطة لإلقاء القبض على افراد عصابة شتيرن وفاة شتيرن نفسه مع ارهابيين آخرين بعدما حالوا مقاومة اعتقالهم من قبل الشرطةش . وفى برقية لاحقة اسقطت كلمة «مقاومة» .

وفى ٢٠ فبراير رفع المفتش العام للشرطة البريطانية فى فلسطين «آلن سوندرس» تقريراً إلى جكومة فلسطين كتب عليه عبارة «سرى للغاية» جاد فيه : « كان شتيرن يرتدى نعلاً فطلب إليه نزعه وارتداء حذاء بدله . وجلس على السرير اثناء شده لأربطة الحذاء وفجأة قفز باتجاه النافذة التى كان يجلس قبالتها . وكان نصف جسده خارج النافذة عندما اطلق شرطيان أو ثلاثة كانوا فى الغرفة النار عليه فأصابته طلقات فى الرأس قرب اذنه وفى الجزد الأيسر من صدره حيث مات على الفور .

وهذا التقرير ما يزال التقرير الرسمى المفصل والوحيد عن الحادث ، كما أنه اساس رواية جيفرى مورتون عن الحادث باستثناد التفاصيل الدقيقة التى وردت فيه .

لكن وعقب انتهاء الحادث وأياً كانت الدوافع التى ادت إليه جرى تحقيق سرى فى ملابساته ، اشار خلالها الطبيب الشرعى (وكان عربيا) الذى قام بتشريح جثمان شتيرن إلى ان «قتل افراهام شتيرن كان مبررا» فيما كان الشهود القلائل الذين استمع إلى افاداتهم فى هذا التحقيق هم من افراد الشرطة والمرأة البلهاء «توفا سفوراى» وان كانت محاضر هذا التحقيق والافادات التى جاءت به شبه مفقودة لم يطلع عليها احد ، ولا اثر لها فى اى مكان أو مركز من المراكز المعنية بحفظ وثائق تلك الحقبة .

غير ان جيفرى مورتون رئيس أجهزة الشرطة الجنائية البريطانية فى تل ابيب فى عام ١٩٤٢ دون فى مذكراته التى قام بنشرها فى بريطانيا عام ١٩٥٧ بعنوان «العمل المطلوب» اعادة لرواية حادثة مقتل افراهام شتيرن فى سيناريو آخر اكثر تبريراً لما حدث من الشرطة اذ يقول :

«فجأة اسرع شتيرن باتجاه نافذة مفتوحة تؤدى إلى سقف مسطح . . ولم يكن لدى مبرر للتشكيك فى تهديده المتكرر بتفجير نفسه مع محتجزيه ، فى الوقت الذى لم يكن بمقدوره الفرار بسبب حصار الشرطة للمنزل الأمر الذى كان يعرفه شتيرن حق المعرفة فماذا كانت غايته ؟ ؟ لقد خلصت إلى الاعتقاد الجازم بأنه كان يحتفظ بجهاز تفجير حارق اخفق فى الوصول إليه فى تلك الغرفة التى تعلو سطح منزل شارع بيت مزراحى ، وتفاديا لمهزلة اخرى تكون ضحيتها الشرطة البريطانية فى ذلك

المكان التعس واللحظات المشحونة بالتوتر والخوف انطلقت الرصاصات فى جسد شتيرن قبل ان يتمكن من الهرب» .

وفى النهاية رغم تكرار جيفرى مورتون هذه الروايةوبصور مختلفة امام احدى المحاكم البريطانية العليا لم يقدم مورتون أو غيره تصوراً واقعياً وحقيقياً للكيفية التى تم بها اعدام ابراهام شتيرن وظلت نهايته سراً غامضاً فى ملفات أجهزة الأمن البريطانية طوال الأعوام الخمسين الماضية . . وربما إلى الأبد .

المراجع

Unexplained Nysiries of world II, Ry Roluest Fackson Apple Press., 1989

Frogman Spy . By M. Gand Welham. Published by : W H Aileu - 1990

Imporial Wan museum . Lamder . Greet Reitai .

The Fiends- Rritain;s Post area Secret intelligence opreations

Ry : Nigel West .

Published by :

Hodder & Stonghton .

Amatter & Trust (MIS 1945-1972) By Nigel West .

British Secret iwelligeuce Mice . By Nigel West

"GCHO ." The Secret wirelless War 1900-1986 By Nigel West

Mossad : Israel's Most Secret Service - By Ronald Payne

Published by : eorio Books

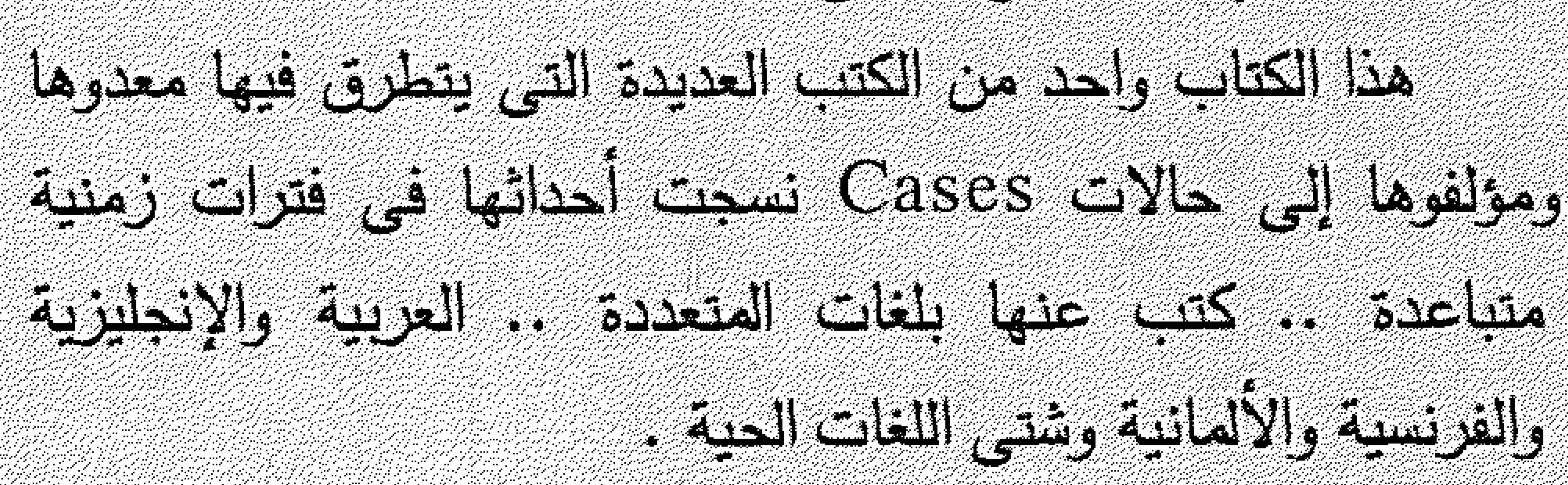
Israel's Secret was by Ian Black and Beuny Moris

Published by Future Publication

British eilurary .Colidale - London .

Public Record Office . Kew. London .

الفهـــــرس



الكتاب . . والمؤلف

هذا الكتاب واحد من الكتب العديدة التى يتطرق فيها معدوها ومؤلفوها إلى حالات Cases نسجت أحداثها فى فترات زمنية متباعدة .. كتب عنها بلغات المتعددة .. العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية وشتى اللغات الحية .

والواقع أن القارئ المعاصر فى حقبة التسعينات وما سيأتى بعدها لن يكف عن القراءة وحب المعرفة حولها .. خاصة تلك الحالات التى تمس التحديات الأمنية والإستراتيجية للأوضاع العربية والدولية الراهنة .

وقد تكون لدينا فى المكتبة العربية بعض من هذه المؤلفات والترجمات التى تتناول مثل هذه الحالات التى يطرحها المؤلف طلعت المرصفى فى كتابه عن « الأوراق المجهولة فى ملفات المخابرات العالمية » ولكنها - ودون مبالغة - أقرب إلى أن تكون مقالات سياسية مطولة ، أو سرداً روائيا لا يخلو من الخيال الخصب الذى يفتقد إلى المعلومة والحقيقة المجردة .

ومؤلف الكتاب واحد من أبناء مصر القلائل الذين تخصصوا فى وضع الدراسات وإعداد الأبحاث العسكرية والأمنية داخل مصر وخارجها منذ مطلع السبعينات . وله فى هذه المجالات مشاركات فعالة مع غيره من المتخصصين جهداً بارزاً فيما يطلق عليه مؤلفات « البحث والدراسة » القليل منها تحول إلى كتب ومسلسلات إذاعية مثل كتاب « المفاجأة » الذى نشر فى أعقاب حرب أكتوبر العظيم عام 1973 وعرفه قراء تلك الحقبة الماضية بإسم « ماهر عبد الحميد » أو مسلسلاً بثته الإذاعة المصرية بإسم « تذكرة إلى أثينا » و « ثعالب ونمور » و « أقداح مورة فى مقاهى باريس » .. وحتى مغادرة الكاتب والرحيل إلى أوروبا والإستقرار فى لندن متفرغاً للبحث والدراسة والتنقيب عن الوسائق السرية والمجهولة . يكشف عن معطياتها .. « المعلومة » .. ويسرد « الحقيقة » و .. كان فى كل المجالات التى تطرق إليها يمس قضايا وحالات على درجة كبيرة من الأهمية يتطع شباب القراء إلى معرفتها وسبر أغوارها .

و .. طلعت المرصفى فى كتابه « أوراق مجهولة فى ملفات المخابرات العالمية » يعرض « « حالات » وقضايا شغلت إهتمام الرأى العام المصرى فى بداية الخمسينيات بنفس القدر الذى أثارت جدلاً عنيفا حالات أخرى أدار أحداثها جواسيس وعملاء وزعماء سياسيين وقادة عسكريين خلال سنوات الحرب العالمية الثانية مستخدماً أسلوب السرد الروائى والتأريخ للحقب التى عاشها .. ولكن برؤية جديدة .. ومواقف للرأى تستند إلى تحليلات أبرز المتخصصين من العسكريين وشئون القضايا الأمنية ذات الأهمية التاريخية والنظرة الإستراتيجية إلى تيار الأحداث .

على أن المهم فى « أوراق » الكتاب هو جمعه البحث والإستقصاء الأصيل لوضعه فى إطار من الحقائق والوثائق والمعلومات المجردة التى تهم الباحثين والدارسين .. بنفس القدر الذى تهم به شرائح عريضة من قراء جيل التسعينيات .